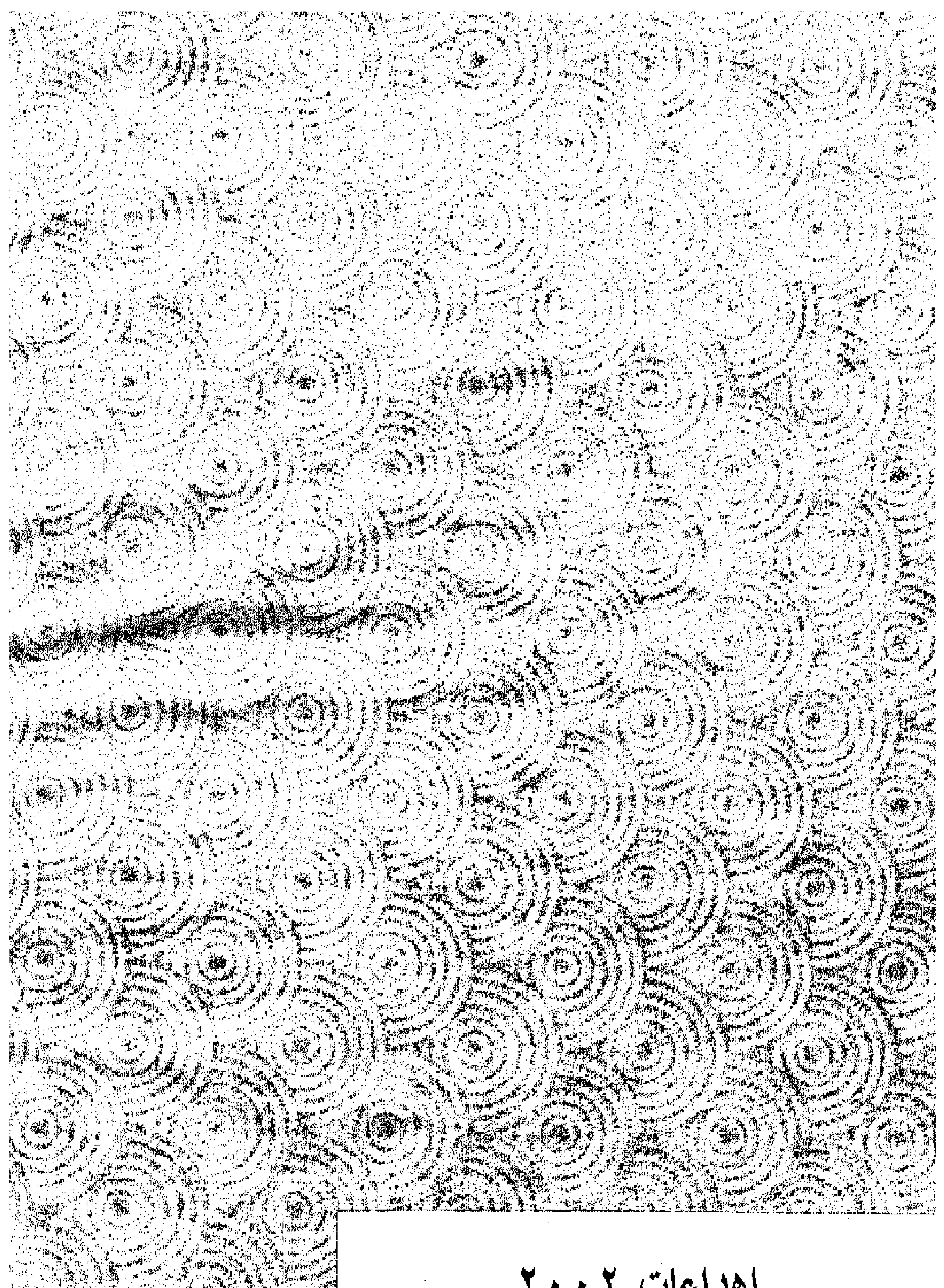








اهداءات ٢٠٠٢

أ.ح بحرى/أسامة حسن ابو السعود

القاهرة

صندوق الدنيا

بقلم

ابرهيم عبد القادر المازنى

الطبعة الأولى — على نفقة دار الترقى للطبع والنشر بالقاهرة

سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

مطبعة الترقى بشارع الساحة بمصر

الفهرس

كلمة الناشر

لا أنشر للأستاذ المازنى كتاباً يشتمل على مقالات مختارة فاتنة الأسلوب بارعة الفكاهة ، ولكنما أنشر نوعاً جديداً من أنواع الأدب لم تعهده العربية وشكلا من أشكال الفن القصصى يصح القول بأن الأستاذ المازنى راح بفضل السبق اليه على وجه يدنو من الكمال بقدر ما يدنو عمل إنسانى .

أقصد أن الأستاذ المازنى أدخل إلى أشكال الأدب العربى طريقاً . فنى الحوار الذى يدور بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين أصدقائه هو ، ضرب من القصص يستهويك ويبعث فيك شغفاً بحوادثه ومواقفه الدراماتيكية — والدرام فيها الفاجعة وفيها المهزلة — ويبتعث فى قلبك عطفاً على أبناء الحياة ، وأسى على مرازئهم وغباواتهم ، بل وعلى حجاهم وجدهم .

وهكذا يجب أن يكون الأدب : من الحياة ولها ومكتوباً بمادتها . ويسرنى كثيراً أن يكون لى شرف المعاونة تى إظهار أثر

فنى يزيد فى ثروتنا البيانية ويشجعنا على الأمل فى أن يأخذ الأدب المصرى الحديث مكانه بين الآداب العالمية ومنزلته من الخلود

أقدم هذا الكتاب لقراء العربية وللمستشرقين الذين شرعوا يهتمون بثمرات القرائح وآيات الخلق فى مصر . وكم ذا كنت أكون سعيداً لو أتيح للأستاذ المازنى مترجم ينقله الى لغة أو لغات أوروبية ، فان أستاذنا فى فكاهته يسمو الى طبقة الكتاب المبدعين من أهل هذا الجيل ، ولا يهبط فنه عن فن أى كاتب قصصى معاصر

احمد نجيب

الإهداء

الى التى منها معدنى ، واليها المآل . . .

الى أمنا الأرض . . .

. . . .

ابرهيم عبد القادر المازنى

المقدمة

كنا نفرح « بصندوق الدنيا » ونحن أطفال ... نكون في لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا « الصندوق » مقبلا من بعيد فيلقى ما بيده من « كرة » أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ، ونحن في أثره ، ونتعلق بثياب الرجل أو مرقعته على الأصح ، فما هي بثياب إلا على المجاز ، فهذا ممسك بكمه ، وذاك بحزامه ، وآخر يده على الصندوق ، وهو سائر وظهره محنى تحت حمله ، ولحيته الكثة الغبراء مثنية على صدره ، ونحن نتلاغط حوله ونتوثب ، حتى يصير بنا الى الظل ، فيضع « الدكة » الخشبية على الأرض فنكون فوقها نتزاحم ونتدافع ونتصايح ونتشاتم قبل أن تستقر على أرجلها ، والرجل ساكن الطائر لا يعبأ بنا ولا يولينا نظرة ولا يحفل من بقى منا على « دكته » ومن زحزح عنها فوقع على الأرض فقام يلعن ويسب أو يبكى ويتوجع ، أو يمضى الى الحائط فيلصق به كتفه ويعمل يده في عينه .

ويخلع الرجل الحوامل عن كتفه ويقيمها أمامه ويرفع « الصندوق» ويحطه عليها ، فنزحف نحن « بالدكة » اليه وندنى وجوهنا من العيون الزجاجية الكبيرة وننظر ، وننتظر ، فان صاحبنا لا يعجل ، ويطول بنا النظر الى لا شيء ، والانتظار على غير جدوى ، فنرتد برءوسنا عن عيون الصندوق ، ونرفع اليه وجوهنا الصغيرة ، فيبتسم ويبسط كفاً كالرغيف ويقول : « هاتوا أولا » فتندفع الأيدى الى الجيوب تبحث عن الملاليم وأنصافها فتفوز بها أو تخطئها ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، وتلمع عيون وتنطفئ عيون ، وتفتر شفاه وتمط أخرى أو تتدلى ويقبل « المعدم » على « الموسر » يستسلفه مليما ، ويحدث فى عالم الصغار ما يحدث فى عالم الكبار ، من جود وبخل ، ومن مسارعة الى النجدة أو اغتنامها فرصة للانتقام ، ومن مساومة ومشارطة ومطل ، ومن تعيير بجحود يد سلفت ، ومحاسبة على دين قديم ، ويرجع المحرومون كاسفين آسفين أو ناقمين ثائرين ، أو راضين غير عابئين ، ويقعد السعداء ويقبلون على «الصندوق» وقد نسوا إخوانهم ، فكأنهم ما خلقوا ولا كانوا منذ دقائق قليلة أنداداً يتلاعبون ويفرح بعضهم ببعض ويجد فى قربه الروح والغبطة والأنس . ويطل الرجل من عين فى جانب «الصندوق» ويدير « اليد » فتبدو لعيوننا المشرئبة صور «السفيرة عزيزة» ربة الحسن والجمال ، و « عنترة بن شداد » الذى كان :

يهزم الجيش أوحدياً ويلوى بالصناديد أيما إلواء

» و « الزير سالم » و « يوسف الحسن » . .

ويكف اللسان عن الوصف والتحديث ، واليد عن الادارة والعرض ، فقد انتهى «الدور» واستوفينا حقنا ، فاما «دور» آخر بملاليم جديدة ، فالا فالقناعة كنز لا يفنى .

***

وقد شببت عن الطوق جداً ، وخلفت ورائى طفولتى التى لا تعود :

وصرت غيرى فليس يعرفنى اذا رآنى ، الشباب ذوالطرر

ولو بدا لى لبت أنكره كأننى لم أكنه فى عمرى

كأننا اثنان ليس يجمعنا فى العيش ، إلا تشبث الذكر

مات الفتى المازنى ثم أتى من مازن غيره على الأثر (١)

ولكنى ما زلت أمت الى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أخراى معقودة بأولاتها : كنت أجلس الى الصندوق وأنظر الى ما فيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على

---

(١) من قصيدتى « كأس النسيان »

هذا الأشعث الأغبر الذى يشبر فيافى الزمان ، وما له متقلب سوى آماله وهى لوافح ، أو نجم سوى ذكرى نورها خافت :

لهذا سميته « صندوق الدنيا » ...

ولا أزال أجمع له وأحشد . وما فتئ السؤال الأبدى عندى مذ حملت صندوقى على ظهرى : « ماذا أصور ؟ » هذه هى المسألة كما يقول هملت فى روايته الخالدة . والفرق بينى وبين هملت انه هو معنى بالحياة والموت ، وبأن يكون أو لا يكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبخعها . أما أنا فلا يعنينى شىء من هذا ، ولست أرانى أحفل لا الحياة ولا الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح والأشبه بالواقع أن أقول انى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هذا ، ذلك انى صرت كالذى زعموا أنه كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التى تعهد اليه فيها أو تأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له ، فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال : « ولكن متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا ! »

كذلك أنا — أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها — أقوم من النوم لأكتب ، وآكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فألتهم لقمة وأخط سطراً أو بعض سطر ، وأنام فأحلم أنى اهتديت الى موضوع ، وأفتح عينى فاذا بى قد نسيته فأبتسم وأذكر ذاك الذى رأى فى منامه أن رجلا جاءه فأنقده تسعة

وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فأطبق جفونه وبسط راحته وقال : « رضينا فهات ما معك »

وأشتاق أن ألاعب أولادى فيصدنى أن الوقت ضيق لا ينفسح للعب والعبث وأن علىّ أن أكتب ؛ وأرى الحياة تزخر تحت عينى فأشتهى أن أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة « هات » وأكون فى المجلس الحالى بحسان الوجوه رقاق القلوب وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول :

آه على الرقة فى خدودها   لو أنها تسرى الى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن وأروح أفكر فى كلام أكتبه صباح غد ! وأشرب فلا أسهو ، وأضحك فلا أرانى ألهو ، ويضيق صدرى فأتمرد وأخرج الى الطرقات أمتع العين بما فيها مما تعرضه الحياة ، فاذا بى أقول لنفسى إن كيت وكيت مما تأخذه العين يصلح أن يكون موضوع مقال ، فأقنط وأكر راجعاً الى مكتبى لأكتب ! وهكذا كأنى موكل بفضاء الصحف أملؤه ، كما كان ذلك الشاعر القديم المسكين موكلا بفضاء الله يذرعه

وشر ما فى الأمر أن يجىء إلى صديق فيقول : « أقترح عليك أن تكتب فى كيت وكيت » وتحاول أن تفهمه أن كيتاً وكيتاً هذين لا يحركان فى نفسك شيئاً ولا يهزان منها وتراً ، فلا

يفهم ، لأنه — على الأرجح — يظن أن الكتابة لا تكلف المرء جهداً وأن القلم هو الذى يجرى وحده بما يقطر من مراعفه وأن العقل والنفس لا دخل لهما فيما يخطه .

واذا ظللت أكتب وأكتب هكذا فماذا يكون ؟ لا أقول انى سأفلس ، فان الحياة لا تنفك أبداً جديدة فى رأى العين والعقل ، وهى لا تزال تسفر كل يوم عما يحرك النفس ، ولكنى خليق أن أجن ... نعم وماذا عسى أن يكون آخر هذا النصب ؟ ودع الجنون فلو كان إنسان يجن من كثرة ما كتب لكان عنوانى قد تغير منذ أعوام عديدة . ولكن تعال نجره حسابا صغيراً نسقط منه كل ما ليس بالأدبى :—

أنا أكتب فى الأسبوع مقالين ، فجملة ذلك فى العام تبلغ المائة ، وكل مائة مقال تملأ ثلاثة كتب كهذا ؛ فسيكون لى إذن بعد عشرة أعوام — اذا ظللت هكذا — ثلاثون كتابا غير ما أخرجت قبل ذلك ، أى ان كتبى أنا وحدى تملأ مكتبة صغيرة يجد فيها القراء ما يشتهون ولا يعدمون منها متعة أو سلوى ، وصاحبها لم يستفد إلا العناء .

والبلاء والداء العياء أن تكتب مرة مقالة فكاهية ، والطامة الكبرى أن تكون المقالة جيدة ، وأن تكون الفكاهة فيها بارعة . لا أمل لك بعد هذا أبداً ! لأن الناس يذهبون ينتظرون منك بعد ذلك أن تطرفهم بالفكاهات فى كل مقال آخر ! فاذا

أخطأوا عندك ما يطلبون من الفكاهة فالويل لك ، وأنت عندهم قد أصفيت أو ضعيف لا تحسن أن تكتب ، أو غير موفق فيما تحاول ، حتى ولو كنت تكتب جاداً ولا تحاول أن تمزح أو تتفكه . والناس معذورون فان وطأة الحياة ثقيلة ، وما دمت قد عودتهم أن تسليهم وتضحكهم أو أطمعتهم وأنشأت فى نفوسهم الأمل فى هذا ، فماذا تريد أن تتوقع ؟ ولكن الناس أيضاً خلقاء أن يذكروا أن الحياة قد تكون ثقيلة على الكاتب وانه لعل فى نفسه جرحا وفى صدره قيحاً ، وانه عسى أن يكون ممن يودون لو يضحكون ويضحكون غيرهم ، ويتمنون لو استطاعوا أن يجعلوا الدنيا جنة رفافة البشر ، ولكن هموما تجثم على الصدر وتقلص الوجه وتطفئ لمعة العين وتحبس البشر الذى يريد أن ينطلق وترد الضحكة التى كانت تهم أن تفرقع .

لقد صدقت فيما كتبت به الى صديق على صورة لى :

أخوك ابراهيم يا مصطفى ... كالبحر لا يهدأ أو يستريح

كالبحر حى الموج يقظانه ... لكنه من نفسه فى ضريح

من حوله الشطئان لا تنثنى ... تحبسه دون انسياح الفتوح

خلت من المعنى لحاظ له ... وكانت البرق المضىء المليح

حواء يا أماه أنت التى ... أورثتنى هذا البلاء الصريح

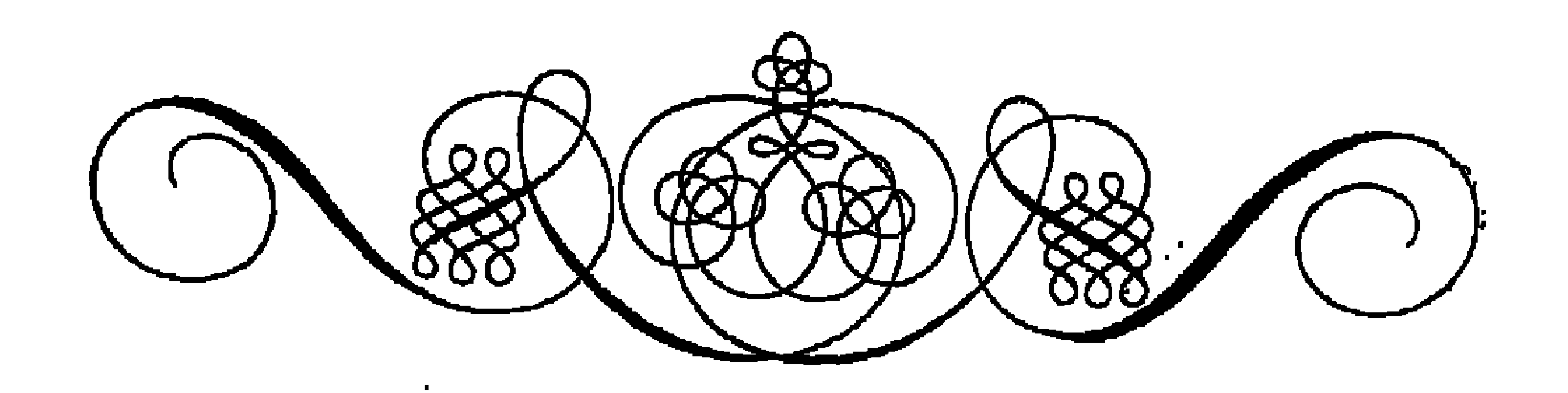
كم آدم أخرجت يا أمنا ... من خلده ، بعدأ بينا الطليح

الخ . الخ . الخ .

***

وكما أن « صندوق الدنيا » القديم كان هو بريد « الفانوس السحرى » وشريط « السينما » وطليعتهما ، كذلك أرجو أن يقسم لصندوقى هذا أن يكون — فى عالم الأدب — تمهيداً لما هو أقوى وأتم وأحفل . وليبن غيرى القصور ، فقد أضنانى قطع الصخور ، وتفتيت الوعور ....

ابرهيم عبد القادر المازنى



خواطر فى مرقص

بعد سنوات طوال أبت إلى معهد من معاهد الصبا ، وبى — وأنا الكهل المجرب — مثل حياء الغرير وخجلة الحدث واتخذت لى مكاناً قبل المرآة وقريباً من فرقة الموسيقى وعلى مستدار المرقص ، وكنت أول الداخلين وأسبقهم فى تلك الليلة . وكأنما نكر منى الخدم لمتى الموخوطة وقامتى القميئة العرجاء ونظرة الحيرة والقلق ، فجعلوا يصوبون عيونهم ويصعدونها فى ، وضايقنى أحدهم بكثرة لحظانه رجلى أو بما توهمته من ذلك ، وكبر على أن أرى هذا الزنجى المسيخ الخلقة يتغفلنى ويدور من ورائى ليتسنى له أن يتأمل — وهو آمن — حذائى واختلافهما ، فمددت له ساقى فى كبر وغطرسة ، ودعوته إلى باشارة ماؤها العجرفة وأمرته أن يسقينى شيئاً ، فمضى عنى وهو يبتسم فزاد ذلك فى حنقى وأقسمت لأهجونه .

نعم وقد بررت بقسمى وقلت فيه أو فى نفسى هذه الأبيات :

النجاء النجاء يابن ... من سيوف الهجاء ذات المضاء

لا لعمرى وأين تهرب منى ومناياى طى هـذا الهواء ؟

أنا كالموت مدرك كل حى　أتحداه بالأذى والهجاء
أنا كالشمس مدرك ليلك الاسود بالنور واللظى الكواء
أتوخاك حيث كنت من الأر　ض ولو غبت فى حبال الهباء
لو تخذت الرياح خيلا لما أفلت فارضخ لشيئتى وقضائى
ولئن طرت فى السماء فانى　بالغ منك مأربى فى السماء
ويميناً لأجعلنك أحدو　ثة كل الركبان والاملاء
ناشراً كل سوءة لك تطويها　دؤوبا ، وفعلة شنعاء
ومعيداً من حفرة القبر أشلا　ءك أنتن بهن من أشلاء
فاذا كنت مازعمت من الانسان　أطرقت شدة استحياء

***

سيقول اللعين : قزم يلاقيك　بساق عرجاء ذات التواء
إن أكن قزمة فان قوافى　طوال جداً بغير انتهاء
كل ذى عاهة ولا شك جبار　لحاذر من رجلى العرجاء
كان تيمور أعرج الساق فافطن　لمعانى العاهات والأدواء
وتأمل مثال ما نحن فيه　قصة سقتها عن القدماء
زعموا أن معشراً ركبوا الماء　وحثوا سفينهم بالغناء
ورآهم قزم فنادى مهيباً　أن دعونى أكن مين الشركاء
أنا قزم كما ترون فلا تخشوا　زحامى مجالس العظماء
فرضوا . وانبرى اليه سفيه　حسب الفضل كله فى الرياء
ذو لسانين ، بل بوجهين : ملاق　ووجه يعيب بالايماء

يتلقاك خاشعا باسم الثغـــر ويلقى حبائل الحقراء
واذا ما سمعته قلت سبحـــانك ربى ذا أوحد الفضلاء
واذا ما بلوته لم تصدق انه ينتمى الى حواء
ورآه القصير يضحك منه خاسبا انه من الاغبياء
واذا بالسفين جاش بها التيـــار والقزم آخذ فى النماء
وأحس الرفاق بالضيق حتى عالجوا غمرة الردى والفناء
وأخونا القصير يكبر اضعـــافا ولكن عن صحة وامتلاء
وانثنى سائل يقول من العمـــلاق ؟ أنا من كربه فى بلاء
قال كنت القصير قدما فأما الآن فالضخم هائل الانحاء

***

ذا مثالى لو كنت تفهم ياغر ولكن حرمت فضل الذكاء
ذا مثال العظيم يظهر فى النـــاس ويمضى بأوفر الانصباء
يحرم الناس ما ينالون لولا ه ، فهم من وجوده فى عناء
الخ الخ ...

واسترحت بعد أن أعملت فيه هذه السيوف الضاربة فى الهواء ، ولم أعد أبالى هذا الزنجى المسكين بعد أن عرفته « مقامى » ورميت اليه بهذا « البلاغ النهائى »، واستطعت أن أدير عينى فيما حولى وأن أرى ، وكان الناس قد بدأوا يفدون ، ورجال الموسيقى يصلحون آلاتهم ، وقد كنت وما زلت امرأ يلذ له أن يراقب إصلاح هذه الآلات وإعدادها للعزف وتهيئتها

لاخراج الأصوات المنشودة ، ولذلك عندي. وفى ملتى عملية بسيكولوجية ، وللنفوس كما لهذه الآلات أوتار تحتاج إلى المعالجة والاصلاح والاعداد ، ولكم عجبت لمن يحسب أن فى وسع الكاتب أو الشاعر أن يكتب أو ينظم فى أى موضوع وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار وفى كل حالة من حالات النفس ، وقد يتخذ بعضهم ذلك دليلا على القدرة ، وما هو بدليل إلا على أن النفس ضيقة محدودة الجوانب ، كالبيانو الميكانيكى الذى يحمله المتسولون والذى لايحتاج إلى ضارب أو لاعب ولا يتطلب منك إلا أن تدير مفتاحه فيخرج لك أنغاماً معينة لا يعدوها أبداً ، على خلاف البيانو العادى أو الكمنجا التى تستطيع أن تنطقها بما تشاء وتوقع على أوتارها ما تحب والتى يسعها أن تؤدى لك كل ما تستطيع ابتكاره من التوافيق والتواليف الموسيقية

ولم يدهشنى ، وأنا أنظر إلى المرآة فى تلك الليلة وأتأمل الشيب الذى انطلق فى رأسى ، وأفكر فيما أسلفت عليه القول أن أحس بالهرم وأشعر كأنى شيخ هم محطم الأعصاب مهدود الكيان ، ألست صحفياً ؟ ألا تتقاضانى هذه الحرفة التى أدركتنى أن أكتب كل يوم ، وأن لا أستريح يوما ؟ أليس معنى هذا انى فى كل يوم حين أريد الكتابة ، أقسر أعصابى على أن تكون فى حالة لم تتهيأ لها من تلقاء نفسها تهيؤاً طبيعياً ؟؟ وإذا كان المرء لا يفتأ كل يوم يثنى أعصابه ويكرهها على حالات مختلفة

ويصبها فيها أفيكون عجيباً بعد ذلك أن يشفى الجهاز العصبي على التحطم من توالى هذا الاجهاد والأرهاق ؟ وهذا شر ما فى الصحافة وأقسى ماتغبه . ولقد صدق من قال — ولعلى أناذلك القائل . فما أدرى على التحقيق — إنها مهنة يجب أن يكون أمل المرء ومطمحه من ورائها أن يعجل بالخروج منها وتطليقها .

وابتسمت إذ عرفت من بين الموسيقيين واحداً لم تغيره هذه السنين التى غيرتنى ولم تشب فى رأسه شعرة ولم تتركه إلا غضاً بضاً كما كان . وكدت أومن بالخلود فى الدنيا وأنا أنظر اليه وأعجب له وأقول : أتراه ذوى وذبل ثم عاد فربا واهتز كالشجر ، وعاد أخضر بعد إذ كان أصفر ؟؟ أسبع سنين لاشىء حتى تدع انساناً كما كان ولا تخاف أثراً فى وجهه أو هيئته أو مظهر قوته ؟ وفكرت فى طبيعة الزمن وسره المحجب وفى قول تنيسون فى زهرة : لو استطعت أن أعرف ماذا أنت من أصلك إلى فرعك لعرفت ما الله وما الانسان ، أو شيئاً بهذا المعنى ، وهذا صحيح فان فى أدق مافى الكون كما فى أجله وأضخمه جماع السر ، فالقطرة من الماء اختزال للمحيط ، وفى الذرة من الرمل معنى الصحراء ، ومن فهم «لحظة من الحياة» فأخلق به أن ينفتح له معجم الحقائق كلها ولكن ماهى اللحظة ؟ ؟ إن الزمن استمرار غير منقطع وليس هو بسلسلة من اللحظات المنفصلة منظومة كالعقد ، وإنما هو لحظة واحدة وحركة واحدة لا ابتداء لها ولا نهاية يستطاع

تصورها ، والحياة تغير مستمر وليس بصحيح أن شيئاً فيها — لا التاريخ ولا غيره — يعيد نفسه .

وبدا لى وأنا غارق فى هذه الخواطر كأن صاحبنا الموسيقى يقول لى على سبيل الاعتراض : ولكن حياتى أنا ليست سوى إعادة مكررة . وكل يوم عندى ككل يوم . فأنا أقوم عندالظهر وأحلق وأفطر ـ أوأتغدى إذاشئت ـ وأراجع بعض الاصوات أو الأدوار ثم فى المساء أركب الترام إلى قريب من هنا وأقضى الليل إلى الفجرفى هذا العزف ، فهل من شك فى أن ركوبى الترام ما بين منزلى وهذا المرقص تكرار وإعادة ؟ ؟ إن العوامل كلها واحدة فكيف تكون النتيجة مختلفة ؟

قلت دفعاً لهذا الاعتراض : كلا ياسيدى ليست العوامل واحدة فانها جميعاً مختلفة متباينة ، وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان ولكنى رغبة منى فى إقناعك أغفل من حسابى كل ماهو عرضى وأفرض جدلا وإكراماً لخاطرك أن المعجزة تقع كل يوم وأن كل شىء فى الترام يبقى كما هو يوماً بعد يوم ، فلا يتغير مقعدك فيه ولا ينقص أو يزيد أحد من راكبيه ، ولكنه يبقى بعد ذلك أن عمرك زاد يوماً بمضى كل يوم ، وإذ أسقطنا هذا أيضاً ولم نر له قيمة فانه يبقى أن حادثة السبت مقترنة بالسبت لا بالأحد لأنها سابقة له وهو لاحق بها ، وفى وسعك أن تركب هذا الترام مائة مرة أو مائتى مرة ولكنك لا تستطيع أن تركبه مرتين

للمرة الأولى أو مرتين للمرة الثانية أو للثالثة وفى قدرتك أن تقلد عملا صدر عنك ولكنك لاتقدر أن تعيده أو تكرره ، لأن «الآن» حقيقة فذة ينطوى فيها كل الماضى الذى لا يعيش إلا فى الحاضر ، وليس ثم لا ماض ولا مستقبل إلا تخيلا ، ولا شيء حقيقى أو شبيه بالحقيقى غير الحاضر . والماضى لا يتمثل للذهن إلا بالذكرى أو الأثر ، والمستقبل لا يستطاع تمثله إلا فكرة .

وخفت إذا أنا استرسلت فى هذه الخواطر أن يتغير عنوانى وينتقل الى « العباسية » فجعلت بالى إلى الموسيقى وإلى صاحبنا الذى يرمقنى بعين ويرمق « النوتة » التى يعزف منها بالأخرى من غير أن يؤدى ذلك إلى تفكك فى شخصيته ، وأدرت عينى فى جمهور الراقصين المتخاصرين فأثار المسمع والمنظر ذكريات وهاجا نبوءات وأنشأ رغبات وأجدا مخاوف ، ولم يسعنى إلا أن أعجب للحاضر — وأنا أعنى به اتصال الشخصية أو مايسمونه بالـ « ايجو » بما يحيط بها فى هنيهة من الزمن — أقول لم يسعنى إلا أن أعجب للحاضر وكيف أنه لا يشغل إلا حيزاً ضئيلا جداً من وعينا ، وللعقل الانسانى وكيف أنه لا يستطيع أن يفطن للحادثة أو يدركها حق الأدراك إلا بعد أن تمضى ولو بثانية واحدة أو بعض ثانية ، أى بعد أن يكون العقل قد لحق بها وكون لها صورة معينة . ذلك أن الحادثة عبارة عن حركة أو تدفق ونحن لاندرك الحادثة ولكن صورتها . والجانب الأكبر من

حياتنا العقلية عبارة عن تذكر للماضي — أى ما كان — وتوقع دقيق أو غير دقيق للمستقبل أى ما سيكون . ويمكن تقريب ذلك بمثال : صديقان — محمد وعلى — يلتقيان ، فتقوم عينا كل منهما بتبليغ هذه الحادثة ويتولى العقل تسجيلها ولا يستغرق ذلك شيئاً يذكر من الزمن ، ولكن المهم والذى يعنينا هو أن هذه الحادثة لا تدرك إلا بعد تمامها ووقوعها . أى أن كلا من محمد وعلى لا يشعر بلحظة اللقاء إلا بعد أن تمر وتلحق بالماضى ، وشرح ذلك أن محمداً يرى بعينيه صورة من صاحبه على فيما نسميه الحاضر ، ولكنه بعين عقله يرى أيضاً صورة مؤلفة من ذكريات اجتماعاته السابقة بعلى . ومقدار التوافق بين الصورتين هو الذى يجعل محمداً يعرف أن هذا هو على وكذلك مبلغ سروره بلقائه أو كراهيته له مرجعه إلى ذكر ما كان على قد قال أو فعل فيما مضى ، والى ما ينتظره — استناداً إلى الماضى — أن يفعل أو يقول فى المستقبل .

وقس على هذا غيره ، فالذى يدخل غرفة مثلا دخلها قبل ذلك تسعاً وتسعين مرة يدخل فى الحقيقة ما يصح أن نصفه بأنه مائة « رواية » لهذه الغرفة ، والذى يدخلها لأول مرة لا يعرف أى شىء هى إلا بفضل تجربته السابقة لغيرها من الغرف . ذلك أن الادراك مستحيل بغير الذاكرة وربما كانت الحياة نفسها مستحيلة بغير الذاكرة الواعية « التى تكون وراء الوعى »

إذ كانت الغريزة ليست إلا نوعاً من الذكرى . والعقل يعيش في الماضي لأنه يعجز عن إدراك الحاضر ولا يستطيع أن يدرس إلا ما وقع أي ما تم أو بعبارة أدق لا يدرك إلا صورة يستريح إلى التسليم بأنها مطابقة للحقيقة ، ومعنى ذلك أننا نعيش ونحيا بين الصور التي نرسمها لتيار الحياة ، وليست صورة المستقبل في أذهاننا إلا مرقعة من صور الماضي .

ولما وصلت إلى هذا الحد وجدتني أسأل نفسي : إذا صح ذلك أفلا يكون التفكير الانساني كله خرافة ؟؟ وإذا كانت درجة التطابق بين هذه الخرافة وبين الحقيقة ليست مما يمكن تعيينه أفلا يكون الشك مطلقاً ؟؟

وهربت من الجواب بنظرة إلى المرقص وكرعة روية من الشراب قلت بعدها لنفسي : إن فلسفة هؤلاء الراقصين أمتع من هذه الفلسفة التي لا آمن أن تؤدي بي إلى الشك في وجودي . إذ كيف أستطيع أن أثق بحواسي وبما تنهيه لي إذا اطردت هذه الاقيسة وجرى بي هذا المنطق إلى غايته ؟ وما لي لا أستنيم إلى مثل فلسفة هذه الخلائق المغتبطة ؟؟ وبأي شيء تفضل فلسفتي فلسفاتهم ؟ وإلى أي مدى أبعد تبلغ بي ؟ اسمح لي إذن بقدح آخر أيها الزنجي المحترم وصفحك عن هجائي الذي لم يضرك ولم تشعر به .

شذوذ الأدباء

الناس متفقون على أن الأديب على العموم ، والشاعر على الخصوص ، صنو المجنون ونده وقريعه ، وقد لا يقولون ذلك بألسنتهم ولكنهم يقولونه بسلوكهم نحوه ، فهم يفرضون فيه الشذوذ عن المألوف ويتوقعونه ولا يستغربونه ويحملون كل مايصدر عنه على هذا المحمل ويردونه إلى هذا الاصل عندهم ، وليس في هذا إكبار منهم له ، فانه بسبيل من سلوكهم نحو صنوف الملتاثين الذين يطلقون عليهم وصف « المجاذيب » كلا الفريقين مقبول عندهم على التسامح والعطف والمرثية ، ولو أن الناس رأوا رجلا يلبس ثيابه مقلوبة أو يمشى على رأسه وقيل لهم إنه شاعر لاقتنعوا ولبطل العجب ، كأن المشى على الرأس شيء يوائم الشاعرية أو هو مما تستلزمه حين يزخر عبابها . عرفنى مرة أحد الاخوان باثنين من الأعيان كانا معه فى مجلس فكان مما وصفنى لهما به أنى شاعر فأبرقت أساريرهما وغمر البشر وجههما . واستغنيا عن « تشرفنا » واعتاضا منها « ما شاء الله » و « سبحان الفتاح »

وأقبل على أحدهما يربت لى ظهرى ويمسحه لى بكف كمضرب الكرة ويقول : « أسمعنا شيئاً » كأنما كنت مغنياً على الربابة ، ولو أنى كنته لاستحييت أن أجيبهما إلى ما طلبا على قارعة الطريق ولشد ما خفت — وهما يلحان على — أن يمد أحدهما يده إلى بقرش !

وقد يتفق لى أن أكون مع جماعة من الاخوان فأفضى بالملاحظة أو الفكرة أحسبنى وفقت فيها ، وكشفت عن أستاذية وبراعة ودقة فلا أكاد أفرغ منها حتى أسمع من أحدهم أن هذا «خيال شاعر» وليته مع ذلك يعنى شيئاً سوى الفوضى والهذيان وقد أسكت وأشغل نفسى عنهم بشىء أفكر فيه فأنتبه على التغامز.

والبلاء والداء العياء أن المرء يتحرى أن يجعل سلوكه مطابقاً على أدق وجه للعرف والعادة فى كل صغيرة وكبيرة فلا يرى أن هذا يزيده إلا شذوذاً فى رأيهم . وكأن هذا الشذوذ المفروض فيه يبيح لهم أن يشذوا هم معه . كنت ليلة مستغرقا فى النوم — ولعلى كنت أغط أيضاً — وإذا بالباب يقرع كأن الواقف به قد استقر عزمه على تحطيمه ، ففزعت وقمت إلى النافذة أسأل عن هذا الطارق فقال فلان . فحل العجب والحيرة محل الفزع ، ولم يكن فلان هذا ممن أتوقع زيارتهم فى النهار فضلا عن الليل ، وفى الصيف فضلا عن الشتاء ببرده القارس ومطره المنهمر وكانت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، فلولا دهشة المفاجأة ولجاجة الرغبة فى الوقوف على سر هذه الزيارة المزعجة لقذفته من النافذة

بكل ما فى الغرفة من أحذية ومخدات بل لفككت السرير وهشمت له رأسه بأعمدته — من النافذة أيضاً . فقد كان فوق ذلك كله من أثقل خلق الله .

ونزلت اليه والمصباح فى يدى وفتحت الباب ووقفت فى مدخله « حجر عثرة » فى سبيله وبودى لو أستطيع أن أكون « حجر منية » . فجرى بيننا هذا الحديث :

هو — ليلتك سعيدة

أنا — مصححاً — نهارك سعيد

هو — آه صحيح : نهارك سعيد . هل كنت نائماً ؟

أنا — نائماً ؟ وماذا كنت تظننى فاعلا غير ذلك ؟ أ كنت تتوهم أنى هنا حارس ؟

هو — ها ها : هأ هأ هأ . . .

أنا — ها ها ؟ ؟ ماذا تعنى بها هاك هذه ؟ ألا تشعر أن من واجبك أن تبين لى السبب فى إزعاجى فى ساعة كهذه ؟ ألا ترى أن ها ها التى تملأ بها طباق الجو لا تكفى وأن خيراً لك أن تضم فكيك قليلا وتتكلم بلغة مفهومة .

هو — لقد كنت أظن أنك . . . .

أنا — كنت تظن ماذا ؟

هو — وعلى وجهه ابتسامة جعلته كجمجمة الميت — لم يخطر لى والله أنك نائم

أنا — بصوت هادىء ولهجة مرة — ولماذا بالله ؟

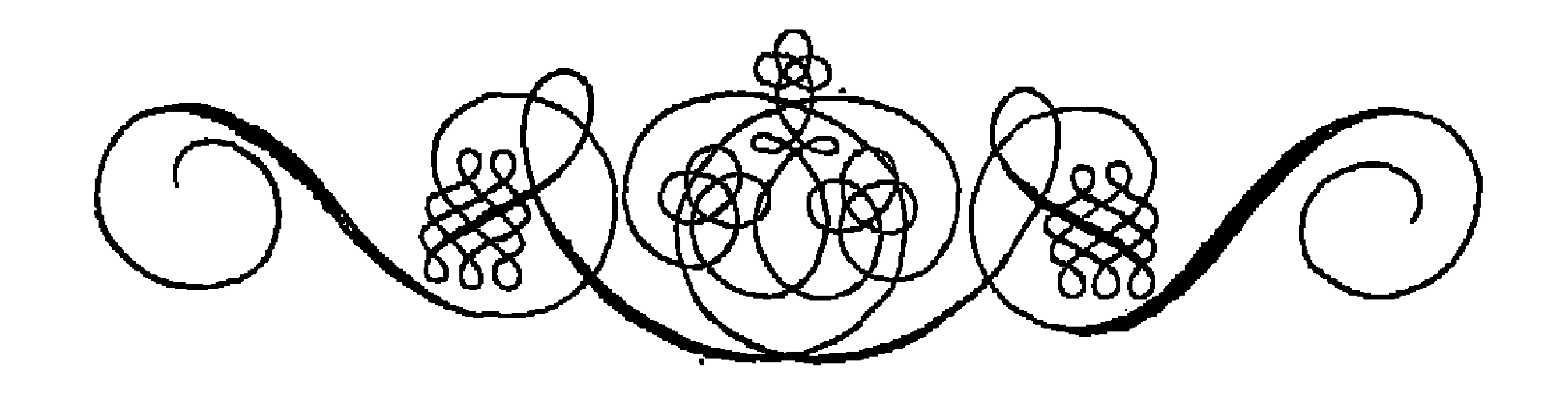
فترك الجواب على هذا وقال :

« لست أستغرب أن تتركني واقفاً بالباب في هذا البرد وإن كنت قد قطعت اليك أربعة كيلومترات مشياً على قدمى ، فان لكم معاشر الشعراء لأطواراً وبدوات غير مأمونة . »

فأطار صوابي تحميله إياى اللوم على ذنبه ولم أعد أحفل أهو أقوى منى أم أضعف فقبضت على عنقه وصحت به

« لقد كان ينبغي أن تمشى إلى جهنم . وسأدفنك حياً اذا رأيتك هنا ليلا أو نهارا — أسمعت ؟ ؟ » ودفعته عنى فانطلق يعدو كالقنبلة .

وثم من لا يرانى أنسى شيئاً أو أضعه في غير موضعه أو أهمل أمراً أو أطيل الصمت أو أفعل حتى ما يفعله الناس. آكل أو أشرب أو أنام ، إلا أحالوا على الادب وتخيلوا فيما أنا فاعل أو تارك شذوذاً ملحوظاً حتى ضقت ذرعاً بهذه الحال وصار وكدى أن أقنع كل من يتيسر لى إقناعه أنى لست بالاديب ، وأن قرض الشعر لم يكن منى إلا لهواً وتسلية — وعسى أن أكون أفلحت فليس أمض للانسان من أن يرى الناس يعدونه «غير مسئول» .



الصغار والكبار

قلت لابنى عصر يوم — وفى نيتى أن أزجره زجراً قوياً عن العبث بكل ما تصل اليه يده — « أتحب أن تخرج معى اليوم ؟ » وسبقته الى الباب الخلفى المفضى الى الصحراء ، وقلما كنت أستصحبه لتعذر السير عليه فى الرمال ، فرمى الكرة ومضى يعدو خلفى ليلحق بى. فلما اطمأن بنا السير شرعت أستقصى معه ما يعلم وما يجهل مما ينبغى أن يعلم ، وكانت خلاصة دفاعه — بألفاظى أنا لا بألفاظه هو — انه يكلف العلم بأشياء عديدة يجد عسراً فى فهمها وادراكها ، مضافا الى ذلك أنه لا يدرى كيف يمكن أن تعنيه هذه المعارف التى يطلب منه الالمام بها ، وأن كثيراً مما يشتهى أن يعرفه ويلذ له ويمتعه أن يحيط به ، لا يجد من يدله عليه . هذا فيما يتعلق بالعلوم والمعارف ، أما من حيث السلوك والسيرة ، فالمسألة أدق والمشكل أشد تعقداً ، ذلك أنه لا يزال يلقن — فى المدرسة وفى البيت — أن للخير والشر آثاراً ونتائج

تحيره جداً حين يتأملها أو يحاول أن يردها الى أسبابها ، مثال ذلك أنه غافلنا مرة واقتطف من الكرمة عنقوداً اضطره اقتطافه الى المخاطرة بالتسلق ، وأكله ولم يكتمني أنه كذب حين سئل في ذلك فقال : ان العنب كان يثب الى فمه . ومن العجيب — في رأيه هو — أنه كان في ذلك اليوم أصح وأنشط وأنه لم يصبه سوء ما وأن الله لم يعاقبه لا على الكذب ولا على أكل العنب خلسة ، ولا على الخطأ في كظ معدته وإدخال طعام على طعام .

ولم أكن أتوقع من ابني هذه المخاطرة التي باغتني بها وعارض لي فيها الواقع بما في الكتب وما على ألسنة المربين . فخرت ولم أدر ماذا أقول له ، وتحلل العزم على تأنيبه وألفيتني أفكر في الطفولة وطبيعتها ، وفيما نمسخ به هذه الطبيعة بما نحاول من اكراهها عليه وصبها فيه ، ثم تملكني روح العبث الذي أنكره عليه والذي كنت أهم أن أزجره عنه ، فقعدت على الرمل وأقعدته أمامي وقلت له بعبارة أقرب من هذه الى مستوى ادراكه :

« إسمع ! إني أفكر الآن في تأليف كتاب على نمط جديد ، كتاب مدرسي ولكنه يخالف كل ما في المدارس من الكتب . كتاب لذيذ ممتع جداً ، ولكني لا أستطيع أن أضعه وحدي بل لا بد لي من معين ، فما قولك في معاونتي ؟ ؟ هل تقبل أن تشاركني في تأليف هذا الكتاب ؟ » .

فنهض الى ركبتيه وأقبل على وجهي يربت لي خديه بكفيه

الصغيرتين ويسألني وهو يضحك :

« يابابا ماذا تقول ؟ »

« أقول انى أريد — بمعونتك — أن نصلح هذه الدنيا التى نراها — أنا وأنت — مقلوبة ؟ »

قال : « وكيف نفعل ذلك ؟ وكيف أساعدك أنا ؟ وماذا يسعنى ؟ »

قلت : « يسعك شيء كثير جداً ، فليس كونك صغيراً بمانع أن يكون لك عمل كبير . ولكن لا تربكنى بكثرة الاسئلة ، وخير لنـا وأنجح لقصدنا أن نتقصى الموضوع على مهل . ويجب قبل كل شيء أن اكون واثقاً من استعدادك لمعـاونتى ومن أنك ستفكر تفكيراً جدياً فيما يستقر عليه رأينا » .

فتعهد لى بذلك فقلت له :

« أليست شكواك أن الكبار من أمثالى .. »

« ليسوا من أمثالك يا بابا .. »

«حسن : أليست شكواك أن الكبار — غيرى — لا يحسنون تعليم الصغار أمثالك ؟ » .

قال نعم .

قلت ماضيا فى كلامى : « وأن الكبار يلزمون الصغار سلوكا يبدو للصغار غير معقول ويعاملونهم معاملة يمكن أن نسميها غير عادلة ؟ »

قال « نعم . وأنا أقول لك : لماذا ينبغى دائماً أن أنام فى الساعة الثامنة ؟ لماذا لا يسمح لى بالسهر أحياناً مع الكبار الى أن أحس بالحاجة الى النوم ؟ وإذا لم أنم كما تريد جدتى — حتى فى النهار — فانها تقول لى انى ولد عنيد ».

قلت : « هذا صحيح وإذا اتفق أن دار أمامك حديث وبدا لك أن تقول كلمة كغيرك من الجالسين ، زعموا أن هذا منك قلة أدب وسوء سلوك . أليس كذلك ؟ »

فهز رأسه مرات وهو لا يستطيع النطق من الاغراب فى الضحك ومضيت أنا فى ملاحظاتى التى شاقته وأعجبته وأرضته فقلت :

« وإذا رأوك تلعب بالكرة قالوا لك أنك شقى وأن اللعب بالكرة غير محمود ، وإذا سكت ولم تلعب ولم تتكلم ، زعموا أنك سيء الطبع ، أو ادعوا أنك مريض وسقوك على كره منك ملء فنجان من زيت الخروع ... »

فقاطعنى متمما لى ملاحظاتى :

« وإذا كانوا يبحثون عن شيء ولا يجدونه ظنوا أنى أنا الذى خبأته ، ثم إذا وجدوه حيث وضعوه نسوا أنهم هم الذين فعلوا ذلك واتهمونى أنا ، وأجادلهم وأبين لهم أن لا دخل لى فى ذلك كله فيختمون حوارهم معى بأنهم تعبوا من الكلام معى كأنى أنا لم أتعب أيضاً من سماع كلامهم »

قلت بدورى مقاطعا :

وإذا كسروا قلة أو كوباً لم يسألوا عيونهم لماذالم ترها كأن عيونهم ليست مكلفة أن تبصرشيئاً أبعد من أنوفهم ، بل راحوا يتساءلون عمن وضع القلة هنا كأن واضعها هو المسئول .... »

قال : « أما إذا كسرتها أنا فالويل لى من شيطان يجب أن يحبس فى غرفته منفردا »

قلت : « واذا كلفوك أن تأتى بشىء ولم تجده لأنه ليس فى المكان الذى بعثوا بك اليه أو لأن شخصاً نقله ، فانك تكون فى رأيهم ولداً خائباً وغبياً لا يفهم »

قال : « وأنا دائما المخطىء وهم أبداً على صواب حتى صرت واثقاً أنى لا يمكن أن أكون مصيبا فى عمل أو قول . وهذا يحيرنى جداً ويربكنى يابابا »

قلت : « أظن الآن أن موضوع الكتاب صار واضحاً ظاهر الحدود ، بين المعالم . وسنقلب فيه المسألة ونجعل الصغار هم العقلاء الحكماء الذين لا يخطئون أبداً ، والكبار هم الاغبياء البلداء الذين لا يصيبون والذين يحتاجون الى الرقابة والارشاد والزجر والتأديب »

فطار الغلام من الفرح ووثب الى رجليه وانهال على تقبيلا وألح على بالسؤال « أصحيح ما تقول يابابا ؟ »

قلت : « نعم . وسنسميه «المختار فى تهذيب الكبار» ونجعل

الصغار هم الذين يبقون فى البيت لتــدبير شؤونه ، والكبار هم الذين يذهبون الى المدرسة ، و نلبسهم مايلبس التلاميذ والتلميذات الآن من البذلات القصيرة ، و نقص لجدتك شعرها ونخرجها فى قبعة من قبعات البنات الصغيرة و نضع لها على صدرها «مريلة» و نبعث بها الى المدرسة، وإذا لم تحفظ دروسها عاقبناها بالوقوف ووجهها الى الحائط ، واذا أكثرت من اللعب حرمناها الحلوى واذا لم تنم فى الساعة الثـامنة عددناها سيئة الخلق عنيدة . ولم نخرج بها للرياضة فى يوم الجمعة »

قال : «ويجب أن نحرم عليها اللعب إلا مع لداتها من الجدات نظائرها ، واذا وجدناها تلاعب واحدة من الشواب عاقبناها بالحبس فى غرفتها ، واذا جلست ساكتة أو لم تتناول طعامها باقبال أنمناها فى سريرها وجرعناها ملء كوب من زيت الخروع، واذا كرهت طعمه أو تقززت من مذاقه قلنا لها أنه يفيدها وأننا نحن نعرف مايصلح لها ومالا يصلح . واذاجلست معنا واشتركت فى الحديث انتهرناها بنظرة ، فاذا لم تكف أفهمناها أن الكبار لا يصح أن يقاطعوا الصغار ... »

قلت : « واذا سألتنا —أعنى اذا سألت الصغار— عن شىء نجهله قلنــا لها : إن هذا امر لا تستطيعين فهمه وإدراكه الآن والسيدة المهذبة يجب ألا تكثر من الاسئلة أو تحشر أصابعها فيما لا تفهم »

قال : « واذا أكلت من الشكولاته أكثر مما يوافقها لم نأخذها الى السينما وحرمناها مناظر شارلى شابلن وأضرابه » .

ثم رفع الى وجهه وقد بدت عليه أمارات التفكير الجدى وسألنى :

« ولكن هل نسمح لها بالاختلاط بالرجال وملاعبتهم ؟ »

قلت : « بقدر . وعلى أن يكون لنا — أعنى للصغار — حق المراقبة والتدخل اذا وجدنا أن الضرورة تقتضى ذلك . »

قال : « والدروس التى نتلقاها الآن ألا يتغير منها شىء ؟ »

قلت : « أكثرها يبقى كما هو . ولكن الموضوع من كتب المطالعة والمحفوظات يتغير لأنه فى الاصل مجعول للاطفال ، وهذا يعود بنا إلى مشروعنا ، فان الذى أفكر فيه وأريد منك أن تعيننى عليه ، هو كتاب يحتوى طائفة متخيرة من القصص والموضوعات يتعلم منها الكبار آداب السلوك وما لهم وما عليهم فى الحياة ، والواجبات المفروضة عليهم نحو الصغار أولياء أمورهم ، ولذلك ينبغى أن يلغى من الكتب أمثال « سمير الأطفال » و « القراءة الرشيدة » للاطفال فانها جميعاً لا تصلح لمشروعنا » .

قال : « ومن يؤلف هذه القصص ؟ »

قلت : «أنا وأنت ، ولسنا نحتاج الى تعب كبير لأن الأمر لا يتطلب فيها أقدر إلا تحويراً قليلا يجعل القصة للكبار بدلا من الصغار » .

قال : «وهل نطبع الكتاب و نبيعه ؟ »

قلت : « ولم نتكلف وضعه اذا لم نطبعه لنبيعه ؟ »

قال : « وهل يشتريه الكبار ويقرأونه ؟ »

قلت : « اذا لم يفعلوا فان فى وسعى أن أوعز الى نفر من اصدقائى بأن يحملوا فى الصحف على الكتاب حملة عنيفة ، وبأن يصفوه بأنه مخالف للآداب ومناف لكل مادرجت عليه الانسانية ، وهذا وحده كفيل بترويجه »

قال : « وهل كل ما يخالف الآداب يطلبه الناس ؟ »

قلت : « لا أستطيع أن أقول نعم أو لا ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن حب الاستطلاع يدفع الناس الى طلب هذا الكتاب الفريد فى بابه »

قال : « وكيف تقرؤه جدتى وهى أمية ؟ »

قلت : « إن الأمية الفاشية بين الكبار من أمثال جدتك مما يسوغ مشروعنا ويجعله ضرورياً . أليس الواقع الآن فى الاغلب والأعم أن الجهلاء هم الذين يتولون تربية المتعلمين أمثالنا أو توجيههم فى الحياة واختيار مايصلح لهم ، والأمر ينبغى أن يكون على نقيض ذلك »

قال : « ولكن اذا لم نحسن تدبير المنزل أو اذا لم تجد الصغيرات مثلا طهى الطعام وتذمر منه الكبار ؟ »

قلت : « لن يعوزنا كلام نسكتهم به كما يفعلون بنا الآن . وما

علينا إلا أن نتهمهم بالبطر والتدلل القبيح ونزجرهم عن ذلك كله »

فضحك وقال : « إنك ماهر جداً يابابا . ولابد أن يكون الكبار قد ضايقوك جداً فى صغرك فأنت الآن تريد أن تنتقم منهم »

ثم ألقى إلى نظرة خبيثة وهو يسأل : « فهل كان أبوك ثقيلا يا بابا ؟ »

فتماسكت بجهد وسألته بدورى :

« ثقيلا مثل من ؟ »

قال : « لا أعنى مثل أحد ، ولكنه سؤال فهل أخطأت فيه ؟ »

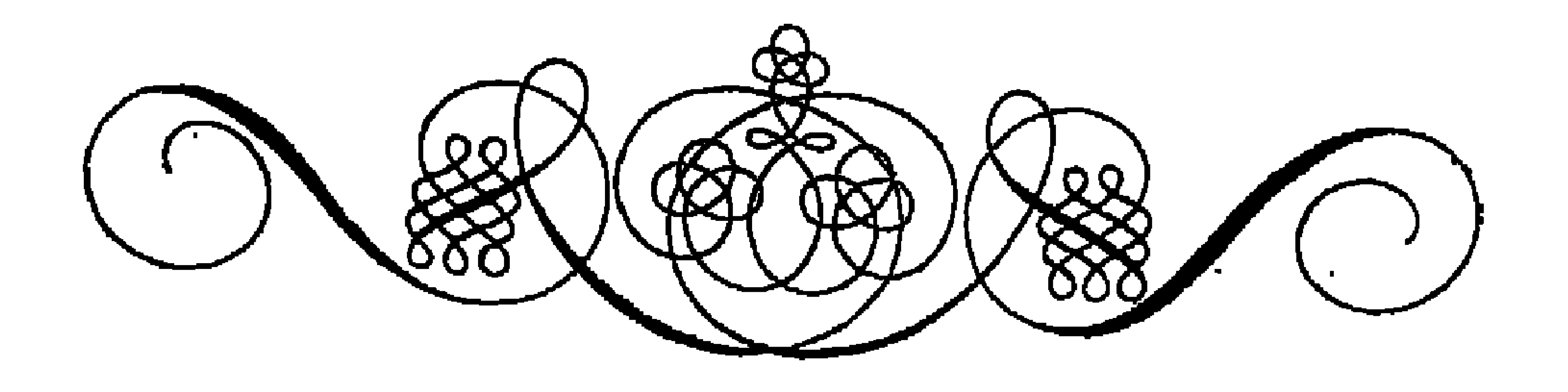
قلت : « كلا . ولم يكن أبى ثقيلا فيما أذكر ، وعلى أنه لم تتح له معى فرصة كبيرة لذلك ، فقد مات وأنا صغير »

* * *

وهنا رأيت أن الأحزم أن نعود مخافة أن يسترسل فى مثل هذه الأسئلة المحرجة ، التى جرها على التبسط معه فى هذا الموضوع والأطفال كما يعرف ذلك من كابدهم ، لا يستطيع المرء أن يتكهن بما يجرى فى رؤوسهم أو يعرف ماذا يتوقع منهم ، فان لهم وثبات غير مأمونة .

فنهضت وطلبت منه أن يفكر فى الموضوع . وبينما كنا عائدين سألنى فجأة : « وأنت يابابا هل نضعك مع الكبار أو مع الصغار ؟ »

فدفعت الباب ولم أحر نطقاً .



أشق المحادثات

محادثة الصم أشق شيء بعد محادثة النساء . إذا صح أن الرجل يتحدث أو تتاح له فرصة للكلام و هناك امرأة . و الفرق بين الحالتين — أعنى بين محادثة الصم ومحادثة النساء — أن المرء فى الحالة الثانية لا يزال يفتح فمه ، كلما توهم أن الحظ قد أسعفه بفرصة ، ولكنه ، فيما أعلم ، لا يجاوز التأتأة أو الفأفأة أو غير هذه وتلك مما هو منهما بسبيل ، ولا يكاد يزيد على « أ أ أ » ثم لا يرى معدى عن إطباق فمه ، وهكذا فلو أتيح لك أن تراه وهو يفتح فمه ثم يطبقه مرة بعد أخرى — دون أن تعلم أن هناك امرأة تتحدر كالسيل — لظننته يتثاءب من فرط الملل والوحدة . وشر ما فى الأمر أن المرأة لا تنفك تنكر على الرجل صمته وتستهجنه منه أو تعده دليلا على أن فى نفسه شيئاً من ناحيتها . وليس من الميسور أن يقول الرجل منا لأمه أو زوجته أو أخته أو لأية سيدة محترمة ، إن علة صمته أنها هى لا تكف عن الثرثرة.

كلا . هذا لاسبيل اليه فان عاقبته أوخم ، فهى ورطة كما ترى لا مخرج منها .

فرص الكلام معدومة أو فى حكم المعدومة ، والمصارحة مستحيلة ، والصبر على اللوم والتأنيب والاتهام ، عسير ، فماذا يصنع المرء ؟ توهمت مرة انى اهتديت الى تعليل للصمت المفروض على والمستهجن منى فى وقت معاً . فقلت لمن كانت تلومنى :

ألا تعلمين أنى مدرس ؟

قالت : « وما دخل هذا ؟ »

قلت : « اذا أكثرت من العمل بيديك ألا تتعبان ؟ »

قالت : « نعم ذلك . . . . »

قلت : « وإذا مشيت بضعة أميال ألا تتعب رجلاك ؟ »

قالت : « هذا صحيح ولكن . . . »

قلت : « تمهلى . واذا تعبت يداك أو رجلاك فكيف تريحينهما ؟ »

قالت : « بالكف عن العمل أو المشى »

قات : « انتهينا . أنا مدرس وليس لى من عمل طول النهار إلا إدارة لسانى فى حلقى ، فمن حق هذا اللسان أن يستريح بعد الجهد الشاق الذى بذله »

فاقتنعت يومئذ ، وبعد بضعة أيام كنت جالساً معها ، صامتاً كما هو مفهوم بالبداهة فدنت منى وقالت :

« اللسان يتعب ؟ أليس كذلك ؟ »

فأدركت أن وراء هذا السؤال أمراً . وقلت :

« نعم . شأنه فى هذا شأن كل عضو آخر »

قالت : « فما لفلانة المعامة لا تكف عن الكلام فى ليل، أو نهار ؟ »

والخلاصة انى أشك فى أن آدم هو الذى سمى الاشياء . وما أظن إلا أن حواء هى التى يرجع اليها الفضل فى ذلك ، فما أحسبها تركت له فرصة يفتح فيها فمه ولاسيما إذا ذكرنا أن آدم كان الانسان الوحيد الذى كانت تستطيع أن تكلمه فى الجنة ، وانه لم يكن معها سواه فكيف استطاع أن يجد الوقت اللازم للتفكير فيما يناسب الحيوان والنبات من الاسماء ؟؟ بل ما أظن آدم قد أكل من الشجرة المحرمة لأن حواء أغرته أو لأن الشيطان وسعه أن يزين ذلك له ، بل لأن الأكل من هذه الشجرة له عواقبه، ومنها الموت وانتفاء الخلود ، وتلك وسيلة للخلاص يمكن ارتقابها مع الصبر. فما أعظمها من تضحية يجب أن نذكرها لأبينا الشيخ المسكين .

***

أما محادثة الصم فشيء آخر مختلف جداً : هى صياح من جانب وبعثرة من الجانب الآخر، وأعنى بعثرة المواضيع التى يمكن أن يدور عليها الحديث زمناً معقولا ، إذ لا سبيل الى حصر الذهنين

فى موضوع واحد وقتله — أعنى قتل الموضوع — ولنضرب مثلا:

تضع يدك الى جانب فمك وتصيح فى أذن صاحبك :

« متى اشتريت هذه النظارة ؟ »

فينظر اليك أولا كأنما يريد أن يقرأ فى عينك أو فى وجهك كله ، ما سمع ثم يقول بصوت لا تكاد تسمعه ولعله يحسب أنه يصيح مثلك : « أى نعم وزارة المعارف »

فتصيح مرة أخرى وتصنع من كلتا يديك بوقا لأذنه

« النظارة . النظارة . أنا أسأل عن النظارة »

فيقول : « آه . ربما . ربما . فان الأزمة حقيقة حادة »

ويخطر لك أن تغير الحديث فتصب هذه الصيحة فى أذنه أو تطلقها فى الهواء — سيان

« هل قرأت مقالتى الاخيرة ؟ »

فيقول : « لعنة الله عليها لقد كادت تخنقنى . وقد غشنى من مدحها لى »

فتبدى أمارات الدهشة وتلعنه بصوت عادى فيقول :

« لا تعجب فانها جهة مشبعة بالرطوبة والبعوض فيها كالنحل . كلا . لقد شبعت من المنيرة وسأنتقل الى جهة أخرى »

وهكذا . تنتقل من موضوع الى موضوع بلا فائدة حتى يبح صوتك . والنساء شر لابد منه ، وكثيراً ما تنسيك حلاوته مرارته ، ولكن المرأة الصماء . . . . ؟ هنا يحسن السكوت .

أبو الهول وتمثال مختار

رأيت تمثال « مختار » كما لم يره غيري . ولست أعني أني دخلت في جوفه ، أو صعدت اليه وركبت أبا هوله ، أو نظرت اليه بأربع عيون ولكنما أعني أني لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع اليه عيني ، حتى أحسست طفيلياً الى جانبي يتأبط ذراعي كأنما كنت أعرفه قبل أن يولد ، ويقول لي أن صانعه «مختار — محمد مختار » فصوبت نظري عن التمثال وانصرفت الى هذا الذي اختار أن يكون صديقي دفعة واحدة ، وآثرني على غيري من الواقفين بصحبته ، وراقني الموقف جداً ، وقلت له وأنا أخصه بعيني وأبحث في وجهه عبثاً عن مخايل « النشالين » :

سبحان الله . أصحيح ما تقول ؟

قال : وهل أنا أكذب عليك ؟ سل من شئت من الواقفين .

قلت ، وقد زاد اغتباطي بالموقف :

استغفر الله . فما أعرفك كذبت قبل اليوم .

وخطر لي أن استخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة فقلت :

معذرة ، ولكن صاحبه عبدالغفار ، هل . . .

فقال بلهجة من يريد أن يدركني لينقذني :

لا لا لا . مختار — مختار • محمد مختار

معذرة مرة أخرى — مختار — وهل هو صاحبه ؟.

قال : نعم .

فقلت : ومن أين اشتراه ؟

قال : اشتراه ؟ إنه هو الذي نحته .

قلت : وهل كان هنا جبل نحته منه ؟

فضحك ملء شدقيه ثم قال :

جبل ؟ أي جبل ؟ ألست من أهل القاهرة ؟

قلت : كلا. إني من الريف . وهذا أول يوم لي في القاهرة .

فزال عجبه ، ولم يسرني أن أراه يضحك مني أنا الذي يريد أن يضحك منه ، غير أنه لم يسعني أن أتراجع بعد أن ذهبت معه الى هذا المدى ، ورددت الحديث الى مختار فسألته :

وهل مختار هذا من قدماء المصريين ؟

ماذا تقول ؟

أقول هل — معذرة اذا كنت غلطت في اسمه مرة اخرى — ولكن هل هو — أعني صاحب التمثال — من قدماء المصريين الذين بنوا الاهرام وأبا الهول ؟

فافتر فمه عن ابتسامة عطف على كتلة الجهل المجسد الذي كان

يتأبطه ، واستل ذراعه ، فحمدت الله ، ووقف أمامى يتأملنى وقد شك فى أمرى على ما أظن وتوقعت أنا أن أنفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا مالا تحمد — أو مالا أحمد أنا على الأقل — عقباه . فأشرت الى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفى على القاعدة وسألته ما هذا ؟

قال : ألا تستطيع أن تقرأ ؟

قلت : أقرأ ؟ وهل هذه كتابة ؟

قال : نعم ، وماذا كنت تظنها ؟ إنها اسم التمثال ـ نهضة مصر

قلت وتجهمت له : إسمع ياصاحبى . لا يليق بك أن تغشنى .

فراح يقسم لى بالله أن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير الى الحروف بأصبعه . فقلت :

وهل هذا خط «عند الغفـ ... لالا . مختار . أليس كذلك ؟ إن خطه قبيح جداً . إن أبلد تاميذ فى بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط ألف مرة .

وأحسبنى حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعثم وسرنى جداً أن أشهد ارتباكه ، وأقسمت لأمطرنه وابلا من هذه المدهشات فلم أمهله ريثما يفكر فى جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقفة الى جانب أبى الهول :

وهل تعرف هذه السيدة ؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة :

نعم . لا . إنها من التمثال .

فقلت : شيء جميل والله . وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه السيدة هنا ؟

فحملق فى وجهى ولم يفهم وضاعت النكتة ، واحتجت الى سؤال آخر فقلت :

وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا ؟

ففتح الله عليه بهذا :

يا أخى هذه ليست سيدة . إنها حجر . تمثال . ألا تفهم ؟

فقلت : فهمت . فهمت . ولكن أتظل هكذا ؟ ألا تتعب ؟

فقال ودق كفاً بكف : كيف تتعب ؟ ألم أقل لك إنها حجر

قلت : آه صحيح . وأى حيوان هذا الذى بجانبها ؟

قال : حيوان ؟ هذا أبو الهول ينهض .

قلت : وهل كان راقداً قبل الآن ؟

فخيل إلى أنه سيدعنى ويجرى ، ولكنى كنت واهماً فقد ثبت وكان أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض وفى تؤدة :

إسمع . ألم أقل لك ان اسم التمثال نهضة مصر ؟ أجبنى .

فأطعته وأجبته أن نعم .

فقال : فهذا أبو الهول ينهض . يعنى ان مصر تنهض . أفهمت الآن ؟

قلت : بودى أن أكون فهمت حتى لا أتعبك ولكن أين مصر هنا ؟

قال : أبو الهول ياأخى .

قلت : وما هذه السيدة الواقفة بجانبه ؟

قال : مصر .

قلت : هل هما مصران ؟

قال : سبحان الله العظيم . لا ياأخى .

قلت : لاتؤاخذنى . ولكنك أفهمتنى أنأباالهول هومصر وأن السيدة هى مصر وقد تعلمت أن واحداً وواحداً اثنان .

قال : لا لا . إن هذا ليس حساباً . إن هذه مصر تنهض أبا الهول

قلت : أليس معنى ذلك أن مصر تنهض مصراً ؟

قال : لقد بدأت تفهم . هذا هو المعنى .

قلت : ولكنى — ولا مؤاخذة — لم أفهم .

قال وهو مغيظ : كيف لم تفهم ؟

وبدا لى أن فى حديثنا من الجد اكثر من المقدار الذى يحتمله هو ، فعدت الى التباله وسألته :

ولكنى لا أرى الهرم هنا فهل نقله مختار ؟

قال : نقله كيف ؟ أين انت من الهرم ؟

قلت : هكذا قرأت فى الكتب . ان الهرم الى جانبه ابو الهول فأين ذهب الهرم ؟

ويظهر أن نقل الهرم كان أكثر مما يطيق . فلوح بيده فى

وجهي وتمتم شيئاً لم افهمه لأني شغلت بنظارتي التي هوت الى الارض وتكسرت عليها . واولاني ظهره ومضى .

* * *

بعد هذا الحديث الذي استطبته والذي شغلني عن التمثال وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغي ، مضيت الى اهرام الفراعنة فلما صرت عند أبي الهول وددت لو أن صاحبنا معي : إذن لسألته :

من صنع هذا ؟ أهو مختار أيضا ؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامي — تحت انفي — ويقول :

لا ياأخي ، الفراعنة

فأعود أساله .

وهل هم احياء ؟

فيستعيذ بالله من هذا الجهل المطبق ويقول :

أحياء كيف ؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين .

فأبدي له العجب من أن يكونوا أمواتاً كل هذه الآلاف من السنين وأسأله :

وبأي شيء ماتوا ؟

فيقول : لا أدري . لا يدري أحد

فأكر عليه بقولي :

أتظن أنهم ماتوا بالطاعون ؟

فيقول : لا أدري . ربما . من يدري ؟

فألح عليه وأقول :

أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا ؟

فيقول بلهجة السأمان : ربما . ربما . قلت لك لا أدرى .

فلا أدعه ولا أرحمه وأقول :

أو لعلهم ماتوا حسرة ؟

فيقول وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر : ربما . قلت لك الف مرة لا أدرى . ماتوا والسلام

فأزداد عليه شداً وأسأله :

وآباء الفراعنة ألا يزالون أحياء ؟

فيقذفني بلفظة « مستحيل » ويعض حروفها بأسنانه . فلا يردعني هذا وأسأله عن أبي الهول وأين القاعدة وأين أبو الهول ؟

فيعود الى كفيه يدق أحدهما بالأخرى وبعد أن يقضى مأربه ويرفه عن نفسه يبينهما لى فأقول :

« ما أوقره ، وأشد سكونه ، وهل هو ... هل هو ميت ؟ »

فيهيج برهة ثم يبين لى انه حجر . أو لا يستطيع معى صبراً فيلوح بذراعه ويمضى عنى .

***

كلا . تمثال مختار — « محمود » مختار — على براعته لاشيء حين يقيسه المرء الى أبي الهول الفرعوني ، فان على هذا الوجه من الكآبة والجد والتشوف والصبر والجلال والنبل ، ما ليس له مشبه فى

وجه إنسان . وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر ، ينظر الى الدنيا حوله ولكن نظرته تتخطاها الى الفراغ الذى يلفها فى طياته، وتتطلع اليه فيخيل لك أنه يرد عينه الى الماضى متجاوزاً محيط الزمن وأمواج أجياله وقرونه أو متراجعاً بها ومطبقاً بعضها على بعض حتى تعود وقد امتزجت وآضت مداً واحداً عند أفق القدم — نعم يفكر ابوالهول هذا : فى الحروب التى دارت أرحاؤها فى الازمنة الغابرة ، وفى الدول التى شهد قيامها وسقوطها وفى الاجيال التى رأى مولدها وراقب نهضتها و لاحظ فناءها وفى المسرات والاحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التى دارت بها أربعة آلاف من السنين البطاء .

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به ، إن كانوا قد قصدوا الى شىء من ذلك ، فما أراه أنا إلا تجسيداً لتلك الملكة الانسانية التى يسمونها « الذاكرة » فى صورة بارزة محسوسة ، وما من أحد عرف أى شعور تحركه فى النفس ذكرى الايام السوالف ، وماذا ترسم على الوجه ، الا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله فى هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التاريخ

وهو لا يقيس الزمن بالسنين ، فانها هنيهات ، ولا بالاجيال فانها لحظات ، وانما يقيسه بالدول التى قامت ثم تقوضت تحت عينه التى لا تتعب ولا تشبع من النظر ، ذلك أن فيه معنى من معانى الخلود

فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما وعاش ليبصر الخراب يعفى عليهما ويوكل بهما البوم والوطاويط ، ورأى أبناء اسرائيل يقومون ثم يسحقون ، والاغارقة ينهضون ثم يموتون ، ورومية تشاد ويرتمى ظلها على الارض ثم تفنى ، والعرب يستفيضون فى الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون فى سبيل من غبر .

وكما أخذت عينه عظام مئات من الدولات كذلك ستأخذ قبور مئات أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون .

* * *

والمرء ينظر الى أبى الهول الساهد ويفكر فى آلاف السنين التى قضاها هنـا على حافة الصحراء فلا يستغرب ولا يخالجه شيء من الشعور بالتنافى بين هـذه الادهار الطويلة وبين مقامه هذا وذلك أن ربضته تشيع فى النفس معنى الاستقرار التـام . وقد أحسن القدماء بايثار الربوض له فانه جلسة مريحة تقترن فى الذهن بمعنى الاستمرار ، وليس كذلك « النهوض » كما هو مصور فى تمثال مختار ، والمرء خليق حين يعود اليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده ، فاما أن يثب إلى الارض وإما أن يعود الى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى ، أما البقاء هكذا يوما بعد يوم ، وشهراً فى أثر شهر ، وعاما فى عقب عام ، فليس من السهل على العقل أن يأنس اليه ويقتنع به ، وقد تكون هذه مزية للتمثال وعسى أن يكون المقصود بها أنها نبوءة أو أمل أو نحو

ذلك . ولست أعيب أو أنقد ، فما أعنى أكثر من أنى حين أنظر الى التمثال لا أحس أنى قد رأيت كل شيء ، وقد أتوهم أنه سيثب عن القاعدة الى الارض .

وهذا الذى عليه أبو الهول الجديد ، اقعاء لا نهوض ، فان الحيوان — من البعير الى الهرة — حين يريد أن ينهض ، يقوم على رجليه الخلفيتين أولا ثم على الاماميتين ، أما القيام على الرجلين الاماميتين فحسب فهذا هو الاقعاء ، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحيانا ، وأكثر مايراه الانسان فى الكلاب ، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة عيونها . وأحسب أن مختاراً انما آثر هذا الوضع لان منظر أبى الهول يكون غريباً ثقيلا اذا أنهضه على رجليه الخلفيتين ، كما ينبغى أن يفعل اذا كان يقصد الى النهوض ، أو لعل عذر مختار أن أبا الهول هذا خليط من الآدمى والحيوان فله أن ينهض كيف يشاء حتى على رأسه .

وهذه الفتاة المنصوبة الى جانب أبى الهول لا أفهم معناها ولا أدرى لماذا يقيمها المثال هناك ويضنيها بهذه الوقفة المتعبة؟ ولو كنت أنا «مختاراً» لاستغنيت عنها جملة ولاجتزأت بأبى الهول وحده . لأنه اذا كان المراد الرمز الى أن مصر تنهض ، فان أبا الهول بمفرده حسب من شاء أن يرمز الى ذلك . ولن يركب الجهل أحداً فيتوهم أن المراد به رومية أو قرطاجنة ففى نهوضه وحده ما يكفى رمزاً لنهوض البلاد التى اقترن اسمه بتاريخها .

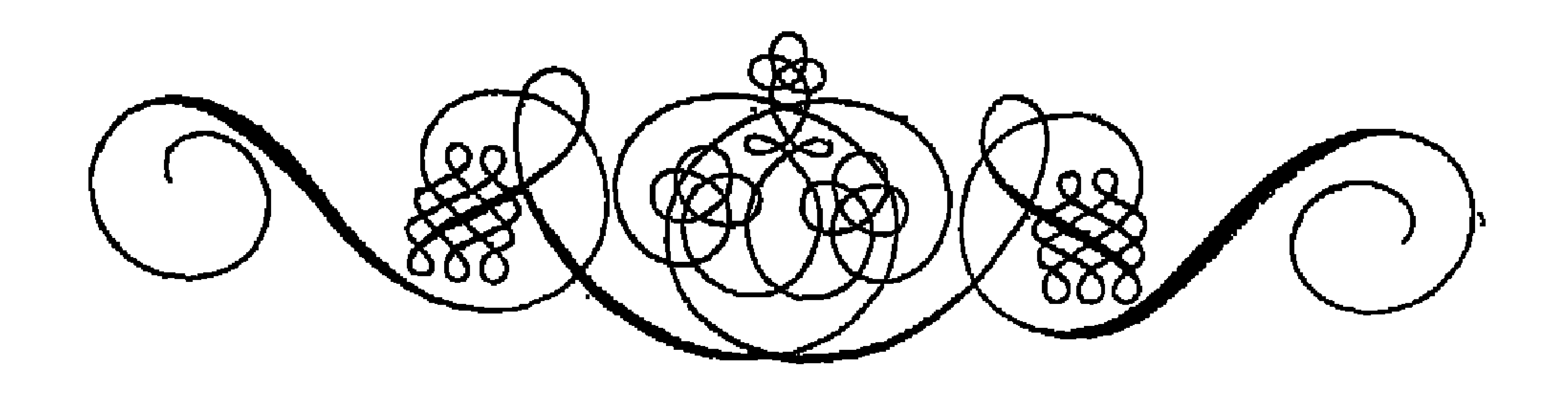
زد على ذلك أن قيــام الفتاة الى جانبه تخليط . وذلك أنهـا على مافهمت رمز لمصر الحديثة ، وعلى هذا يكون أبو الهول عنوانا على مصر القديمة ، وكأن المعنى — على هذا — أن مصرالحديثة توقظ مصر القديمة ، أو أن مصرالقديمة تنهض الى جانبالحديثة وفى كنفها ، وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولا يسيغ معناه وأصح من ذلك أن هناك — أوهنا على الاصح — مصراً واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات ، وانها كانت نائمة أو متفترة أو ماشئت غير ذلك ثم هى الآن تستيقظ أو تنفض عنها غبارالقرون وتهم بالنهوض ، وهو معنى لا يحتــاج الى هذه الفتــاة التى تفسده ولا تزيده .

ولست أستريح إلى وقفة الفتــاة فانها كالعصا ، ويمناها التى على رأس أبى الهول غريبة فى وضعها فانه لا يسندها فى الحقيقة اذا تأملتها إلا أصابعها أما سائر ذراعها فكالمعلق فى الهواء وإن كانت الشملة — أو لا أدرى ماذا هى — تحجب هــذا التعليق عن عين الناظر ، وهى لا تفعل بيمناها هذه أكثر من هــذا الاستناد بأطراف الاصابع دون باطن الراح . ولا أدرى لماذا جعلها كذلك ولم يدعهاتريح ذراعها ؟ ثم مامعنى هذا الوضع وما الذى قصدبه اليه ؟؟ أتراه أراد الايقاظ ؟ فهذه ليست حركة ايقاظ وليس فى وجهالفتاة أدنى التفات الى الذى بجانبها انصح أنها تريد أن توقظه . أم ترى المراد أن مصر الجديدة تحسر عن

وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة ، فان كان هذا هو المقصود وأحر به أن يكون فان رمز النهوض واليقظة هو الفتاة لا أبو الهول ، ولا داعى إذن لاقامة أبى الهول على رجليه مادام أن الناهض سواه وانه ليس إلا اتكأة ووسيلة للرمز الى الاتصال بالماضى ، وحينئذ يكون المعنى أتم وأقوم بأن يظل أبو الهول هذا رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة الى جانبه .

والخلاصة أن التمثال كان حقيقاً أن يكون أوفى بالغرض فيما أرى لو أن أبا الهول ظل رابضاً الى جانب الفتاة المعتمدة عليه ، اشارة الى اتكاء مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها إياه ، أو لو أن التمثال خلا من الفتاة . والاولى عندى أفضل اجتنابا للاقعاء ، وتفاديا من الوقوع فى هذا الغلط . أما التمثال فى شكله الحالى فلا اكتم القراء أنى أحس كأنى أحمله هو وقاعدته على ظهرى . ولا يسوء مختاراً قولى هذا فانه يعلم أنى من أجهل الناس بالفنون ، وأن ليس لى من الوسائل المعينة على حسن التقدير سوى رأس واحد وعينين اثنتين ليس إلا .





اللغة العربية بلا معلم

وقفت مرة بباب مكتبة أتأمل معروضاتها ، من وراء الزجاج فأخذت عيني كتيباً صغيراً يعلم الاجانب « اللغة العربية بلامعلم » فراعتني هـذه الجرأة ، وتمثل لخاطري ما يكابده الاساتذة من العناء في تدريس هذه اللغة ، بل ما نعانيه نحن الذين نزعم أنفسنا أدباء وشعراء من البرح والجهد ، ولا أطيل : اشتريت الكتاب بثمن باهظ ثم انتحيت ركناً في قهوة ورحت أقلبه فاذا هو لا أكثر من ألفاظ ومحادثات باللغة الانجليزية وما يقابلها باللغة العربية ، فتحسرت على ما بذلت فيه ، وساءلت نفسي : ماذا أصنع به ؟ كيف أعوض خسارتي ؟

والله أكرم من أن يضيع على فقير مثلي ماله اذا صح أن تسمى القروش مالا . فألهمني أن أنتزع منه متعة لا أظن مصريا غيري حلم بها أو طمع فيها . ذلك أني فرضت — جدلا !! — أني « مالطي » واتخذت هذا الكتاب مرشداً لي وقلت أتقيد بجمله وعباراته في المحادثات التي أضطر اليها في تجوالي في المدينة

ولما كنت « سائحا » وشوارع المدينة متداخلة تضل الغريب فقد وجب — طبقاً لمشورة الكتاب — أن أركب « عربة » وأن أحتمل هذا الترف الضروري، ففتحت الصفحة الثانية عشرة حيث الحديث مع سائق العربة ، ودنوت من «الموقف» وأشرت بعصا اشتريتها خصيصاً لهذه المناسبة السعيدة وصحت بلسان ملتو « أربجى » فألهب السائق جواديه وعدا إلى بهما ، فلما صار عندى عدت إلى الكتاب أستوحيه الجملة الثانية التى ينبغى أن تتلو النداء ، ثم رفعت اليه رأسى وقلت « روه هات أربة »

فكأنى لطمت الرجل على وجهه . فانطلق يمطرنى وابلا من الكلام لم أفهمه كما هو المفروض إذ كنت غريباً عن هذه الديار ولكنى تبينت من لهجة الرجل واشاراته أن المعانى جميلة جداً وأن جملتى راقته كما لم يرقه شيء فى حياته .

وعدت الى الكتاب أستمليه الجملة الثالثة لعلها تحل الاشكال فقلت :

« ياأربجى أنت فاض ؟ »

فرماني بنظرة مغيظ محنق لم أدر ما مسوغها ، ثم رفع طرفه وكفيه إلى السماء ، ثم صاح بالناس فالتف حولى منهم اثنان . كلمنى أحدهما بالفرنسية فهززت له رأسى فخاطبنى باليونانية ، فظللت أهز له رأسى ، فجرب الثانى الايطالية فأشرت له باصبعى أن لا . وخفت أن يطول الامر فرددت عليه بالانجليزية فاستغرب

وجعل يرفعني ويخفضني بعينه : وأوجز فأقول : انى حسما للنزاع ركبت وقلت للسائق — بعد أن تجاوزت عن جملتين من الكتاب —

« طيب اذهب بي إلى المهطة »

فانطلقت العربة ، وبديهى أنى كنت أوثر مكاناً آخر ولكنى كنت مقيداً بالكتاب ، فلما انتهينا لم أنزل وصحت به — نقلا عن مرشدى —

« كم تريد أجرة لك »

وكان ينبغى أن يقول — طبقاً للكتاب — « واحد شلن »

ولكنه طلب نصف ريال فدهشت وبحثت فى غلاف الكتاب عن تاريخ طبعه فألفيته ١٩٢٦ ، فقلت لنفسي لعل الاجور ارتفعت فى هذا البلد بعد صدور الكتاب ، وكان على أن أناقشه كما يحتم الكتاب فقلت : « لا . هذا كثير »

وكان ينبغى — على ما رسم الكتاب — أن يكون رده على ملاحظتى « كما فى التعريفة » غير أنه بدلا من أن يفعل ذلك مضى يشتمنى ويسبنى ويلعن لى آبائى وجدودى وهو آمن مطمئن إلى جهلى لغته البذيئة على الاقل . فلم أر مناصاً من أن أعد لعناته مرادفة للرد الواجب ونقلت له من الكتاب :

« ستة كروش أبيض بس »

فخصبنى بملء صحراء من اللعنات والشتائم ثم قال : « هات بقى » ففهمت هات لأنها فى الكتاب وتجاوزت عن « بقى »

على اعتبار أنها على الارجح كلمة شكر أو دعاء ، وناولته القروش الستة البيضاء. واذا به يثب إلى الارض ويجذبني من جيب سترتي ويصب على من السباب ما يكفي شعباً بأسره جيلا كاملا . فما أشد إسرافه قاتله الله . وتنازعني الضحك والغضب والخوف ولكنني ضبطت عواطفي وصوبت عيني إلى الكتاب ثم رفعت له وجهي وقلت

« وديني الـكشلة (١) »

فقال : « القشلة ؟ ياخبراسود ياناس. تعالوا انظروا هذا الذي يريد أن يدعي أني كسرته ! ... » وهكذا وهكذا مما يستطيع القارئ أن يتصوره ولا حاجة بنا إلى وصفه

ولم أدع أنا شيئاً من هذا ، ولا لي خطر أن أفعل ، ولـكنه الـكتاب استوجب مني أن أذهب إلى القشلة بعد أن حملني إلى المحطة ولا موجب لهذا ولا ذاك ولكن هكذا شاء فكان ما أراد . فرأيت الاحزم أن أنتقل إلى الجملة التي تلي « القشلة » فقلت :

« طيب إعمل فسهة في البلد »

فلم يدر أيشتم أم يضحك ، وبعد أن تأملني قليلا قال :

« يابن ... من القشلة للفسحة ؟؟؟ »

وبينما كان هو يصعد إلى مقعده كنت أنا أترجل . فالتفت إلى مذهولا، فأنقدته القروش العشرة ، وقلت له بلغته « لا مؤاخذة لقد كنت أمزح » فحار كيف يعتذر عن شتائمه ولعناته ...

سأجرب فضل الكتاب في نزه أخرى استخلاصاً لحقي .

---

(١) القشلة عامية ومعناها المستشفى ولا تكاد تذكر الا مقرونة في الذهن باليأس من حياة المريض .

من ذكريات الصبا

مع رجال الليل

وقعت مرة على عصبة من اللصوص ، وكنت فى ذلك الوقت صبياً فى الثالثة عشرة من عمرى الذى أراه ينوى أن يطول بلا مسوغ ، وكنت عائداً من مكان قريب من مسجد عمرو إلى الامام عن طريق الصحراء الفاصلة بينهما ، وكان الليل قد أمسى وانتشر الظلام على الارض ، ولم يكن « شارع كتشنر (١) » قد شق وعبد فكان السارى لا يجد ما يهتدى به فى هذه البيداء المنبسطة سوى النجوم اذا كان ممن يستطيعون أن يميزوا بينها . وكنت أعرف من الكتب أن هناك « دبين » واحداً أكبر من زميله ولكنى لم أوفق الى رؤيتهما فى هذا التيه السماوى إلا منذ عهد قريب ، وكان شكى يومئذ فى وجودها عظيما ، ولكنه شك لم أكن أدعه

---

(١) شارع ممهد من الامام الليث قريبا من « عين الصيرة » الى مسجد عمرو ويمر بمدينة الفسطاط التى كشف عنها حديثا .

يند عن صدرى الى لسانى ، ولاسيما اذا كان أحد من المدرسين حاضراً ، تلك جرأة كنت قد تعلمت ضبطها وكتمانها بعد أن جرت على مالا أزال — كلما تذكرت — أرى يدى ترتفع إلى خدى . وشرح ذلك أنا كنا نطالع كتابا أنسيت اسمه ، فمرت بنا هذه الجملة المشهورة «إن المضطر يركب الصعب من الامور وهو عالم بركوبه » وأخذ المدرس يضرب الامثال ، فكبر فى عينى هذا « المضطر » الذى يبلغ من مخاطرته ألا يركب إلا «الصعب» ويتعمد ذلك ولا يعبأ شيئاً بالاهوال التى يقذف بنفسه عليها ، وأعجبتنى هذه الشجاعة وملأت نفسى إجلالاله ، فاشتقت أن أراه وعانيت من لجاجة هذا الشوق أشد البرح ، فلم يكد المدرس يفرغ من الشرح — وكنت فى شغل عنه بتصور « المضطر » وتمثل «الصعب» الذى يركب — حتى وثبت عن الدرج كالقذيفة وقلت بلا استئذان :

« افندى !. افندى ! »

فتغاضى المدرس عن مخالفتى للاصول المرعية وقال لى وعلى فمه ابتسامة الراضى عن نفسه المطمئن الى بلوغ غايته من الايضاح والبيان :

« نعم يابن عبد القادر ؟ »

فجازيته ابتساما بابتسام ولم أكن أقل منه رضى عن نفسى وفرحا بالانفراد — دون بقية التلاميذ — بهذه الرغبة الملحة ،

واغتباطا بشجاعة النهوض بلا استئذان للاعراب عنها فقلت :

« أين يعيش المضطر ؟ »

فتجهم وجهه وانزوى ما بين عينيه وطالعتني أمارات غضب حسبتها دلائل حيرة ، فأسفت لتقدمي بهذا السؤال وإحراجي إياه به أمام التلاميذ وقلت لنفسي : إن معلمنا هذا معذور اذا جهـل مكان « المضطر » واستعصى عليـه الجواب ، وأنى له أن يعرف — وهو رجل عادي — ذلك « المضطر » الذي لا يبالي بالصعب ويأبى إلا أن يركبه ؟؟ وانتبهت من هذه المناجاة ، التي يظهر أنها طالت اكثر مما ينبغي ، على التلاميذ يدفعونني وعلى المدرس يصيح بي :

« أقول لك تعال هنا . ألا تسمع ؟ »

فلم أدع الابتسام وذهبت اليه وأنا اقول لنفسي «سيعاتبني الآن على تسرعي وعدم انتظاري انتهاء الدرس لأسأله على انفراد. وسيهمس في أذني عتابه فأهمس في أذنه اعتذاري وأنتظر ».

وتلقاني — وهو منحن — بهذا السؤال :

« ماذا تقول ؟ » بصوت عال

ولم يكن هذا ما أتوقعه فارتبكت ، وحدثت نفسي أن هذا مأزق ظريف . أرجو أن أنقذ الرجل ويأبى هو إلا أن يغرق ، ورفعت له وجهاً يستطيع أن يقرأ فيه اذا لم يكن اعمى ، انى آسف واني مدرك خطئي ولكن عليه أن يخفض صوته قليلا ، ولكنه

لم يحفل رجائى وتوسلى فصرخ مرة أخرى :

« ماذا تقول ؟ أجب »

فالتفت الى التلاميذ كالذى يريد أن يقول : أتسمعون هذا المجنون ؟ لست ملوما إذن وأنتم شهودى . ولكننى لم أكد أرد وجهى اليه حتى خطر لى كوميض البرق انه لعله لم يسمع سؤالى فهو يجهل مداه ومبلغ ماينطوى عليه من الخطر على سمعته ومركزه بين التلاميذ . واستولى على هذا الخاطر فسرنى أن فرصة الانقاذ لم تضع ، فشببت عن الارض ورأيت يمناى تمتد الى كتفه لتدنو بأذنه الى فمى ، واذا بى على الارض أقيسها الى آخر الفصل دائراً حول نفسى ومتخذا رأسى محوراً ، وقمت أبكى وبى من الغيظ والحقد أكثر مما بى من الألم ، ولكن المدرس كان قد لحق بى فكتمت الغيظ ورفعت طبق البكاء فجأة حتى صار إعوالا ، فجعل يصيح بى :

« إخرس يا كلب إخرس . أقول لك اخرس »

ويشفع كل كلمة بلطمة أو لكمة . فأزداد إعوالا .

ويظهر ان هذا الصخب نبه « الناظر » — وكانت غرفته قريبة منا — فدخل علينا ورأى المدرس متلبساً بجريمة الضرب — وهى محرمة — وكان الناظر رجلا طيباً ساذجا يخرج الكلام من أنفه أخن أغن ممطوطاً ليناً ، وكان صديقاً لأبى — أعنى قبل موته — وحديث عهد بالبكوية ، وكانت لى عليه دالة بفضل

تملق ببكويته لا بفضل صداقته لأبى ، وكان التلاميذ يعرفون لى هذه الدالة عليه فاذا أرادوا شيئاً بعثوا بى اليه . أوفدونى اليه مرة فقلت :

« ياسعادة البك . نريد أن تأذن سعادتك لنا فى الذهاب الى حديقة الحيوانات »

فاعتدل فى مقعده وهز رأسه وهو يقول :

« حوانات . حوانات إيه يا امنى ؟ أسـد فك السلاسل نهش عيل منكم نبقى نقول يامين ؟ لا يا امن عبد القادر لا »

فاقتنعت واقتنع التلاميذ بأن الذهاب الى حديقة «الحيوانات» خطر ليس بعده خطر . ولا أذكر أنى دخلتها إلا بعد أن صرت مدرساً فى المدرسة السعيدية الثانوية وعلى مقربة منها ، وإلا بعد أن تحققت أن الأسود تحبس فى أقفاص ولا تربط بالسلاسل — إن صح أنها كانت تربط — كما كان الحال على عهد ناظرنا الطيب القلب .

وأعود الى « المضطر » وقصتى معه فأقول بايجاز : ان المدرس على الرغم من اعتدائه على وعلى القانون ممثلا فى شخصى المحطم المجرح ، زعم أنى هممت بصفعه . يا للكذاب !.. وأصر على وجوب طردى من المدرسة . ولم تجـدنى دموعى ولا ما أقسمت من الايمـان على انى لم ارتكب هذه الجريمة التى لم تخطر لى على بال قط ، وانى ما أردت إلا الاستفسار عن مكان

« المضطر » لأراه ، وشهد التلاميذ الملاعين انى رفعت يدى إلى كتف المعلم ، فأيقنت أنى ضائع لا محالة ويئست فكففت عن البكاء ، وقلت : اتلقى هذا الظلم بما يستحقه من الاشمئزاز والاحتقار . وجرنى الناظر معه إلى غرفته وشرع يسألنى فى هدوء وعطف فسردت عليه القصة على حقيقتها ورأيت فرصتى سانحة فاغتنمتها وأكثرت من « سعادة البك » وأضفت من عندى كذبة صغيرة فزعمت أن المعلم شتم أبى ، وأبى كما يعلم سعادة البك الناظر ميت . وفعل التملق والأكذوبة فعلهما الذى توقعت ، فنهض سعادة البك وقال لى بصوت خفيض : « إسمع يا امنى . أطردك من باب تجى من باب . فاهم ؟ »

قلت نعم ياسعادة البك فتركنى وخرج وأسر شيئاً الى فراش بينما كنت أتوثب فى الغرفة وأطوح يدى ورجلى فى الهواء من فرط الفرح ثم نادانى فخرجت وبعد قليل حضر المدرس أيضاً فمضى بنا جميعاً إلى الباب الكبير — وكان هناك باب آخر — وقال :

« ياعم محمد . إفتح البوابة . أخرج من مدرستى . إمش من هنا . مبسوط بقى ياعم الشيخ ...؟ (هذا للمدرس)

ولا يحتاج القارئ أن أقول له انى درت ودخلت المدرسة من الباب الثانى وان المدرس وجدنى جالساً على درجى فى اليوم التالى . ولكن القارئ قد ينقصه أن يعلم أن المدرس عاد الى الشكوى فقال له الناظر : « وماذا أعمل اذا كان هؤلاء الاولاد

كالعفاريت ؟ ربمـا كان قد هبط إلى فنـاء المدرسة من فوق سطوح الجيران »

***

والآن إلى اللصوص بعد هـذا الاستطراد الطويل الذى دعت اليه المناسبة العارضة : مناسبة الذكرى الاليمة .

لم أزل أغرس قدمى فى الرمال وأقتامها — فما يسمى المشى فى هـذه الصحراء مشياً الا على المجاز — حتى دنوت من « عين الصيرة (١) » فأبصرت أشباحا على ضوء نار ، وكان الليل دامساً فلم أستطع أن أكون على يقين من مكان القوم ، وخفت إن أنا مضيت فى طريقى أن أقع عليهم وأنا لا أعرف أى ناس هم ، وكنت أسمع أن هذه الرقعة الجدباء من الارض مأوى اللصوص وعش الفتاك ، فقلت أميل عن الطريق حتى أبلغ «عين الصيرة» فانحدر اليها ثم أعود فأصعد على حذر ناشراً أذنى فى الليل المحيط مرهفاً سمعى لـكل صوت ونأمة عسى أن أفلت ، فاذا تعـذر الافلات عدت فوسعت الدائرة . فلمـا كاد رأسى يبلغ مستوى الطريق المشرف على « العين » إذا بالقوم تحت عينى !

فأسرعت ورددت رأسى وتواريت خلف الصخرة التى كانوا جالسين اليها من الناحية الاخرى . وجلست أفكر وقد شاع فى الرعب وكادت عيناى تخرجان . غير أنى لم البث أن سمعتهم يغنون

(١) عين متفجرة بماء أسود يستحم فيها مرضى الجلود

ويتضاحكون فعـاد إلى بعض ماعزب من الطمأنينة وتشجعت فدنوت من حرف الصخرة وجعلت أبرزمن وجهي بقدر وأخفى بقدر ، فألفيتهم على بضعة أمتـار — نحو عشرة ، منهم الضخم الهائل الانحاء والطويل الهزيل والقصير البدين وكان أحدهم يغنى والباقون يصخبون حوله ويضحكون ويتندرون عليه ويركبونه بألذع أنواع المجون . ويظهر ان هذا استفزه وأحنقه فانتفض عن الارض ومضى يلعنهم ويقذفهم بأقبح النعوت فهموا به جميعا ، ولـكن رجلا ضخما من بينهم حسبته فيلا صغيراً ، صدهم وأهاب بهم أن « دعوه لى فانه طعامى الليلة »

فسرت رعدة خفيفة فى بدنى ومططت وجهى لعلى أرى ذيله وراءه . وتناول الرجل عصا غليظة طويلة تبلغ المترين أو قرابه ذلك وجعل يتوثب فى الهواء ويلوح بها فى كل ناحية ويهوى بها على الرؤوس حتى اذا كاد يطيرها عن أكتافها أو يحطمها حرك يده فمرت العصا فوقهم تقطع الهواء وتقول « فووو » والرجل يقول فى أثناء ذلك كلاما كهذا :

« دعوه لى . انه طعامى ! ألا ترونني ؟ انظروا الى وراعونى انى أنا الذى يسمونه الموت الوحى والخراب العاجل ! أمى العاصفة وأبى الزلزال وأختى الكوليرا ! انظروا الى وراعونى . انى أفطر بقافلة وبرميل من البلح[1] واذا مرضت كان حسبى ملء سلة من

---

(١) شراب مسكر يصنعونه من البلح

الأفاعى . أفتت الصخر بنظرة وأخرس الرعد بصيحة . وسعوا لى وسعوا لى . الدماء شرابى وأنين القتلى موسيقاى . أنظروا الى وراءونى وعلقوا أنفاسكم فانى موشك أن أنطلق »

فعلقت أنا أنفاسى وقد ملأ الرعب والاعجاب والسرور قلبى — الرعب مما سمعت ورأيت ، والاعجاب بقوته وحذقه ، والسرور بما أناموشك أن أراه بين المتنازلين ، وحدثت نفسى أنى سأشهد منظراً لن أنساه ماحييت ، منظراً ينطوى — من دواعى الاعجاب والاجلال — على أعظم واهول مما ينطوى عليه ركوب ذلك « المضطر » للصعب من الامور .

ثم نهض الذى كان يغنى وكانوا يسخرون منه ، وفى يده « نبوته » لا كما ننهض نحن أبناء آدم ، بل كما يشيل النسر عن الصخرة ، وهوى على نبوته قائماً على الارض وهو معتمد عليه ببطنه وناشر يديه ورجليه فى الفضاء طلباً للاتزان ثم وثب بين صيحات الأعجاب وانطلق يضرب فى الهواء بنبوته كما صنع زميله ويقول كلاماً كهذا :

« أحنوا ظهوركم لركوبى ! ولا تنظروا إلى بعيونكم فتذهلوا إنى أحك جلد رأسى بالبرق وأنيم نفسى بالرعد وأروح على وجهى بالعواصف ، وإذا ظمئت مصصت السحاب وإذا جعت سار القحط فى ركابى . أحنوا ظهوركم لركوبى واتقوا أن تنظروا إلى فتبهتوا !! إنى أحجب الشمس بكفى وأقد من القمر قطعة فيتهى

الشهر ، وارتج فتندك الجبال ، أحنوا الظهور لأبي الخوارق ! »

فصارت روحى فى فمى . ونهض الأول وذهبا يتوثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويصرخان كالشياطين ويتسابان بأوجع الكلام حتى غلا الدم فى رأسى أنا وأيقنت أن الدماء ستكون أمامى بركة . ثم طير الأول عمامة الثانى بنبوته فقلت قد صرنا إلى الجد الرائع فالتقطها الثانى — بنبوته أيضاً — وضرب عمامة الأول فأطارها عن رأسه فوقعت قريباً منى ، فجرى الأول فى أثرها وتناولها وقال « لابأس دقة بدقة والبادى أظلم ولكن هذا لن يكون آخر ما بيننا فخير لك أن تكون على حذر وأن تجنب طريقى فانى لا أصفح ولا أرحم وسيأتى اليوم الذى تكفر فيه عن ذلك بدمك » .

فقال الثانى — أبو الخوارق — انه مستعد لذلك اليوم وانه ينذر الأول من الآن فانه لن يستريح ولن يهدأ له بال إلا إذا خاض برجليه فى دمه ، وانه يدعه الآن اكراما لأولاده الصغار وهم كلاهما أن يذهب فى طريق وكانا لا يزالان يتقاذفان بالوعيد والشتائم ، ولكن رجلا قمىء الجسم بالقياس إلى هذين الفيلين قفز وصاح بهما :

« قفا لعنة الله عليكما من جبانين ، وإلا أطعمتكما هذه العصى » .

ولم يكذب فقد جذب كلا منهما بذراع جذبة أطعمته التراب

ثم أوسعهما ركلا برجليه حتى أشبعهما تمريغا وضربا ، ولم تمض دقائق حتى انقلبا كلبين ذليلين عند قدميه . فدوى الفضاء بضحكات الجالسين وتهكماتهم . وعانيت الامرين من كتمان الضحك

وبدا لى أن قد آن أن أفكر فى الرجوع والهروب من هذه الجيرة ، ولكن أحد الذليلين — وأحسبه أبو الخوارق قام ليغسل وجهه ويديه فى العين فرآنى فوقف وصاح : « هوا من هذا ؟ » ووثب الباقون فكانوا حولى فى أسرع من لمح البصر وقبل أن أفكر فى جواب . وتصايحوا بى ، فقال الأول :

ماذا تفعل هنا ؟ قل وإلا أغرقناك فى العين

وقال الآخر :

شدوا رجليه ومزقوه !

وقال ثالث :

« لص بطربوش ! هاها ! تعال نعلمك ! هاتوا الفرشاة لندهن له وجهه باللون الأزرق السماوى من فرعه إلى قدمه »

فضحكوا جميعاً وقالوا فكرة بديعة . غير أن الرجل القمىء الذى مرغ الفيلين فى التراب صدهم جميعاً وقال :

إنه ليس إلا طفلا ! ارفعوا عنه أيديكم ! ويميناً لأدمن من يلمسه .

فوضع أحدهم الجردل وترك آخر الفرشاة تهوى إلى الارض وتتعفر بترابها وقال المنقذ :

« تعال إلى النور لنرى ماذا جاء بك إلى هنا ، اقعد ! كم لك هنا ؟ »

قلت دقيقة واحدة

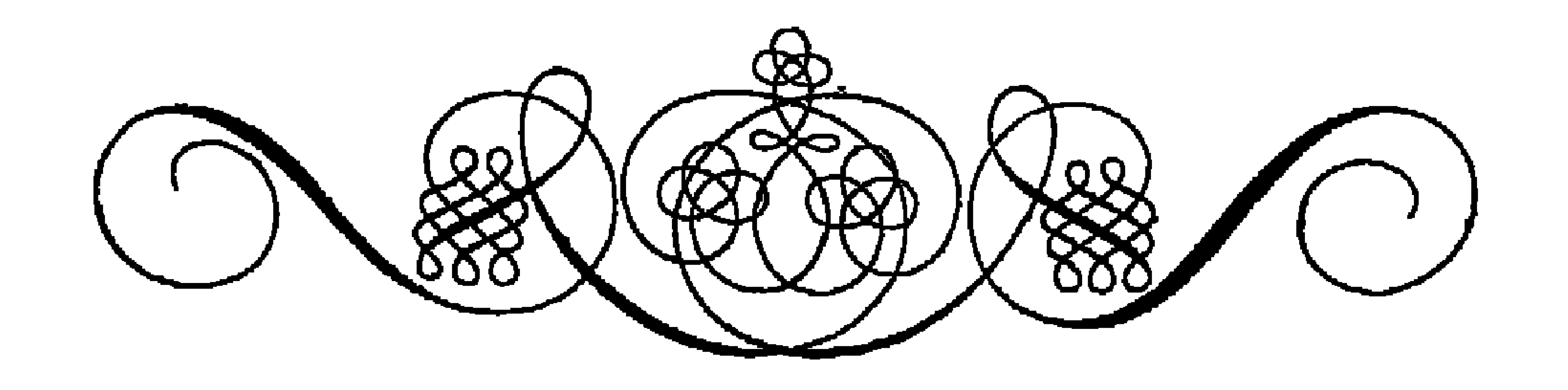
قال : ما اسمك ؟

ولا أدرى لماذا لم أقل إسمى ولا لماذا جرى لسانى بما جرى به ولكن الذى أدريه أنى قلت بلهجة الجاد « أبوا الخوارق »

فانفجر القوم ضاحكين ماعدا سميي الذى استعرت منه هذه الكنية . ويظهر أن هذا راق منقذى . فقال : « هذا حسن . ولم أكن أنتظره من طفل مثلك . ولكنك ياصاحبى كذبت على حين قلت انك هنا منذ دقيقة . فقل الحق ولا تخف فلن يصيبك سوء »

فأخبرته الحقيقة وتعمدت — وقد اطمأنت نفسى لهذا الوعد — أن أصف ماسمعت ورأيت من الفحلين الجبانين اللذين مرغهما منقذى فى التراب لأن أحدهما هو الذى توعدنى بالاغراق وثانيهما هو الذى أراد أن يدهننى . وهكذا انتقمت لنفسى وأدخلت السرور على نفس منقذى فرافقنى إلى أول الطريق المأنوس ثم أطلقنى فمضيت أعدو إلى البيت !

وكان هذا أول عهدى « برجال الليل »



حلاق القرية

وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة ، قبل أن تتغلغل المدنية إلى أنأى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها فقد عرض على مضيفى أن أستعمل موساه فأبيت ، وقلت ما دام ان للقرية حلاقاً فعلى به ، فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى ولكنى ركبت رأسى وأصررت أن يجىء الحلاق . فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته فى أول الأمر « مخلاة شعير » وسلم وقعد وشرع يحيينى ويحادثنى حتى شككت فى أمره واعتقدت أن الحلاق شخص آخر وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى « طلائعه » ! ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق « محسوبى » يعنى نفسه ، فلعنته فى سرى وسألته متى ينوى أن يحلق لى لحيتى ؟ أم لا بد أن يضرب بالرمل والحصى أولا ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم وأولانى صدغا كث الشعر وقال «هيه» فظننته أصم وصحت به : « أ . ر .. يد

أن ... أ ... حـ .. لـ ... ق ... » ! فسره صياحى جداً وضحك كثيراً وأقبـل على « مخلاته » فأخرج منها مقصاً كبيراً جداً فدنوت من أذنه وسألته :

« هل فى القرية فيل ؟ »

فقال : « فيل ! لماذا ؟ »

فأشرت إلى المقص فضحك وقال : « هـذا مقص حمير ولا مؤاخذة »

فقلت : « ولماذا تجيئنى بمقص الحمير ؟ أحماراً ترانى ؟ »

ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت إحساسه فانه لم يعتذر لى ولا عبأ بسؤالى شيئاً ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و« مكنة » من هذا القبيل أيضاً فعجبت له لماذا يجىء إلى بكل أدوات الحمير؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت فى حياتى . ثم أقبل على وقال : تفضل . قلت : ماذا تعنى ؟ قال : اجلس على الارض . قلت : ولماذا بالله ؟ قال : ألا تريد أن تحلق ؟ قلت : ألا يمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ؟ قال : وأنا ؟ قلت فى سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير ، وهبطت إلى الارض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد ، فقلت : إن وجهى ليس حديداً يا هذا ، قال : لا تخف إن شاء الله ! ولكنى خفت باذن الله ولا سيما حين شرع يقول « باسم الله ، الله أكبر » كأنما كنت

خروفاً ، ويبصق فى كفه ويشحذ الموسى على بطن راحته ، ثم جذب رأسى ، فذعرت ونفرت ووليت هارباً إلى أقصى الغرفة ،

فقال : ماذا ؟

قلت : ماذا ؟ أتريد أن تحلق لى بمبرد ؟ ومن غير صابون ؟

قال : ماذا يخيفك ؟

قلت : يخيفنى ؟ لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد لى شعرها .

قال : يا فندى لا تخف

ثم قرأ من الكتاب الكريم « فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى » إلى آخر الآية الشريفة ، وأظنه أراد أن يرقينى بها فيالها من حلاقة لا تكون إلا برقية !

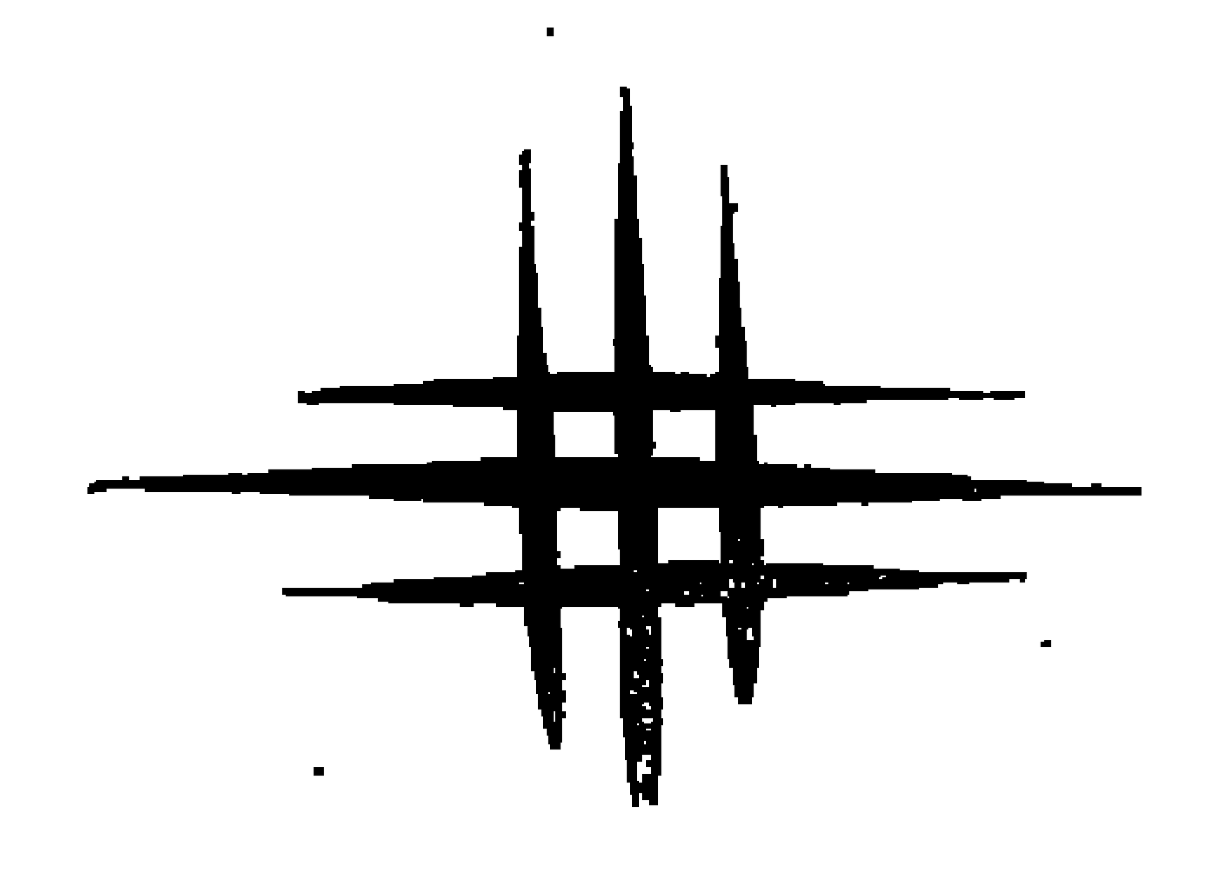
وأسلمت أمرى لله وعدت فقعدت أمامه فنهض على ركبتيه ، وتناول رأسى بين كفيه وأمال صدغى اليه ، ثم وضع ركبته على فخذى ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فمى مدفوناً فى صدره فصحت أوعلى الأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحداً يسمعنى فينجدنى غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارىء أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى

ولا أطيل على القارىء . فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى فسلخ قطعة من جلدى فردنى الألم إلى الحياة وآتانى القوة الكافية للصراخ على الرغم من الكمامة ووثبت أريد الباب ولكنه

كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظاً لأمثال هذه المحاورات فردنى بقوة ساعده . فتشهدت وتذكرت قول المتنبى « وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً »

* * *

كلا ! سأسدل الستار على هذا المنظر الذى يقف له جلدى على الرغم من كر السنين الطويلة ثم جاء هذا السفاح بطشت يغرق فيه كبش ووضعه تحت ذقنى وصب ماؤه على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل الدم الزكى الذى أراقه وأخرج من مخلاته « منشفة » هى « بمسحة » الارض أشبه فاعتذرت وأخرجت منديلى وسبقته به إلى وجهى . فهى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار .



الحقائق البارزة فى حياتى ..!

تمهيد — حدث منذ عامين، أو نحو ذلك، أن حرمت الجريدة التى كنت أتولى رياسة التحرير فيها، حقاً، ولا داعى هنا لبيان الموضوع فقد مضى أوانه، وليس هذا على كل حال محله، فكتبت على أثر ذلك مقالا قويا — أو لعل الأصح أن أقول أنه عنيف — نقلته صحيفة فرنسية بفصه ونصه، وبعد يوم وجدت على مكتبى بطاقة «دكتور» يراسل صحيفة نمسوية وكلاماً فى ظهر البطاقة حسبته فى أول الأمر ألمانياً ثم قيل لى أنه فرنسى ثم تبين أنه انجليزى فاقتنعت ولم أواصل البحث مخافة أن يتضح أنه عربى. وأوجز فأقول أنى استقبلت الزميل الفاضل فى مكتبى فى الساعة التى اتفقنا عليها تليفونياً. ولم يتجاوز الفرق بين مافهمته أنا وما فهمه هو أربع ساعات لا أكثر، فكنت أنا جالساً أمام مكتبى فى الساعة الثالثة مساء ووافانى هو فى الساعة السابعة مقدماً بين يديه اعتذاره من حضوره قبل الموعد بنصف ساعة. ودار الحديث بيننا فأفضيت اليه بجواب ما أعتقد مخلصا أنه سألنى عنه وبايضاح ما أشكل عليه فهمه من موضوع الخلاف السياسى ومواقف

الأحزاب فى ذلك الوقت وما إلى ذلك مما يتصل به من قريب أو بعيد ، واعتقدت أن الأمر انتهى عند هذا الحد ولم يخالجنى شك فى أن الله أرحم من أن يبلونى بحديث آخر ، ولكن المقادير جرت ، لسوء الحظ أو لحسنه ، بغير ذلك فعاد الدكتور الفاضل يرجو منى شيئاً آخر لا أقل من أن أتفضل عليه بترجمتى أو تاريخ حياتى ، وكان الدكتور أظرف وأكبر من أن أرفض له طلبا ، ولكن تاريخ حياتى !! .. تصور هذا ؟! فأحلته أولا على ترجمة كنت قد كتبتها منذ سنوات تمهيداً لمختارات من شعرى وقد نشر ذلك كله فى كتاب « شعراء العصر » ولكنه اعتذر وقال انه فهم من كلامى أن الترجمة مكتوبة باللغة العربية وان الكتاب مطبوع فى سوريا ووقته أضيق من أن يسمح له بالسفر إلى ذلك القطر وإن كان لاشك عنده فى أنه لو تيسر له السفر لألفى الترجمة التى أشير اليها وافية بالغرض ثم تفضل فذكر لى أنه علم من بعض من اتصلت أسبابه بأسبابهم من المصريين أنى من رجال « المدرسة الحديثة » فى الأدب وأن هذا هو الباعث له على الالحاح على فى الرجاء أن أوافيه بترجمتى فسرنى هذا ورأيت فيه فرصة لانتشار إسمى إلى ما وراء مصر واستفاضة ذكرى على ألسنة الغربيين . وتوقعت بعد أن أجيبه إلى سؤاله أن يتقدم إلى واحد أو اثنان أو ثلاثة من ناشرى الكتب فى أوربا بطلب السماح لهم بترجمة كتبى وإذاعتها فى العالم الغربى ، فلايعود المازنى بعد محتاجاً إلى

وظيفة ثقيلة مضنية كرياسة التحرير فى صحيفة يومية . ففركت يدى مغتبطاً وقلت له أنى طوع أمره ورهن مشيئته ولكن بى حاجة إلى يوم أو يومين أجمع فيهما الحقائق البارزة وأحضرها إلى ذهنى استعداداً للاجابة . وفى اليوم المعين تلاقينا فدار بيننا الحديث الآتى :

* * *

هو — انى مستعد يا سيدى . تفضل

أنا — أرجو أن تغتفر لى لهجة الزهو التى قد تحسها من كلامى . ولاشك أن التواضع فضيلة ولكن الحقيقة أسمى وأجل أليس الأمر كذلك ؟

هو — بلا ريب

أنا — والحقيقة انى من بيت قديم عريق جداً يستطيع أن يحدثك عنه آلاف وآلاف من الناس لو كلفت نفسك سؤالهم

هو — لاشك عندى فى ذلك ياسيدى (وانحنى لى)

أنا — وأنتم معاشر الأجانب تشمخون علينا بأنوفكم كأن بلادكم هى وحدها التى تعرف الأرستقراطية لأن فيكم من يستطيع أن يعد عشرة أو عشرين من الجدود . ولعل أكثرهم كان من الفتاك وقطاع الطرق . فأنا فى مقدوري ان أتلو عليك أسماء مئات من الجدود لاعشرة ولاعشرين ليس من بينهم إلا من هو مستفيض الذكر . ولن تجد أعتق من هذا النجار ولا أعرق من ذلك الفخار

هو — آه ؟

أنا — نعم ياسيدى فان جدى الأعلى رجل لاشك عندى فى أنك سمعت به وقرأت عنه إن كنت قد قرأت شيئاً

فبدا عليه الاهتمام ورفع سن القلم على الورقة ومنحنى أذنه — واحترامه أيضاً — وقال وقد رأى سكوتى ريثما يتم أهبته « أنى مصغ »

أنا — وهو لا أقل من آدم نفسه ..

فوقع القلم من بين أصابعه وهوت يده إلى جانبه وخيل إلى لحظة أنه سيسقط عن كرسيه عجزاً عن احتمال كل هـذا المجد . وسرنى أن أرى فعل كلامى فى نفسه ، ولـكنها لم تكن سوى لحظة ثم نهض فجأة ومد إلى يده فنهضت مثله ومددت له يدى وقد ظننت أنه سيستأذن غير أنه خيب أملى وقال :

هو — لى الشرف ياسيدى بأن أقول لك أنى أنا أيضاً أمت إلى هذا الشـيخ الجليل بسبب ، وتحقيقاً لذلك أقول ان جدتى العليا حواء فنحن إذن قريبـان . فهززت يده سروراً بهـذه القربى وقلت :

أنا — لقد سهلت على الأمر جداً فما أظن بك — وأنت غصن من هذه الدوحة الفينانة — إلا أنك تعرف كيف كانا فى الجنة وماذا أخرجهما منها وكيف قتل جدى قابيل جدك هابيل وان كانت الـكتب تقول ان أحدهما مات ولم يعقب ولداً ، وأظنه

جدك القتيل ، وغير ذلك من الحوادث البارزة التى لا تزال طبقة ترويها عن طبقة وجيل يتلقفها من جيل إلى يومنا هذا ، فلنمض إلى من هم أقرب الينا

هو — إن أسرتنا الكريمة أشهر من ان تحتاج إلى تعريف فأرجو ألا تجشم نفسك . . .

فلم يعجبنى أن يحشر نفسه فى أسرتي بعد أن أخرجته منها ونويت ألا أعده ـ فيما بينى و بين نفسى ـ إلا من سلالة معاتيق جدى قابيل بيد أنى كتمت هذا وقلت مقاطعاً له :

أنا — سأقتصر على واحد أو اثنين من مشاهير أجدادى الأقربين لتعرف من أية ايكة كريمة خرج هذا الفرع الذى يتشرف بأن تراه أمامك (انحناء منه ومنى) فمنهم مالك بن الريب ابن حوط المازنى وكان زعيما لقومه وبلغ من قوته وسطوته أنه كان هو ورفقاؤه — أعنى اتباعه — يقطعون الطريق على رعايا الخليفة ويسومون الناس ماشاءوا غير أن الخليفة لم يحتمل هذه المنافسة ولم يطق صبراً على هذا المزاحم فطلبه ، وكان مالك قد رأى أن البلاد لم يبق بها ما يستحق أن يؤخذ فتركها للخليفة ومضى بثلته إلى فارس حيث لم يكف عن ركوب الناس بالأذى حتى اجرى الوالى عليه مبلغاً شهرياً ، فلم توافقه هذه الحياة الوديعة فمات بعد الكف بقليل .

ومن مشاهيرهم أيضاً هلال بن الأسعر المازنى ، كان رجلا

فيه فكاهة عملية ، وكان يحلو له أن يركب الناس بالدعابة ، فكان يشحذ سيفه القديم ويخرج فى الظلام فاذا مر به أحد شكه بالسيف فى بطنه فيثب ثم يقع على الأرض فيغرب جدى فى الضحك ويذهب اليه ويلاطفه ويخفف عنه حمله ، ألا لقد كان مفطوراً على الفكاهة !

ومن أكرمهم أيضاً مسعود بن خرشة المازنى ، كان شديد العطف على الناس والمرثية لهم فعاش عمره لا عمل له إلا إراحة إخوانه فى الانسانية من الإبل ومما يحملون ، ولكن حسادفضله وشوا به لعامل الخليفة فقطع له نصفه الأعلى وعلقه فى مكان ظاهر فى سوق كبيرة وأتاح له بذلك أن يشرف على الناس ويتأملهم زمناً كافيا .

هو — قد اقتنعت يا سيدى بأن فرعكم أنبل وأشرف ، وبودي لو تسمحون لى بطائفة قليلة من الأسئلة عن شخصكم الكريم مخافة أن تنسوه فى وسط هذا العباب الطامى من المجد التليد .

فلم ارتح إلى هذه المقاطعة التى لا شك عندى فى أن الحسد هو المغرى بها ، وكنت أريد أن اغمره بسيل من هذه الحقائق التى ترفع الرأس وتطيل القامة ، غير انى قدرت ان الفرصة لم تضيع بوانها لا محالة سانحة فقلت له تفضل .

هو — كم عمرك ؟ إذا جاز ان أتقدم اليكم بمثل هذا السؤال

أنا — سيكون فى أغسطس المقبل — فى ١٩ اغسطس — عشرين سنة

هو — كيف ؟ عشرون سنة فقط ؟

أنا — نعم .

هو — وهل تسمح لى أن أسألك فى أية سنة ولدت ؟

أنا — اذا لم تخنى الذاكرة فانى ولدت فى سنة ١٧٩٠ ميلادية

هو — ١٧٩٠ ؟؟ كيف يكون هذا ممكناً ؟

أنا — لا أدرى وهذا بعض ما أعجب له ؟

هو — ألم تقل أن عمرك عشرون سنة ؟

أنا — نعم .

هو — ولكن عمرك — اذا حسبناه من تاريخ ميلادك — يكون مائة وستاً وثلاثين سنة فكيف تعلل هذا التفاوت ؟

أنا — لا أعلله . وكثيراً ماعجبت له . واذا كان هناك تفاوت فلا شك أن مرجعه الى أنه فاتنى أن أدون هذه الحادثة السعيدة ساعة وقوعها .

« ورأيت فرصتى سانحة فاغتنمتها لأ كر الى مجد أجدادى فقلت : »

أنا — أزيد على ذلك أنى ولدت بغير أسنان ، فأنا لهذا أفضل كثيرين من الآدميين ، غير أن هذا حرمنى القوت زمناً طويلا فلبثت لا أطعم غير اللبن وهذا تعليـل ضآلة جسمى

واضطرارى بسبب ذلك الى القعود عن المعالى التى كاف بها أجدادى الأماجد من أمثال ابن أبى سعيد المازنى . فقد ولد بأسنانه كاملة وكان مبطاناً أكولا وخلا عظيما مرهوب الجانب وعرف له الخليفة فضله فاختصه بغرفة فى قصره وأقام له عليها اثنين من الحجاب وأمرهما ألا يدعاه يجشم نفسه حتى الخروج من الغرفة وأن يقوما هما بخدمته فبقى فى هذا القصر مكرماً مبجلا مخدوماً تسعة عشر عاماً . ومنهم أيضاً أبو هلال بن . . .

هو — مهلا يا سيدى فان الرجوع الى هذا معناه الشك فى صدق ماجاهرت به من اقتناعى بكرم محتدك ، فهل تسمح لى بأن أسألك متى اشتغلت بالصحافة ؟ .

أنا — فى ١٨١٩!

هو — كيف؟ وعمرك كما تقول دون العشرين ؟

أنا — لا أدرى . وهذا أيضاً بعض مايحيرنى .

هو — إن هذه التواريخ لا أمل فى إصلاحها على ما يظهر فلنسأل عن شيء آخر ، هل لك إخوة ؟

« فاغتنمت هذه الفرصة لا أطير له صوابه »

أنا — دعنى أفكر ! نعم . كان لى أخ . . . فى الرضاعة

هو — ماذا تعنى ؟

أنا — أعنى أنه كان ابن مرضعتى .

هو — وهل مات

أنا — لا أدرى

هو — بتأثر — هل اختفى فلم تسمعوا عنه خبراً ؟

أنا — كلا ! بل دفناه

هو — دفنتموه ؟ هل تريد أن تقول أنه دفن دون أن تعلموا أحى هو أم ميت ؟

أنا — كلا ! فما من شك فى أنه كان ميتاً

فضحك وقال : مات ودفن فماذا تريد ؟ أظن أن المسألة واضحة جداً فماذا يحيرك فيها ؟

أنا — أتظن أن المسألة واضحة ؟ ربما . أما أنا فأخالفك .

هو — لماذا ؟

أنا — لأنى لا أدرى الى هذه الساعة أينا الذى مات أهو أنا أم هو ؟ ؟ أفهمت الآن ؟

فانطلق يقهقه كأنما كان فى جوفه رعد مخزون وصبرت عليه حتى فرغت الذخيرة ثم قلت له بلهجة غريبة مرعبة :

هل تستطيع — اذا قصصت عليك القصة وأفضيت اليك بالسر أن تنبئنى عمن يحدثك الآن أهو المازنى أم من كان ينبغى أن يكون خادمه وإن كان أخاه فى الرضاعة ؟

فارتبك وبدت عليه دلائل الحيرة والدهشة وعلا وجهه السهوم فاغتبطت وأقسمت لأزيدنه ارتباكا ولأطيرن من رأسه هـذا الولع بتراجم الناس فقلت :

إسمع ياصاحبي . لقد كان لمرضعتي طفل في مثل سني وكان شديد الشبه بي . وكان يلبس من ثيابي فيزيد الأمر بيننا اختلاطاً وما أكثر من كان يتوهم أننا توأمان ، وكثيراً ما كان يقضي هذا الولد لياليه في غرفتي على أنه أنا ، بينما أكون أنا نائماً مع الخادمة ، وهكذا نشأنا . فشببت أنا على أني المازني وشب هو على أنه الخادم وقد يكون الأمر على خلاف ذلك ، ومايدريني ويدريك أن الأمر لم يختلط على ظئري وهي تغسلنا في الحمام ؟ ولا أطيل فقد كبرنا نحن الاثنين ، المازني وخادمه محمد ، أو محمد وخادمه المازني ، فما أدري الآن أنا من على التحقيق ؟ كبرنا اذن وسرق الخادم مرة من الجار فحبس لذلك بضعة شهور لا أذكر عددها ، وعسى أن يكون المازني هو الذي سرق وحبس خادمه . ربما . ولكن هذا لاقيمة له ، فكثيراً ما كنت أنا أخطئ ويضرب خادمي عني أو بعبارة أخرى ربما كانت أصح وأقرب الى الحقيقة ، كثيراً ما كان هو يخطئ وأضرب أنا عنه ـ هذا اذا ذهبنا نعتبر الخلط الذي لعله أصاب عنوانينا أو اسمينا

هو — أرجو المعذرة ، ولكن هل من عادة المصريين أن يضربوا خدمهم اذا أخطأ أبناؤهم ؟

أنا — لست أعلم أن هذه عادة أحد من المصريين ، ولكني أريك بعض آثار التشابه بيني وبين الخادم واحتمال التصاق الاسم بغير صاحبه

هو — ولكنى لا أفهم ...

أنا — ستفهم كل شيء اذا تريثت قليلا . ولم يقلع الخادم عن السرقة والتلصص ، أو لم يكف المازنى عنهما فما يعلم الحقيقة غير الله ومن لعله خلطنى به فى الحمام ونحن طفلان رضيعان . . . فألف الاجرام ، واتفق فى ليلة أنه كان يسطو على بيت فأحس به السكان ففر الى السطح على نية الوثوب من سطح الى سطح وهكذا حتى يهتدى الى طريق مأمون للهبوط الى الارض ، وبينما كان ماشياً على سور أحد السطوح زلزلت الأرض فهوى ومات . والآن نبئنى اذا استطعت : أينا الذى مات ؟؟ أهو أنا أم هو ؟ أهو المازنى أم خادمه ؟

هو — ألم يكن هناك شيء ـ علامة مثلا ـ تميزكما ؟

أنا — واذا تذكرت ما قصصته لك عن آبائى وأجدادى الأماجد وما كانوا يتوخونه جميعاً من الأساليب لاكتساب رزقهم ، وبعبارة أخرى أخشن اذا تذكرت أنهم كانوا جميعاً بفضل الله فتاكا وقطاع طريق ولصوصاً ألا يكون الأقرب الى المعقول والأشبه بالحقيقة أن يكون الخادم المتلصص هو المازنى وأكون أنا الذى وقعت من فوق السطح ومت ؟؟

هو — لا أنكر قوة منطقك ولكنى أسألك مرة أخرى : ألم تكن ثم علامة تميزكما ؟

أنا — وهل تحسبني أبله ؟ وفيم إذن قلت لك أن للمسألة سراً ؟

فأبرقت أسارير وجهه ولمع السرور في عينيه وقال :

لا أحسبك تضن على بحل هذا اللغز بعد أن أوجعت رأسي بعقده

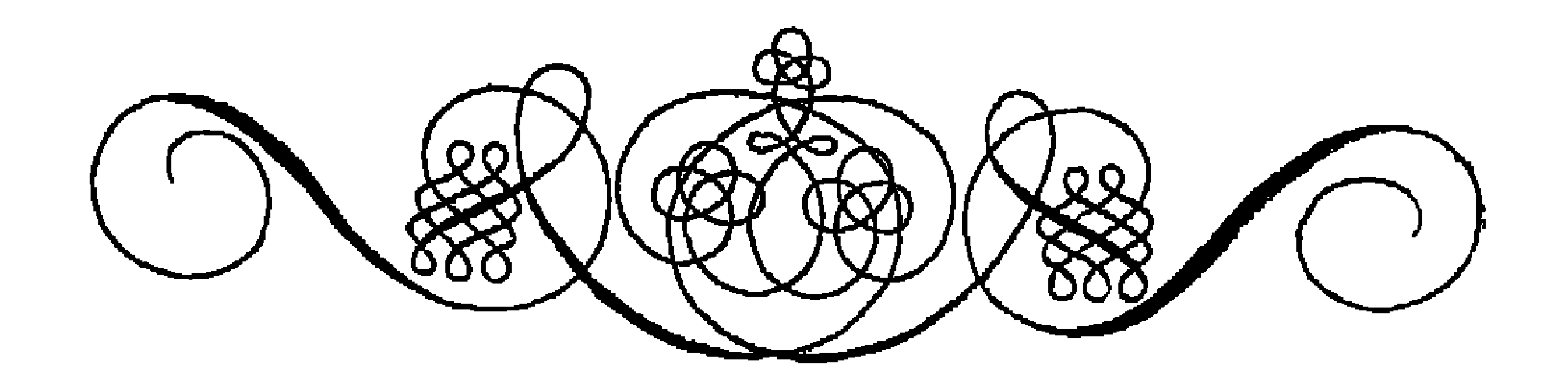
أنا — كلا ! لقد كان هو أسود زنجياً وأنا كما ترى أسمر ؟؟

* * *

فنهض وانحنى وقال : « اشكرك »

ولم أر بعد ذلك وجهه





الفروسية

دعينا مرة — أنا وطائفة من الاخوان — الى قضاء يومين فى ضيعة أحدهم ، وكانت قريبة من إحدى الضواحى فركبنا القطار الى . . . ، وهناك وجدنا طائفة شتى من الخيل والبغال والحمير ، فتوهمت فى أول الأمر أن هناك سوقاً للدواب أو معرضاً لها . ثم علمت أنها لركوبنا . فاخترت من بينها حماراً صغيراً وهممت بامتطائه ولكن صاحب الضيعة وداعينا عز عليه أن يركب « المازنى » حماراً وجاءنى بجواد أصيل وأقسم علىّ لأركبنه . فاستحييت أن أقول له إنى أخاف ركوبه وانه لا عهد لى بالخيل ودنوت من بعض الخدم وهمست فى أذنه هذا السؤال :

« قل لى . كيف تركب هذا الحصان ؟ »

فتأملنى ملياً ثم قال وعلى فمه طيف ابتسامة :

« على ذيله ! »

قلت : « على ماذا ؟ »

قال : « ذيله ! »

وأشاح عنى بوجهه . فذهبت الى الجواد وأدرت عينى فى ذيله ثم هززت رأسى وعدت الى الخادم أسأله

« ألا تظن ياصاحبى أن الأحزم أن أمتطيه قريباً من العنق لأستطيع عند الحاجة أن أطوقه بذراعى ؟ »

فلم يزد الرجل على أن قال : « ربما » وانصرف عنى الى سواى وكنا جميعاً فى هرج ومرج نصيح ونضحك وكان لابد أن أفعل شيئاً فناديت مضيفنا وقلت له :

« أريد سلماً »

قال فى دهشة : سلما ؟ ما حاجتك اليه ؟ »

قلت : « حاجتى اليه أنى أريد أن أصعد الى ظهر هـذا الجبل يا صاحبى »

فضحك وقال : « أنا أساعدك » ودفعنى على ظهر الجواد دفعة خيل الى أنها ستلقينى على الأرض من الناحية الأخرى

وسرنا مسافة على مهل ثم وخز أحدنا دابته فمضت تعـدو واستحث آخر مطيته وانطلق بهـا وراءه ، واقترب منى ثالث وأهوى على جوادى بعصى معه فوثب الجواد وراح يسابق الريح — أوهكذا خيل إلى — وأنا أعلو وأهبط فوقه حتى أحسست أن أمعائى ستتقطع ، وأتلمس بيدى شيئاً أمسكه وأتعلق به فيفلت قبضتى كل ماتصل اليه ، فارتميت على عنقه وطوقتها وجعلت أنادى من حولى وأناشدهم الذمة والضمير والمروءة أن يقفوا هذا

الشيطان . وأدرك أحد إخوانى العطف على فصاح بى « ولكن كيف نقفه ونحن راكبون ؟ »

فغاظنى منه هذا البله ولم يفتنى مافى الموقف من فكاهة على الرغم من الألم الذى أعانيه ومما أتوقعه اذا ظل الجواد يركض بى. فقلت له : « يا أبله ! إنزل واقبض على ذيل حصانى وشده »

وكان أحد الخدم قد أدركنى وأمسك باللجام ورد الجواد فما أسرع ما انحدرت عنه . وكأنما أعجبتنى جلستى على الأرض فأخرجت سيجارة وأشعلتها وذهبت أدخن . وجاءنى مضيفنا على أتانه فسألنى :

« أتنوى أن تقعد هنا الى الأبد ؟ »

فأغضيت عن سؤاله وقلت :

« إن بى حاجة الى الشعور بثبات الأرض بعد كل هذا التقلقل وتلك الزعزعة »

قال : ولكنك لا تستطيع أن تظل جالساً هكذا . إن أمامنا مسير ساعة

قلت : « سألحق بكم اذن . أو أرجع اذا كان لابد من ركوب هذا الزلزال »

قال : « ولكن لايليق أن تركب حماراً »

قلت : — وقد صار فى وسعى أن أضحك — « فى وسعك أن تعلق ورقة تكتب فيها انه جواد مطهم »

قال : « لاتمزح . قم اركب حمارى هذا »

قلت : « اذا كان الحمار عالياً فما الفرق بينه وبين الجواد ؟ »

قال : بلهجة اليائس أو المنتقم « اذن خذ هذا »

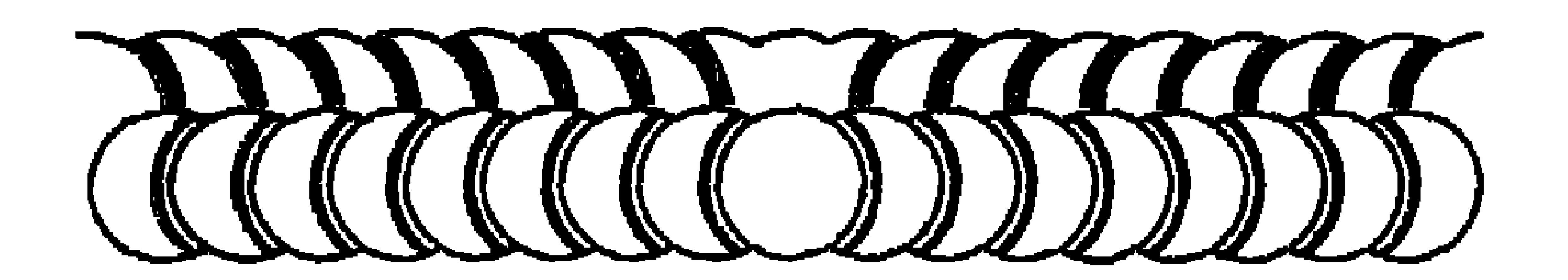
وأشار الى جحش قمىء مهين يركبه خادم ، لاسرج عليه ولا لجام له فقمت اليه وامتطيته بوثبة واحدة وبلا معين

واعترضتنا قناة عريضة عليها ألواح مثبتة تقوم مقام الجسر، وبين الألواح والماء تحتها متر على الأقل فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف ، وراقه منظر الماء فأجال فيه عينيه برهة ثم خطا الى حافة الجسر — ولم يكن له حاجز — ومد عنقه الى الماء ، فظننت أنه قصير النظر وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ! ولكنهم قالوا لى إنه كان يريد أن يشرب . فنزلت عنه وقلت له : « ياعزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك . فان ثيابى يفسدها الماء وهى غالية اذا كانت حياتى رخيصة »

ولكنه بعد أن فكر قليلا غير رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء مافيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها . فأدار وجهه ومضى غير ملتفت إلى ، غير أنى لحقت به بعد أن اجتاز الجسر وقلت له : « تعال لاتهرب منى ياصاحبى » وكنت على ظهره قبل أن يتمكن من الاعتراض أو الاحتجاج أو الافلات

ويطول بنا الكلام اذا أردت أن أصف كل ما أمتعنى به من الفكاهات العملية ، فقد كان فيه عناد وصلف وكان يأبى أن يتوسط الطريق ولا يرضيه إلا أن يحك جنبه فى كل ما يلقاه من شجر أو عربة أو حائط ، وكان ربما وقف وغرس رجليه فى لأرض و نام . وتعودت منه ذلك وفطنت الى أنه ذو مزاج مستقل فكنت أتركه واقفاً حتى ينتبه من هذه الاغفاءات ، أو يعود إلى من سبحات عقله السقراطية ، فنستأنف المسير ، وبحسبي وحسب القراء أن أقول لهم إنى أسفت على فراقه لما نتهت الرحلة وتمنيت لو أن صحبتنا كانت أطول .





مقتطفات من مذكرات حواء

(تنبيه) — هذه المذكرات موضوعة على نسق «مذكرات آدم» للكاتب الامريكي مارك توين (ساموبل كليمنز) وهي تشبهها في أسلوب الفكاهة وقد جاريته في أشياء لم أدر كيف أخالفه فيها ، مثل انكار آدم أن حواء مخلوقة من ضلع في جنبه ، واستغرابه بكاءها — والبكاء أشبه بالانوثة — وعدم فهمه الأمومة الخ الخ

وقد أردت أن أمثل بهذه المذكرات لما يأتي :

أولا — ان الخلود يمتنع معه الاحساس الجنسي وان قضاء الموت هو الذي يثير هذا الاحساس وينشئ غيره أيضاً

ثانياً — ان المرأة مخلوقة للنوع فالغريزة الجنسية فيها أقوى منها في الرجل

ثالثاً — ان المرأة أقدم معجم للغة ، فهي التي وضعت الأسماء ونحتت واشتقت وصقلت الألفاظ بكثرة الاستعمال

رابعاً — ان الخجل من مقتضيات المعرفة والادراك

خامساً — ان الأمومة أقوى وأبرز من الأبوة لأن المرأة هي الاداة لحفظ النوع

وقد تناولت هـذه المعاني من قبل في مقالات عدة ، نشر

بعضها فى « حصـاد الهشيم » مثل « الجمـال فى نظر المرأة » و « مقتضيات الخلود » وفى « قبض الريح » مثل « المرأة واللغة أول معجم وأقدم ديوان» ومقالات أخرى نشرتها فى«السياسة الاسبوعية » ولم تجمع بعد كتاب .

---

١ — فى الجنة

السبت — وجدت أن ما أغرانى به آدم من كتابة المذكرات اليومية قد شغلنى عنه وأتاح له أن يطوف فى الجنة وحده . وهو لا يفتأ يصبحنى بالسؤال عن مذكرات اليوم السابق هل دونتها ، وينصح لى بأن أكتبها قبل أن أنسى ما حدث ، ولا أكاد أشرع فى الكتابة حتى أراه ينسل ويذهب لا أدرى الى أين . ومن أجل هذا عقدت النية على ألا أكتب إلا فى الليل بعد أن ينام

الاثنين — آدم لغز لا أكاد أفهمه . لم يكن يعرف حتى أن اسمه آدم ! ومن قوله انه لا يشعر بالحاجة الى إسم ما ، ولما قلت له يوما ان اسمى حواء قال : « ربما » ! أليس هذا منه عجيباً ؟ وأعجب من ذلك أنى قلت له أن عليه من الآن فصاعداً أن يدعونى باسمى فانه أعذب فى أذنى من « هش هش » التى لا يزال يفتح فمه بها

على ، فقال أنه يقصد — حين يصيح بى « هش هش » — أن أذهب عنه لا أن آتى اليه ، وأنه لا يحتاج أن ينادينى أو يدعونى لأنى لا أكاد أفارقه ، فمن العبث أن يكون لى اسم اذا كانت فرصة استعماله لا تعرض أبداً . فلما احتججت عليه بأن لكل شىء فى الجنة اسمه الذى يعرف به ، زعم أنى أنا التى اخترعت هذه الاسماء وأطلقتها على مسمياتها ، وانه لا يدرى لماذا أجشمه حفظ هذه الاسماء كلها وتصديع رأسه بها ، وزاد على ذلك أنه لا يرى هذه الاسماء منطبقة على الأشياء أو موافقة لها ، ودليله على هذا أنه ما من حيوان يجيبنى حين أدعوه باسمه ، ولكن هذا مع ذلك لا يعنيه واذا كان يروقنى أن أكلف نفسى مشقة التسمية فأنا وما اخترت لنفسى ، غير أنه يرجو منى ألا أشركه فى هذا العبث .

وهذه أول مرة سمعت من آدم مثل هذا الكلام فحز فى نفسى وآلمنى فبكيت وتوجعت ، ولشدما كانت دهشتى حين نهض آدم ودنامنى ورفع وجهى اليه وجعل يتأمل عينى ؟ بل لقد هم بأن يضع أصبعه فى عينى فنحيت يده عن وجهى وقلت له وقد غيض الغيظ والغضب عبراتى : « ألا تكفيك قسوة لسانك حتى تريد أن تفقأ عينى ؟ »

فادعى أنه لا يفهم كلامى وزعم أنه إنما كان يبغى أن يرى من أين يجىء الماء الذى يسيل من هذين الثقبين فى وجهى . وقال انه لم ير حيواناً آخر غيرى يفيض الماء من ثقوب وجهه .

فصدفت عنه وبى من الألم مالا أحسن وصفه . فلم أر أنه

عبأ بصدى عنه شيئاً وطال انتظارى أن يعود إلى ليعتذر فخرجت من الكوخ أطلبه فألفيته ممسكا هرة يحاول أن يعصر لها عينيها وهى تجاهد تريد لتتخلص من قبضته القوية ، فاختطفتها منه وسألته : « ما هذا الذى تصنع ؟ »

فلم يجبنى على سؤالى ، ورفع إلى وجهاً قرأت فى أساريره الدهشة والملل وقال : « ها ؟ أو جئت ورائى ؟ »

فأعدت عليه السؤال فكان جوابه أنه أراد أن يعرف من أين يجىء الماء الى هذه الثقوب التى أسميها العيون . فأيقنت أنه لم يكن يروم أن يفقأ عينى وصفحت عنه وزدت تعلقاً به

الثلاثاء — لا يزال آدم يضحك منى كلما خرجت الى البركة لأنظر فيها الى نفسى ولا سيما بعد أن وقعت فيها وأنا أتأمل خيالى فى صقالها . ليته ينظر فى مائها الصافى مرة . إذن لكف عن هذه السخرية . وما أنس يوم قمت فألفيتنى راقدة فى ظل وارفة الأظلال لفاء ، وكيف ذهبت أعجب لنفسى من عسى أن أكون ؟ وأين أنا وماذا جاء بى الى هنا ؟ وكيف كان ذلك ؟ وكان على مقربة منى كهف يتدفق منه الماء الى بركة فقصدت اليها وانطرحت على بساط الروض وجعلت أنظر فى الماء واذا تحت عينى — فى جوف الماء — صورة تنحنى وترامقنى ، فتراجعت ، فارتدت مثلى ، فعدت أنظر ، فعادت تحدق فى وجهى بعينين جميلتين يفيض منهما العطف والحب ، فلولا صوت رخيم هفا به

المنسيم إلى : « أن ما ترين ليس إلا صورتك وخيالك » ، لما انصرفت عن الماء الى هذه الساعة ، وإن آدم لقوى وجميل ولكن ذلك الخيال الذى يتراءى لى فى الماء ألين وأعذب

الخميس — كل يوم يبدو لى من آدم خلق عجيب . كنت ألومه وأشكوه الى نفسه وأونبه على هروبه منى واختفائه بين الاشجار وأقول له فيما أقول : « إنى أنسى كل شىء حين أكون معك . حتى الجنة لا أباليها ولا أحفل ما فيها . وأن نسيم الصبح حين يهب بأصوات العصافير ، لذيذ وإنه ليس أطيب من ريا الأرض بعد أن يجودها من السماء هاضب ، ولا أرق من مقـدم الليل علينا بنجومه الزهر وقمره السارى ، ولكن مامن شىء فى الارض ولا فى السماء يروقنى أو يفتننى اذا لم تكن معى . فالعجب لك كيف تطاوعك نفسك على مجافاتى والفرار منى وأنا بعضك ؟ »

ففتح عينيه جداً وقال « بعضى ؟ ماذا تعنين ؟ »

فقلت : « نعم بعضك ! ألست قد خلقت من ضلع فى جنبك الأيسر ؟ » فوثب الى قدميه وقال :

« من ضلع فى جنبى ؟ من قال هذا ؟ »

قلت : « إنها الحقيقة »

فرفع يده الى صدره وجعل يمر أصابعه على ضلوعه ويتحسسها بعناية ثم نظر إلى وقال : « هذا غير صحيح . إن ضلوعى كاملة لا نقص فيها . وقد عددتها أمامك »

الجمعة — قال لى آدم أن فى هذه التى أسميها « جنة عدن » أشياء كثيرة تسترعى النظر والسمع أيضاً ، ولكنى لا أنتبه اليها لأن لسانى لايكف عن الدوران . وأضاف الى ذلك أنى أنا المخلوق الوحيد الذى لا ينتفع بعينيه وأذنيه . وأنى أفسد عليه الطواف فى هذه « الجنة » وأحيل المقام فيها كالمقام فى « ذلك المكان الآخر »

وقد اغتنمت هذه الفرصة ونبهت آدم الى أنى « أنثى »وأن عليه أن يكف عن مخاطبتى أو الاشارة إلى بضمير المذكر . فهز رأسه وقال: إنه يشك فيما أقول ، ولكن الأمر لايعنيه وأنه سيتحرى مرضاتى مادام أن هذا يسرنى عسى أن يكف هذا الرضى من غرب لسانى الذى لا ينفك يعترض

السبت — لم أكن أنوى أن أكتب اليوم شيئاً . ولكنى عثرت بقصاصة بخط آدم قرأت فيها هذه العباره « لقد كانت أيام الاسبوع كلها جمعاً قبل أن يأتى هذا المخلوق الجديد الذى نفى عنى الراحة وهدوء البال . . . . »

« بقية الكلام رديئة . ويظهر أن حواء كتبت تعليقها على عبارة آدم بسرعة وانفعال . على أنى مع هذا استطعت أن أقرأ الكلام ولكنى أعتذر للقراء فانى أعلى بأبينا الشيخ عينا وأعمق إجلالا له من أن أسمح بنشر ماخطته أمنا المسكينة عنه فى ساعة من ساعات الغضب »

الأحد — مواظبة آدم على الكتابة تدهشني ، وتعليله لذلك أبعث على الدهشة . فهو يقول أنه يقتل الوقت بذلك وينفي عن نفسه الملل . الملل حقاً ؟ ألست معه أونسه ؟

الثلاثاء — كان اليوم مطيراً عاصفاً فامتنع آدم عن الخروج من الكوخ فتركته ومضيت الى البركة غير أن المطر المنهمر شوه صورتي جداً فانكفأت عنها أسفة وأدركني العطف على جرو صغير وجدته في طريقي فحملته معي الى الكوخ ولم أكد أدخل حتى انتهرني آدم وأنبني على ما يسميه حماقة الخروج في مثل هذا الجو والرجوع بقدمين مثقلتين بالأوحال وتوسيخ الكوخ بها . ثم سألني عما أحمل فقلت له إنه جرو صغير أشفقت عليه من المطر والبرد . فقال : « لست أفهم هذا الولع بالحيوانات الصغيرة وضمها الى صدرك وتقبيلك إياها ومناجاتها بأصوات لامعنى لها وازعاجي بعوائها ونباحها ومووائها . » ثم انتزع مني الجرو وقذف به الى الخارج .

الأربعاء — لست أنسى ما عشت نظرة الاحتقار التي رماني بها اليوم آدم . كنت عند شجرة تين أتذف ثمرها بالحجارة وحانت مني التفاتة فاذا آدم يرشقني بهذه النظرة . فكأنه سمرني بها الى الأرض . ثم دنا مني وهو يقول : « هكذا ترمين ! » وتناول حجراً وراح يقلدني ، ويتثنى ويتعوج ويلقي الحجر فيقع عند قدميه . وبعد أن شبع من الزراية علي والسخرية مني اعتدل :

وقال « هكذا يجب أن تفعلى » وسدد ساعده القوى وقذف الحجر فانطلق من يده يقول « فووو » وهوى التين الى الأرض ، وتركنى ومضى .

الخميس — يقول آدم انه أخطأ حين علمنى « الرماية » كما يسميها . ويزعم أن تعليمه اياى أغرانى بأشجار الفاكهة ، وانى الآن أفرط فى أكلها ، وأننا مهددون بنفاد هذا الغذاء أو « بالقحط » كما يقول على طريقته فى المبالغة . وأنه على كل حال لا يتوقع خيراً من وراء حبى للفاكهة .

السبت — مر اليوم بلا حادث يذكر سوى أن آدم وجدنى أتساق الشجرة المحرمة فجذبنى بعنف وحذرنى من الدنو منها .

الأحد — قمت من النوم فلم أجد آدم فذهبت أبحث عنه فلم أهتد الى مخبئه . وهذه رابع مرة يهرب فيها منى . فعدت الى الكوخ متعبة وارتميت على الفراش الذى صنعته له من ورق التين . ألا فى سبيل الله ما كلفت نفسى من أجله !

الاثنين — لا يزال آدم هاربا وقد حفيت قدماى . وأقلقنى هذا الغياب الطويل الذى لاعهد لى ولا له به . أتراه ضل الطريق ؟ انه غريب الأطوار فلا يبعد أن يكون قد خرج من الجنة .

الاثنين — بعد أسبوع كامل قضيته فى البحث وجدت آدم فى أقصى الشمال . لقد بنى له كوخا صغيراً هناك . لله الله فلولا الحية دلتنى على مكانه .... ولكن صبرا .

الثلاثاء — لم أكن أحسب أن الحية تتكلم ، وتالله ما أطيبها وأعذب لسانها وأحلى حديثها . لأكاد أضمها الى صدرى حين يصافح سمعى قولها : « يا فتنة الدنيا ويا أجمل ما فى السموات والأرض ويا أم البشر . » ولكن آدم يكرهها ويخافها ويحذرنى منها ويقول أنها نذير سوء ، وان كان لا يكتمنى سروره بأن وجدت من يحادثنى غيره .

الأربعاء — كان آدم يتمشى اليوم وهو مطرق ويداه خلفه ويتمتم بكلام غير مسموع وليست هـذه عادته فما رأيته يفعل ذلك من قبل فتواريت خلف شجرة أراقبه ، فلما دنا منى سمعته يقول لنفسه : « وماذا أخشى من الموت اذا أكلنا من الشجرة وحل الموت فى الدنيا ؟ ان الموت مرغوب فيه من أجل بعضهم على الأقل »

فمن « بعضهم » هذا ؟ سأسأله عنه .

الخميس — قالت لى الحية انها لم تكن تتكلم ولم يكن لها عقل ولكنها مرت بشجرة استطابت رائحتها فصعدت الى أثمارها والوحوش ترمقها وتمد أعناقها فتقصر عن بلوغ الثمر ، وكانت جائعة فالتهمت منها مالا يحسب الحاسب فتغير كل شىء فى عينها ووجد لسانها السبيل الى الكلام وان كان قد بقى لها شكلها فوجهت عقلها الى التفكير والتدبر فى كل ما فى السماء والأرض وما بينهما وأضافت الى ذلك — شكراً لها — ان كل ما فى الدنيا

من خير وجمال مجتمع فى وجهى الملائكى ، وأنها لم تر لى نظيراً وان هـذا السحر الذى فى عينى هو الذى جرأها على الظهور لى وأغراها بادمان النظر إلى فسألتها عن الشجرة أين هى فاما دلتنى عليها اذا بهـا الشجرة المحرمة فانبأتها أن ثمرها محرم علينا . فأعربت عن استغرابها أن تحرم علينا فاكهة الجنة ، فبينت لهـا أن لنا أن نأكل ما نشـاء من فاكهة الجنة ما خلا ما تحمل هذه الشجرة وإلا كتب علينا الموت . فقالت الحية كلاما كثيراً معجباً مطربا شربته أذناى بلهفة فجعلت أرمق الشجرة ومنظرها وحده غواية وفى أذنى مـن الحية عذوبة حديثها ومضى الوقت وأنا أستمع الى الحية وأرى الشجرة موقرة بحملها الناضج وأشم عبقه الطيب وعضنى الجوع فامتدت يدى الى الثمرة فقطفت واحدة ثم ثانية ثم ثالثة فتفتحت عيناى وأبصرت العرى الذى أنا فيه وقلت لنفسى فى أية صورة أبدو لآدم ؟ أأنبئه بمـا وقع لى وطرأ على من التغير وأشركه معى ؟ أم أنفرد دونه بالعلم وأسد بذلك النقص الذى منى به جنسى حتى أساويه وربما فقته ، فانى أرى ضـعفى يسترقنى له ؟ وهـذا حسن ، ولـكن الله الذى رآنى وعلم انى عصيته ؟؟ والموت لابد آت بعد ذلك ولامهرب منه الآن ، وهكذا سأذهب أنا ويخلق الله لآدم حواء أخرى تعيش معه وتسعد بجواره . كلا ! كلا ! انى أحب آدم وأستطيع أن أحتمل كل صنوف الموت معه . ولكنى لا أقوى على الحياة بدونه .

وثنيت خطواتى الى الكوخ ولكنى لم أجد آدم فدرت فى الجنة أبحث عنه فلم أعثر له على أثر ، واضطررت الى الاختباء مراراً لأن الوحوش كانت تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ، ولم تعد تطيعنى كالعهد بها ففررت من الجنة بعد أن اختل فيها الأمن واضطرب حبل النظام وأصبحت الأمور فيها فوضى . وجاوزت حدودها الى الأرض

الاربعاء — بعد أربعة أيام طوال وجدت آدم فألقيت عند قدميه الغصن الذى قطعته من الشجرة المحرمة مثقلا بالتفاح الشهى فنظر إلى نظرة استغراب وسألنى عن هذا الورق الذى أستر به جسدى فقلت ستعرف هذا متى أكلت من التفاح فانتزعه عنى وعرانى . فخجلت فقال: لقد علمت أنك أكلت منه فقد هاجت الوحوش وهمت بأكلى فركبت حماراً فارهاً لم يزل يعدو بي حتى عدا عليه نمر فنجوت بجلدى ولما أكد. ورأيت المقام فى هذه الجنة مستحيلاً فخرجت منها ، وسيان عندى الآن أن آكل أو لا آكل فهاتى ماعندك فانى جوعان

وقضم قضمة وجعل يتذوقها ويقول ما أطيبها والله وان كانت فى غير أوانها . ثم نظر الى نفسه فأدرك أنه عار واستحيا فستر نفسه بالورق الذى نزعه عن جسدى ونظر إلى ثم أرخى طرفه وهو يقول : « ماذا تعنين بالوقوف عارية هكذا ؟ اذهبى واسترى نفسك » ففعلت

الخميس — اعترف لى آدم بأنه كان لا يحسن معاملتى ونحن فى الجنة وقال ان عذره هو أن المرء لم يكن يستطيع أن يحسن شيئاً فى تلك الجنة ، وقد كان يخشى ألا ألحق به ويتوقع أن تضنيه الوحدة وتسقمه الوحشة وقبلنى «وعرفنى» لقد خسرت الجنة ولكنى ربحت آدم ...

---

٣ — بعد الخروج من الجنة

الثلاثاء — تالله ما أقسى آدم فى هذه الايام ! إنه لا يفتأ يعنفنى ويلعننى ويحمل على من أجل أنا أكلنا من الشجرة المحرمة وخرجنا من الجنة وهو هو الذى أثنى على ذوقى لما أطعمته من التفاح وقال لى فيما قال : « هات يا حواء هات ! ما أطيب هذه الفاكهة التى حرمناها ، واذا كان هذا طعم ما حرم علينا فليت الشجرة المحرمة كانت عشراً !؟ وهلم بنا نلعب بعد هذا الطعام الشهى فما أعرف جمالك قبل اليوم ألهب حواسى كما يفعل الآن »

ولم يدخر نظرة حب ولا تجميشة غزل ، وأعدانى وألهبنى ، فقاذفته ناراً بنار ثم تناول يدى ومضى بى الى غدير ظليل الشاطىء فاضطجعنا على البساط السندسى ونثرنا حولنا وتحتنا وفوقنا عبق الزهر — الفل والياسمين والنرجس والقرنفل — وروينا من الحب ثم عقد النعاس أجفاننا فنمنا ملء عيوننا . ويا ليتنا لم نقم !

فقد غدا على يلومنى ويتوجع مما صار اليه ونحن إلى ما كان فيه فقلت له إنه لو كان مكانى لفعل مثلى ، وذكرته بأنه كان فى الجنة يرمى إلى بالزمام ويلقى حبلى على غاربى ، وسألته لماذا تركنى أفعل ما بدا لى ولم يأمرنى — وهو الرجل وأنا المرأة — أن أجنب الشجرة وألا أقربها ، لقد كان سلوكه مغرياً لى ومشجعاً على اقتطاف هذه الثمرة المحرمة .

فثار بى يلعننى ويقول : « أهذا جزاء حبيك أيتها المرأة الكنود ؟ ألم يكن يسعنى أن أدعك وحدك للموت الذى جلبته على نفسك وأن أنجو بنفسى فلا أتبعك ؟ أما والله لأنت والحية سواء وانك لألأم منها وأبغض ، وما ينقصك إلا أن تكونى على مثل صورتها وألوانها ليحذرك الخلائق جميعاً ولتتقيك ولا تغتر بصورتك السماوية ! الا لماذا شاءت حكمة الله أن يخلق هذه البدعة ولم يشأ أن يخلق الناس كلهم ذكرانا ويملأ الدنيا بهم اذا كان لابد من خلقهم ؟ »

فبكيت واسترحمته وعكفت على ركبتيه أقبلهما وأمسح عليهما وجهى ، فرثى لى ولان لى قلبه ، فتشجعت وأدليت اليه برأيين يكفلان لنا الراحة ويقيان ذريتنا المصائب التى كتبت عليهم بذنبنا فسألنى عنهما فقلت : الرأى عندى — مادام الموت لا مفر منه الآن — أن ننتحر ، فنستريح ونترك الدنيا كما كانت لا يعمرها من نسلنا أحد ، أو أن نتحرى ألا نجىء الى

الدنيا بنسل ، فنحرم الموت حقه و نقضى عليه هو بالموت جوعا.

فقال آدم : يابلهاء أتحسبين أن الله يتركنا نفعل شيئاً من ذلك ؟؟ لقد أخرجتنا مشورتك من الجنة وهوت بنا الى هذه الأرض ، فأين يا ترى تقذف بنا مشورتك الجديدة ؟ إذهبى . إذهبى !

بعد شهر — لست أمل التجواب فى هذه الغابة الكثيفة . فان لها لسحراً شديد الأخذ . وقد ضللت فيها أمس وإن كنت لم أبعد عن الكوخ أكثر من فرسخ ، فنشط خيالى وراح يرينى أشباحا هنا وها هنا بين الأشجار الغليظة الذاهبة فى الهواء التى تحجب الشمس فلا ينفذ منها شعاع . فوقفت برهة أفكر وأتخيل وأشرب نفسى روح المكان فنعق فوق رأسى غراب ففزعت ثم غضبت على نفسى لأنى فزعت ورفعت طرفى فأبصرت الغراب على غصن فوقى يصوب نظره إلى فاستحييت أن رانى كأنما كان قد فاجأنى فى خلوتى فخدجته بنظرى فخدجنى بنظره ولم يحول عنى عينه ، وكان كلانا صامتاً ، لا يقول شيئاً ثم تقدم الغراب بضع خطوات على الغصن ليكون أقدر على تأملى ورفع جناحيه ودلى رأسه من بين كتفيه ونعق مرة أخرى نعقة أحسست أن لهجتها مهينة مبطنة بالزراية فلو أنه كان يتكلم مثلى ومثل آدم ومثل الحية لما قال لى بأفصح مما قال « ماذا تصنعين هنا بالله ؟ » وليس هذا شأنه ولا كانت هذه الغابة له ، وما من

حقه أن يخاطبني بمثل هذه اللهجة ، ولكني لم أرد عليه استنكافاً مني للمنابذة مع غراب أسحم وترفعاً عن المهاترة معه ، فلبث برهة يدير عينه فى ، ورأسه ممدود إلى من تحت كتفيه ثم قذفني باهانتين أخريين لم أفهم معناهما على وجه الدقة وإن كانت دلالتهما واضحة فلم أشأ أن أجاريه فى بذائته وأمسكت عن دفع الاهانة . ويظهر أن حامى أطمعه فقد رفع رأسه وأطاق فى الغابة نعقة تبينت أنها نداء فقد أجابه غراب آخر من قلب الغابة ، وراح ذاك يسأل وهذا يشرح له الموقف حتى ترك الغراب المدعو ما كان فيه وطار اليه وحط الى جانبه فوق . ومضى الغرابان الأسودان يتناعبان عني ولا يحفلان وجودى ، فلو أنى كنت بعيدة عنهما بحيث لا أسمعهما ولم أكن تحت أعينهما لما أساءا الأدب فى حقى الى هذا الحد ، فخرت وارتبكت ثم بدا لى أن أدعهما وأمضى فى سبيلى ، وأحسب أن الغرابين الوقحين قد سرتهما هزيمتى فقد مطا عنقيهما وراحا يضحكان مني ويرسلان خلفى الشتائم والاهانات حتى تواريت عنهما ، وانى لا علم أنهما غرابان لا أكثر ولكنه من المؤلم على كل حال ، بل مما يكوى غرور الانسان أن يرى حتى الغراب يهزأ به ويتماجن عليه ويصيح به « ما أطول شعرك ؟ » أو « أليس لك ثوب تلبسينه غير هذا الجلد القديم ؟ إرفعى ذيله فانه يكنس الأرض ويثير الغبار »

ومن الغريب أنى ألفيت نفسى عند باب الكوخ قبل أن

أفكر فى الطريق الذى أسلكه وهكذا اهتدت رجلاى بعد أن ضل رأسى . لقد كنت أهم بالبكاء ولكن فرحى بالرجوع سالمة أنسانى الدموع

بعد أسبوعين — آدم يحمل على ويرهقنى بالعمل ويكتفى هو منه بالاشراف ، ولا أدرى ماذا يكلفه « الاشراف » ولكن الذى أدريه أنى مستعدة أن أقوم بعنه وأن أدع له ما أنافيه وقد ثقلت وأرانى أميل الى التمرد ، وسأدعى المرض غداً فان لم يصلح الحال بعد ذلك فسأهرب وأختفى فى بعض الأدغال ليعرف قدرى

بعد خمسة أيام — هربت ثلاثة أيام ثم لم أطق البعد عنه فرجعت اليه وادعيت أنى كنت تائهة وقلت أنى منهكة ولا أكاد أقوى على النهوض فخرج آدم متذمراً وغاب عنى اليوم كله فكدت أجن من الشوق اليه وتبت من ذنبى واعترفت له بالحقيقة

بعد ثمانية شهور — سميته قابيل . وهو حلو أحمر لا شعر عليه غض اللحم وأكاد من فرحى به وحبى له آكله ! وكان آدم قد خرج للصيد فلما عاد بعد أيام سألنى عنه ما هو ؟ فلم أدر كيف أقول وحملته اليه وأدنيته من فمه ليقبله فظن أنى أقدمه له طعاماً ونحى وجهه وصدنى بيده ، وقال : أوحش أنا حتى آكله حياً ؟ ولما قلت له انى « وضعته » وأنا عائدة إلى الكوخ لم يصدقنى وزعم أنى « وجدته » وقال أن به مشابه منى ولكنه صغير جداً فهو على الأرجح حيوان جديد ، وتناوله وجعل يقلبه

ويفحصه ، فبكى وصاح فاختطفته واحتملته وضممته الى صدرى ولاطفته حتى ثاب الى السكون .

ولما جاء الليل وبكى زعم آدم أن من الحماقة أن أسجن هذا الحيوان معنا ، وانه إنما يبكى ويصيح ويخرج هذه الأصوات المنكرة لأنه يريد أن يعود الى جماعته ، وهم بأن يلقيه خارج الكوخ فعدوت وراءه وصددته ، فقال آدم إنه لا يفهم سلوكى هذا وانه لم يألف منى هذه العناية بالحيوانات الأخرى

من مذكرات آدم

« لقد تغيرت حواء حتى لأكاد أنكرها ، مذ وجدت هذا الحيوان الغريب الذى حفيت قدماى على غير جدوى فى البحث عن واحد آخر من مثله ، فهى لا تخرج الآن للصيد أو للاحتطاب ولا تكاد تعنى حتى باعداد الطعام. ولا تخطو خطوة إلا وهذا الحيوان الغريب مضموم الى صدرها أو محمول على كتفها ، وهو لا يكافنا شيئاً لأنه لا أكل ولا يشرب وهذا أغرب مافيه . وأحسب حواء قد جنت فانها لا تفتأ من حين الى حين تلقمه ثديها فيعكف عليه بفمه الفارغ كأنه يأكل ولا شىء هناك فليس أجن منها سواه ! وما أغرب منظرها وهى تداعبه وتناجيه وتوهمه أنها تعض أنامله فيضحك ولم أر قبل هذا حيواناً يضحك . لقد حيرنى جداً هذا المخلوق العجيب الذى تسميه حواء

« قابيل » والذى لاأدرى ماذا هو ؟ فهو ليس منا اذ كان لا يمشى مثلنا ولا يتكلم ، وليس من الطير فما له أجنحة ثم هو لا ينهض فكيف بالطيران ! وليس من الحيوان فان جلده أملس لا شعر عليه وليس له ذيل . وأكثر ما أراه مستلقياً على ظهره ورافعاً رجليه فى الهواء ، ولست أفهم لغته ولكن حواء تزعم أنها تفهمها وتجيبه الى مايطلب فيكف عن الصياح ويضحك وينام . أما أنا فقد تقطع نومى مذ جاءتنا بهذا اللغز . سأغافلها يوماً وأسرقه وألقيه فى الغابة أو فى الغدير فانى فى شك منه عظيم

بعد بضعة شهور — لا أزال عاجزاً عن فهم هذا اللغز الذى كنا فى غنى عنه والذى يشرد عنى النوم ، ولم استطع أن أسرقه لأن حواء لا تتركه لحظة وقد نما بسرعة فصار خمسة أضعاف ما كان عليه لما جاءنا ، وكان فى أول الأمر لا ينفك مستلقياً على ظهره فالآن يحبو على يديه ورجليه وقد يباغتنى وأنا نائم فيضع يده الصغيرة فى فمى أو يقبض على أنفى أو يجذبنى من لحيتى . ليست حواء وحدها المجنونة فسيلحق بها سواها قريباً . ولقد أشفقت على هذا اللغز وقلت آتيه برفيق يؤنسه فى وحدته ويسليه فى غربته بيننا فجئت بدب صغير ولكنه لم يكد يراه حتى ريع وملأ الدنيا صياحاً فلم أجد بداً من طرد الدب ورده الى حيث كان

أى شىء هو؟ هذا مايحيرنى ! أهو قط ؟ لا ! أو دب ؟ لا ! أو قرد ! ربما . ولكن أين الذيل ؟؟ والشعر ؟ سنرى

بعد شهور أخرى — لا يزال هذا اللغز ينمو وهو الآن يقف على قدميه الخلفيتين ، ويمشى خطوات ثم يقع ، وقد ظهر الشعر فى رأسه وهو كشعرنا نحن لولا انه أنعم وأخف وأقل سواداً وألين ملمساً ، وكنت أتوقع أن يظهر له ذيل ولكنه خيب أملى . وأقول الحق لقد بدأت أخافه فان هذا النمو الشاذ الذى لا عهد لى به فى حيوان آخر يوقع فى روعى أنى لم أر آخر هذه الحكاية . وما يدرينا غداً ماذا يكون منه ؟ وقد رأيت أن الأحزم أن أنام خارج الكوخ من الآن فصاعداً وأن أدع حواء وحدها معه ، وليس هذا من الشهامة والمروءة فى شىء ، ولكن ماذا أصنع وهى لا تريد أن تفرط فيه ولا ترضى أن تعتاض منه دباً أو قرداً ؟ فعليها إذن أن تحتمل وحدها عواقب طيشها وحماقتها

بعد أربعة شهور — عدت من الجبل بعد غيبة طويلة فألفيت اللغز يمشى على قدميه مثلنا ويذهب حيث يشاء وحده وينطق بما يشبه كلامنا فيقول « بابا — ماما — أومبو » فهل علمته حواء ؟ لا أدرى ! وقد نبتت له أسنان ولم ينبت الذيل . ولما كنت سأعود الى الجبل غداً فسأشير على حواء بأن تكممه

بعد خمسة شهور أخرى — فى كل تطوافى وتجوابى فى الجبال والغابات والأدغال والأودية والسهول لا أعثر على ند لهذا اللغز وحواء تجد فى الكوخ — نعم فى الكوخ ومن غير أن تنقل قدماً — لغزاً آخر شبيهاً بالأول من كل الوجوه فهو من فصيلته

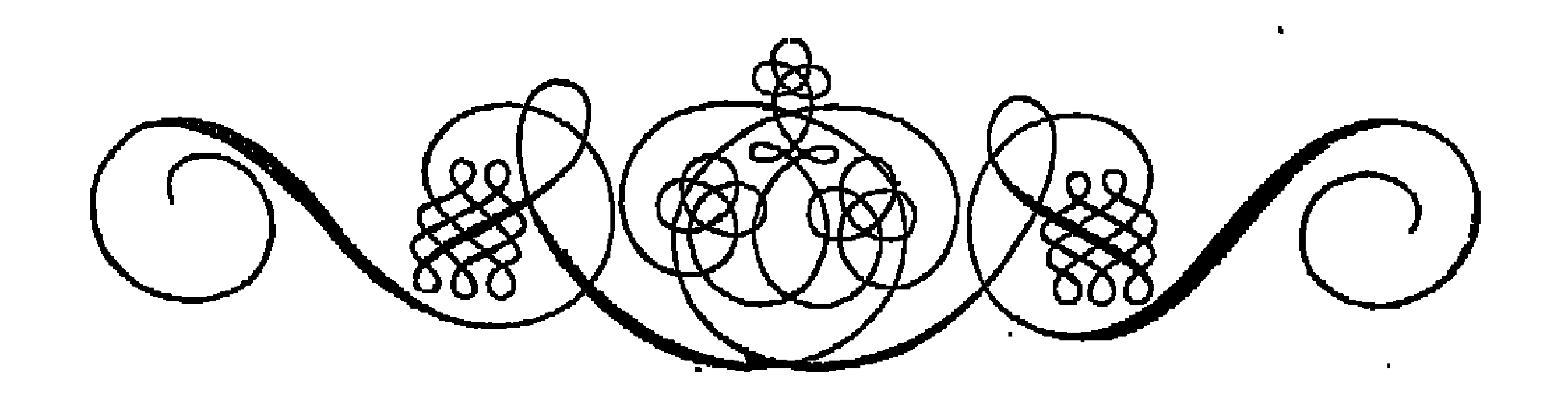
ولا ريب ، وقد سمته هابيل ، وحسناً فعلت فان اللغزين شبيهان فما أحقهما بأن يكون إسماهما متقاربين . وقد سرني أنها وجدت للغزها الأول مؤنساً ، فما أشك في أنه كان يألم هذه الوحدة ويحن الى قومه

اقترحت على حواء أن تدع لى اللغز الجديد أجرى فيه تجاربى لعلى أهتدى الى نوعه وأن تجتزئ هى بالأول فأبت أن تصغى إلى ولم تطق كلامى واحتماتهما وخرجت وتوعدتنى بالنزوح عن هـذه البقعة من الأرض اذا لم أكف عن التفكير فى ذلك . ولست أفهم هذا من حواء وما أراها الا جنت تماماً . لأنه اذا كان قد ثبت أن هنـاك ألغازاً كثيرة ، وكانت هى قد وجدت منها اثنين — وجدتهما وحدها وبلا معين — فماذا يضرها أن تلقى إلى بأحدهما وهى لامحالة واجدة غيره فى يوم من الأيام قياساً على ماحدث ؟ الحق ان منطق المرأة غريب . ولم أكن أريد إلا أن أخصه فى أوقات الفراغ فقد خطر لى من حسن تقليده لحواء ولى أيضاً أنه ربما كان نوعا طريفاً من القرود . ولـكن حواء فقدت عقلها فهى لا تعبأ بشىء من هذه الدنيا سواهما ولا تأتمنني عليهما لحظة

بعد ثمانية شهور — قالت لى حواء اليوم وعينها تلمع أنها « ستضع » واحداً آخر ، ولم أفهم منها قولهـا انها « تضع » هذه الالغاز ، وهذه الأكاذيب بعض مايسخطنى ويثيرنى عليها ولـكنى أحسب المرأة لا تكون امرأة اذا لم تـكذب فسألتها عمن أدراها أنها ستجد لغزاً جديدا فقالت بالتجربة . قلت : أية تجربة

فمضت بى الى ركن مظلم فى الكوخ وأسرت إلى بصوت خفيض جداً — كأنما كان هناك أحد يسمعنا — إن اللغز معى الآن . فنهضت مذعوراً وقلت معك كيف ؟ ودرت حولها أنفضها بعينى فلم أجد معها شيئاً . فقالت: إنه فى جوفى . فارتعت وقلت: أتراك يا . . . قد أكلت أحدها ؟؟ وتراجعت عنها فضحكت . . . إن حواء تخيفنى . فلن أنام فى الكوخ معها بعد اليوم

بعد بضع سنين — لقد حللنا اللغز وعرفنا أن هذه الخلائق الجديدة بنونا . وهم الآن أربعة قابيل وهابيل وبنتان . ولنا العذر اذا كان الأمر قد خفى علينا فى مبدئه فما سبق لنا بمثل ذلك عهد . وهابيل صبى وديع رضى الخلق وهو أحب الينا من أخيه قابيل الذى كنت أوثر أن يبقى كما كان يوم جاءنا : دباً أو قرداً أو غير ذلك مما توهمته فى صدر حداثته . وقد أدركت الآن أن حواء أصدق منى فراسة وأذكى غريزة وقد زاد حبى لها وعطفى عليها . هى التى تنسينى الجنة ، وماذا كانت الجنة قبل أن أعرفها



التباغض قوام الحياة

البغض أخلد من الحب ، والحياة قائمة على الكفاح والتناحر لا على التعاون والتناصر كما هى فى زعم كروبوتكين . ولو فقدت الحياة عنصر البغض والمقت لعادت بركة آجنة آسنة لا خير فيها ولا لذة لها .

هذا ماقلته لابنى حين رأيته مرة يلاعب قطة ويزعم انه يحبها ويحب أن يلاطفها . ولست على يقين من أنه فهم شيئاً من كلامى فان عقله لا يزال أصغر من أن يقوى على إدراك هذه التعميمات الشاملة . ولكنى على يقين من أنه حين يداعبها ، أنما يسره من ذلك شعوره بالقدرة عليها ، وانها لمداعبة وملاطفة ولكن فى رأيه هو ، وأخلق بالقطة أن يكون لها رأى آخر فى قرص ذنبها وشد أذنيها وجرها من أول الغرفة الى آخرها والأخذ بخنقها ورفعها محبوسة الأنفاس الى فمه ليقبلها !

ودع القطة وانظر كم يطول الحب ، وأى حب لا يفتر ولا

ينقلب نفوراً واشمئزازاً ؟؟ والانسان حيوان على الرغم من مداركه وفلسفاته وشعره وفنونه وعلومه واختراعاته ولست أعلم أن الحيوانات تقوم العلاقات بينها على غير تبادل المدافعة والايذاء والتعذيب بلا رحمة ، وأظهر ما يكون ذلك فى الانسان فى صغره قبل أن يتعلم كبح غرائزه وضبط نزعاته ومغالبة أهوائه . والأطفال يعذبون العصافير ولا يحسون ألماً حين يكسرون لها رجلا أو ينتفون لها ريشاً أو يقيدونها ويتركونها بعد اذ يعلوها ويدعونها تموت جوعاً ، وهم يطاردون الكلاب ويقذفونها بالحجارة ويضربونها ، واذا رأوا رجلا أبله أو ملتاثاً التفوا به وأوسعوه إيذاء ومعابثة ، وأشبعوه صياحاً وركبوه بكل نوع من أنواع التهكم والسخرية

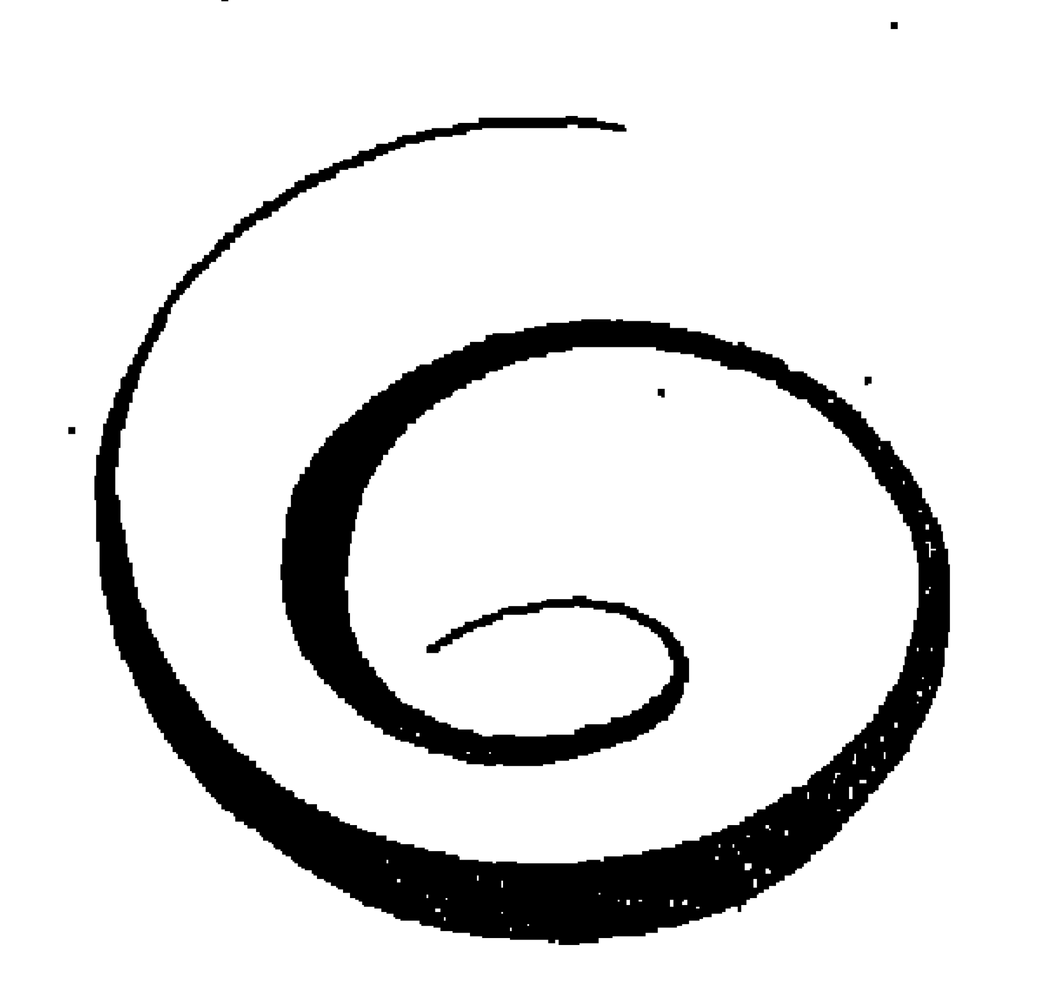
وماذا تكون الفضائل اذا خات الحياة من روح الشر واستل منها هذا العنصر الذى يحفز الناس الى العمل والتفكير ؟ ما الوطنية مثلا ؟ أنها كل ماشئت إلا أن يحب المرء مواطنه أو يؤثر دبالخير وأكثر ما يكون معناها أو مظهرها كره الشعوب الاخرى والعمل على إذلالها والاساءة اليها وأخذ الطريق عليها فى الحياة وسد الفجاج فى وجهها اذا كان شيء من هذا فى الوسع . والدين ماذا تصيره روح الشر ؟ تعصباً واضطهاداً . والفضيلة ليس معناها أن نكون نحن فضلاء وإنما معناها التستر على الاصرار على رذائلنا وإخفائها بذم مثلها فى سوانا وإظهار المقت لها والسخط عليها

والتقزز منها . ونحن نكره الظلم ولا نحجم عن إنزاله بغيرنا ، ونطلب الحق ونأباه على الناس . ونحسد الناجحين ونتمنى لهم السوء . وننزع الى الانتقام اذا أوذينا . ونقابل الاحسان بالجحود والكفران . واذا أحسنا الى امرىء مننا عليه وفضحناه وعكرنا معروفنا عنده وأفسدنا يدنا عليه ، وتوقعنا منه أن يكون بعد ذلك عبداً لنا . وليس الذي يدفعنا الى الاحسان وفعل المعروف العطف على الناس والمرثية لهم ، كلا . وانما باعثنا اللذة الخفية المستفادة من شعورنا بأنهم أسوأ منا حالا وبأنهم صاروا الى منزلة من الضعف أو الفاقة تحوجهم الى قوتنا أو غنانا بالقياس اليهم ، ويكون لأحدنا الصديق الحميم ويؤثره على نفسه ويقدمه ويختصه بالرعاية ، فاذا قام عن المجلس عاب ثيابه أو ذم مشيته أو جلسته أو نظرته أو انتقد سلوكه أو أفشى سره وهتك ستره باسم العطف عليه . ويكون لنا الصاحب نأنس به ونستريح اليه ونحب أن نراه ولا يفوتنا مع ذلك أن ندبر المواقف يبدو فيها سخيفاً أو جباناً أو أحمق طياشاً ، وتظل الصداقة وثيقة ما بقى كل من الصديقين مستغنياً عن الآخر . فاذا اقترض منه مالا ولو قليلا ذهبت الصداقة الى الشيطان وتفترت العلاقات ووهت الأواصر وكثر التهرب من اللقاء وظهرت الجفوة ووقعت النبوة. حتى شهر العسل ليس إلا شهراً ثم تتعاقب سنوات من الفتور والملل والسآمة اذا لم نقل من الكراهة والمرارة

وليس يخفف من وطأة هذا التباغض العام الشامل إلا أن الناس يضعون لعواطفهم اللجم ويكبحون جماحها ويبقونها فى حدود المحتمل وإن كان لا يسعهم محق هذه العواطف ، فكثيراً ما يكون مظهر العنف والشر غير موجود ، ولكن هذا ليس معناه أن عنصر البغضاء مفقود وأصلها معدوم .

وما أكثر ما ينتهى المرء الى كره نفسه واحتقارها لأنه لم يسعه أن يكره العالم ويحتقره بقدر ما تشتهى نفسه !

هذا هو العنصر الثابت فى الحياة وماعداه ظل متنقل ، وهو الحقيقة وما عداها خيالات وأوهام .



الحب الأول

كنت صغيراً لم أدخل — بعد — فى حدود الشباب ، وكان الوقت صيفاً ، وأكثر ما أقضى النهار أمام البيت ألاعب الصبية من لداتى ، فمرة نكون قطاراً بخاريا مؤلفاً من بضع عشرة قاطرة — ليس بينها مركبة واحدة — تنفخ جميعاً وتقول « أومف أومف بفو . بفو » وأخرى نكون خيلا تصهل وتتوثب وتضرب الارض بحوافرها وتزعج المارة وتصطدم بهم ، وطوراً نتقاذف بالكرة ونحطم بها زجاج النوافذ فيثور بنا السكان ويجلوننا عن الحارة ، وتارة نقسم أنفسنا فريقين ، عصابة من اللصوص وضباطا ، وأحياناً نعصب لواحد منا عينيه ونتوارى عنه وينطلق هو وراءنا باحثاً فمن لقى منا عصبنا له عينيه بدلا منه ، وهكذا الى آخر هذه الألعاب الصبيانية إن كان لها آخر يعرف أو حد تقف عنده ولا تعدوه . وكنت أنا بفضل الله أحمقهم جميعاً وأشرسهم خلقاً وأسرعهم الى شجار ، وكنت اذا ضاربنى أحد لا أبالى أين وقعت يدى ولا أتقى أن أصيب عينه أو أنفه أو أسنانه ، وقد أتناول الحفنة من التراب وأعفر بها

وجهه وأرده كالأعمى ، ثم أنهال عليه لطما ولكما وركلا . فقد كنت واسع الحيلة كما ترى فعوضنى ذلك من ضعفى وصارت لى بفضله منزلة بين هؤلاء الصبيان ، وكانت لى جارة — فتاة صغيرة كالنرجسة فى مثل سنى — وكنت أكثر ما أراها مطلة من النافذة علينا أو واقفة الى بابها تنظر الينا ولا تشترك معنا ، ولا أستطيع أن أصفها فقد بهتت صورتها بعد كل هذه السنين الطويلة وإن كنت لا أزال أرى لها نوطة فى القلب وعلوقا بالفؤاد كلما كرت بى الذاكرة الى تلك الأيام ، وكانت لا تفتأ تنكر منى طيشى ومغامراتى . رأتنى مرة مقبلا على البيت بعد الغروب بقليل وعلى جلبابى الأبيض طوائف شتى من الأوحال فاستوقفتنى وسألتنى : « ما هذا ؟ ما ذا أصابك ؟ »

قلت : اعترضتنى حفرة واسعة فأردت أن أعبرها وثباً فقصر الوثب عن الغاية فكان ما ترين

قالت : لو فكرت قبل أن تثب لعلمت أنك لا تستطيع أن تعبر الحفرة

قلت : ولكنى عبرتها .

قالت : كلا ! لم تعبرها بل وقعت فيها وهذه ثيابك تشهد عليك .

قلت : ولكنى اجتزتها والسلام . ألست ترينني أمامك ؟

قالت : عنيد ولا خير فى الكلام معك :

وتركتنى

واتفق بعد شهور من ذلك أن لقيتها عائدة الى بيتها وكنا على مسافة مائتى متر منه ، فلما صرنا فى «الحارة» اذاهى زحلوقة لا تثبت فيها القدم من كثرة الماء المرشوش ولم يكن ثم طريق آخر فأسندت يدها على الحائط وناولتنى يدها الأخرى وقلما كنت ألمس يدها ، فلما صارت كفها فى كفى شعرت بشىء من الزهو ممزوجا بالغبطة وخفت على يدها اللينة البضة أن تؤذيها قبضتى — التى خيل إلى أنها قوية — فجعلت أصابعى حول رسغها حيث العظام فيما بدا لى أقوى على الاحتمال ، وجعلت أخطو بحذر مخافة أن يطير الى ثوبها النظيف رشاش من الماء القذر ، وكانت مضطرة أن تعتمد على بجسمها ، وتلك أول مرة دنت منى أو دنوت منها الى هذا الحد ، وكان شعرها محلولا ومرسلا من فوق كتفها على صدرها فجعلت أدنى أنفى منه وأشمه ، ولم يكن معطراً ولكنى كنت أجد له ريحاً طيبة ، فلحظت ذلك منى وسألتنى وقد جذبت يدها قليلا :

« ما هذا الذى تفعله ؟ »

قلت : إنى أشمك .

قالت : تشمنى ؟ إنك أوقح من رأيت من غلمان حارتنا .

قلت : لست أقصد أن أكون وقحاً ولكن لشعرك رائحة طيبة فهل من بأس أن أشمه ؟

قالت : كلا ، لا تفعل .

قلت : لقد فعلت وانتهى الامر .

وبعد قليل قلت :

« هل تعلمين ان على وجهك وشعرك سبعة — ثمانية نجوم؟ »

فابتسمت ولم ترد ، فقلت ومددت أصبعى وأشرت به :

« حقيقة . نجمان على شعرك ، هنا وهنا ، ونجم على جبينك هنا — ثلاثة — ونجم فى كل عين ، خمسة . ونجم على طرف أنفك — ستة — واثنان على فمك هنا وهنا — ثمانية نجوم — ليت معك مرآة ! إذن لأريتك ! »

فضحكت ، وكنا قد صرنا الى الأرض الناشفة فعدنا الى وسط الطريق وسرنا ولكن يدها بقيت فى يدى ، حتى بلغنا بيتها ، فشكرتنى ودخلت

ومنذ ذلك اليوم صار لهذه الفتاة تأثير فى نفسى ، لاأعرف له مشبهاً ، ولم يخطر لى قط انه راجع الى أية عاطفة خارجة عن حياتى العادية فكنت كلما رأيتها أشعر بشىء من الدهشة ويعاودنى الحنين الى شمها — أعنى شم شعرها —

ولقد عرفت بعد ذلك فتيات كثيرات أجمل منها وأفتن ، ولكنى أخطأت فيهن جميعاً ذلك العبق الذى كانت تستريح اليه حواسى والذى كان يفتر لى جسمى ، وكانت تغيب عنى أسبوعا وأسبوعين فأنساها وإن كنت أحياناً أرى صورتها ماثلة فى ذهنى وفى أحلامى ، وصرت أحب أن أراها وهى لا ترانى ، لأرنو

اليها مطمئناً وأرى شفتيها الدقيقتين تفتران عن ابتسامة خفيفة وأشتاق أن أساعدها وأحميها كما ساعدتها يوم تخطيت بها تلك الأرض المبللة ، وأن أسمعها تشكرنى كما شكرتنى يومئذ .

وقلت على الأيام ملاعبتى للصبيان ، وكثرت وقفاتى معها على بابها ، ثم غابت أسابيع فى قرية فيها بعض أقاربها فشعرت بوحشة لا عهد لى بمثلها وثقلت الحياة على كاهل صبرى فذهبت أنا أيضاً الى أقاربى وقضيت عندهم شهراً كان من أطيب مامر بى وأحلى وأندى . ثم عدت ولقيتها مساء يوم على باب دارها كعادتها وكانت مطرقة وفى يمناها عود من ثمر الحناء تقطع بيسراها اكمامه التى لم تنور وتفركها بأصابعها وتدعها تسقط الى الارض فدنوت منها وهى لا تحسنى ، ووقفت برهة ثم قلت بصوت خفيض مرتعش : « فيم تفكرين ؟ »

فلم ترفع عينها ولم تولنى نظرة واحدة وقالت وهى مطرقة وأصابعها لا تزال تعبث بما فى يدها :

« فيم أفكر ؟ فى مثل هذا — فى النوار الاصفر تحت اكمامه الخضر ، فى سحائب التراب على الطريق ، فى الاغيصان الصغيرة الخضراء النابتة على فروع الشجر ، فى الاطيار تلقط القش وخيوط الصوف التى ألقيها لها لتحملها بمناقيرها وتصنع منها أعشاشها ، فى ألوان الفجر على الأشجار والحقول الندية الملتمعة ، فى الأمساء الصافية الحالية بالنجوم المرتعشة ، فى الغدران يترقرق فيها الماء

حول قدمى المدلاتين — (ثم رفعت وجهها إلى وقالت :) فى هذا أفكر »

وكانت تتكلم بصوت خافت متئد متزن النبرات كأنما تحدث نفسها، فدهشت، لا بل بهت، ووقفت صامتاً كأنما استل لسانى من حلقى، وظللنا كذلك لا أدرى كم، ثم قالت: «والآن سأدخل.»

ولكنها كانت بالذى يهم بالدخول أشبه فوجد لسانى الكلام وقلت : « لاتذهبى هكذا بغير تحية أو سلام »

فوقفت مكانها وأمالت رأسها ووضعت يدها فى خصرها كأن هنا شيئاً يؤلمها فدنوت منها فاذا بلامعة عينيها تنطفىء ووميضهما يخبو ، فقلت :

« ماذا كنت تقولين ؟ »

فلم تجبنى ومدت يدها إلى بثمر الحناء فقلت :

«هذا حسن . تحية طيبة . سأذكرك بها دائماً . والآن ماذا كنت تقولين ؟ أثم شىء يحزنك ؟»

قالت : « أى شىء يحزننى ؟ لاشىء ! »

قلت : « إنى أرى هذا فى عينيك ، فى وميضهما ثم فى إنطفاء هذا اللمعان »

قالت وعلى ثغرها الدقيق طيف ابتسامة: «ماذا ترى فى عينى؟»

قلت، وكأنى ألهمت الألفاظ : «أرى كأنك كنت تنتظرين شيئاً ثم لم يحدث »

فقالت : « فقط ؟ لا أكثر ؟ »

قلت : « فقط . وأريد أن أعرف ما هو ؟ ولماذا ؟ »

فأطلقت ضحكة صغيرة فضية النبرات وبدا عليها شيء من السرور وفتحت ذراعيها وقالت : « كلا! لعل قلبي أطل من عيني هنيهة كما يطل الطفل من النافذة ثم عاد إلى مكانه .. »

فابتسمت وقد زدت بها إعجابا وقلت : « وماذا أراد قلبك أن يرى من نافذة عينيك ؟ »

قالت : « ألا تطل أحياناً من النافذة فتبصر طفلا يعدو وهو مسرور ؟ »

قلت : « نعم »

قالت : « كذلك القلب أحياناً يجرى أمام العين فرحا مسروراً أظن قلبي فعل ذلك حين رأيت عيني تلمع . »

ثم بعد ثانية أو اثنتين :

« والآن دعني أدخل . ان معك هذه الزهرة فاحفظها »

ومضت عني وتركتني واقفاً كالأبله لا أكاد أفقه من كل ما قالت شيئاً وإن كنت قد وعيته كما لم أع في حياتي شيئاً غيره .

***

ومر عام وكنا قد انتقلنا إلى بيت آخر فمررت بدارها يوما بعد الغروب وكان الباب مواربا فرأيتها تسقي أصص الزهر في فناء البيت فوقفت أتأملها لحظة وهي تقبل الورد والأزاهير بعد

سقيها ورشها ، ثم دخلت فى رفق وهمست باسمها فلم تسمع ، فأعدت الهمس فانتبهت كالمذعورة .

وقالت « إبراهيم؟ » وكررت ذلك .

فاقتربت منها وقلت : « نعم . هل أفزعتك ؟ »

ووقفت — شفتاها مفترقتان ووجهها تصبغه الحمرة من أثر المفاجأة . ولم أكن أعرف ماذا ساقنى إليها سوى أنى اشتقت أن أراها وأن أقف معها لحظة أحادثها ، وقالت :

« لقد كان يجب أن أفزع ، فما سمعتك تدخل ولكن من الغريب أنك خطرت ببالى وأنا أسقى هذه الاصص »

فكدت أصيح لا أدرى لماذا ، وقلت : « أصحيح هذا ؟ إنه يسرنى » .

فقالت: « لم أكن أفكر فيك تفكيراً يسرك (وضحكت) لقد كنت ساخطة عليك ».

فضحكت مثلها وقلت : « ماذا جنى هذا الشقى ياترى ؟ »

فقالت : « لست ساخطة لأنك فعلت شيئاً . لقد كنا عندكم أنا ووالدتى وأختى وقضينا النهار كله هناك تقريباً ، وأنت لا أثر لك فى البيت ولا يدرى أحد أين ذهبت . وفى وسعك أن تتصور مللى بين السيدات العجائز » .

فضحكت مرة أخرى وقلت : « إنى أفضل أن ألقاك هنا . ويسرنى أن أجدك وحدك »

قالت : « وهل كنت واثقاً أنك ستلقانى هنا ؟ »

قلت : « كلا ! »

قالت : « إذن لماذا جئت الآن ؟ »

قلت : « لا أعلم . اشتقت أن أراك لا أدرى لماذا جئت »

ولم أكن أكذب ، فما كنت أستطيع أن أعلل الشعور الذى يدفعنى اليها ، ولاجرى ببالى أن أعلله ولكنى بهذا التصريح وبالسكون الذى تلاه شعرت انى دنوت خطوة من الحقيقة المجهولة ، أو هكذا يخيل لى الآن ، وانعقد لسانى فسكت وأعديتها فسكتت مثلى ، وأحسسنا — كلانا فيما أظن — كأن هناك شيئاً جديداً يخفق به الجو ، شيئاً لا يناله إدراك ولا يرقى اليه العقل ، غير أنه محسوس كالطيب يحمله النسيم .

ومر بخديها طيف من الحمرة ما جاء حتى ذهب ففتحت عليها عينى وأتأرتها النظر فتراجعت خطوة وهى تقول : « ينبغى أن أدخل » فوقفت أرمقها وهى تدور لتمضى عنى ، ثم كأنما انشق عنى سور فاندفعت اليها ووقفت الى جانبها وجعلت أدير لسانى فى حلقى بلا كلام وقلبى يخفق وتناولت يدها وذهبت بها الى الباب حيث ظللنا برهة صامتين . ثم صاحت : « يدى . يدى . ستحطمها »

فانتبهت وأطلقت كفها وأسفت ، فقالت بصوت عذب :

« دعنى أدخل بالله »

فتناولت يدها مرة أخرى وغدت أطلب أن تغفر لى إيذاءها يديها وقلت إنى لا أستطيع أن أعود إذا لم تقل لى أنها ليست

حانقة على . وكنت أحس أصابعها تتحرك فى كفى فقالت :

« كيف أحنق ؟ لقد نسيت . دعنى أدخل »

قلت : وأعود مرة أخرى لأراك

قالت « نعم »

قلت : ولا تعجلين بالدخول .

قالت : كلا ، دعنى الآن .

***

ولكنى لم أعد لا اليوم التالى ولا الاسبوع التالى ولا الشهر التالى ، لسبب طبيعى جداً هو انى لم أكد أصير إلى آخر الطريق حتى برز لى شاب من الظلام وصاح بى: «ماذا كنت تفعل هناك؟»

قلت « أين ؟ »

قال : «هناك» وأومأ برأسه وبإبهامه الى بيتها .

قلت : كنت أزورهم .

قال : تزورهم ؟ هيه ؟ تزورهم ؟ سأعلمك أن تزورهم مرة أخرى ودفعنى فى صدرى فانطرحت على الأرض ، وقمت ألعنه وأسبه فأقبل علىّ ودق رأسى بجمع يده فهويت إلى الأرض على ركبتى وركلنى برجله وذهب وهو يتوعدنى إذا فكرت فى العود إلى هذا الطريق .

ولم أكن أعرف هذا الوحش ولا وقعت عينى عليه من قبل ، ولم أفهم — إلى هذه الساعة — سر هذا العدوان ، فرجعت إلى البيت بصدر موجع ورأس يكاد يكون مهشما وعظام مرضوضة ، ولزمت الفراش أياما وخفت بعدها أن أرجع ، ثم صرت أستحيي

أن القاها مخافة أن تسألني عن سر غيبتي ، أو أن تكون قد علمت به.

وبعد شهور عدت من المدرسة يوما فاذا هي ووالدتها في بيتنا ، ففرحت وخجلت ، ولما سلمت كانت يدى ترتجف ، وعيني إلى الأرض ، وذهبت إلى غرفتي فادركتني في الصالة وقالت : « خذ » وناولتني عوداً من ثمر الحناء ، فاخذته في صمت وأدنيته من أنفي ووقفت أشمه وأشمه وقد غاض معين الكلام وانقطع عني مدده . فلما رأت صمتي وارتباكي قالت :

« سنذهب الى الريف . »

فأنطقتني هذه المباغتة وقلت : ستذهبين ؟ وكم تظلين هناك ؟

قالت : « عاما . أتستكثر ذلك ؟ »

قلت : « بالطبع إني آسف جداً »

قالت : ولكنك لا تزال تهرب مني »

فأغضيت عن هذه الملاحظة ، وسألتها : « وماذا تنوين أن تصنعي هناك طول العام ؟ »

قالت : ياله من سؤال ! وكيف يعنيك ان تعرف ! »

وضحكت فجلت ضحكتها صدرى ونفت مخاوفي ونظرت اليها معجباً وأحسست بالدم يتدفق في عروقي ، وبأنفاسي تسرع وحمل إلى النسيم الواني طيب شعرها فمددت يدى إلى كتفها ، وكانت شفتاها مفترقتين وعيناها في عيني ، وصدرها يكاد يلمسني فألفيت نفسي أنحني عليها وألمس شفتيها بفمي . فصار وجهها كالجمرة . ولكنها لم تتحرك ولا تكلمت ، ودار رأسي كالمخمور فتقهقرت

خطوة ، وهى واقفة كالتمثال وما أظنها كانت تتنفس أو تفكر ، فما رأيت صدرها يتحرك ، أو أجفانها تختلج — كلا ! لاشيء إلا هذا الجمر فى خديها ينبئ أنها حية .

وأفاقت ثم أصعدت زفرة كأنما كنت لطمتها ولم أقبلها ، ثم هتفت بى ، فأسرعت اليها وأخذت يديها فى كفى ثم رفعتهما وقبلتهما ، وقلت لها : «أغاضبة أنت؟؟ قولى أنك لست غاضبة» فاجابتنى بهزة خفيفة لرأسها ، فقلت :

« لست غاضبة . أعلم ذلك ، وإلا فما قبلتك ، تكلمى »

فقالت همساً : « دعنى أذهب . إنى خائفة »

فقلت : «انك جميلة . جميلة » وانهلت على يديها مرة أخرى ألثمها ظهراً وبطناً ثم سحبت يديها ببطء ، ووضعتهما على صدرها وقالت وهى تتلعثم وترتجف : «قل لى ماهذا ؟»

قلت : ووضعت يدى على يدها فوق صدرها « هذا ؟ ألا تعلمين ؟ أنه الحب ! »

فتنهدت ، وأرخت يديها وتركتهما يهويان وقالت :

« سأذكرك دائماً » .

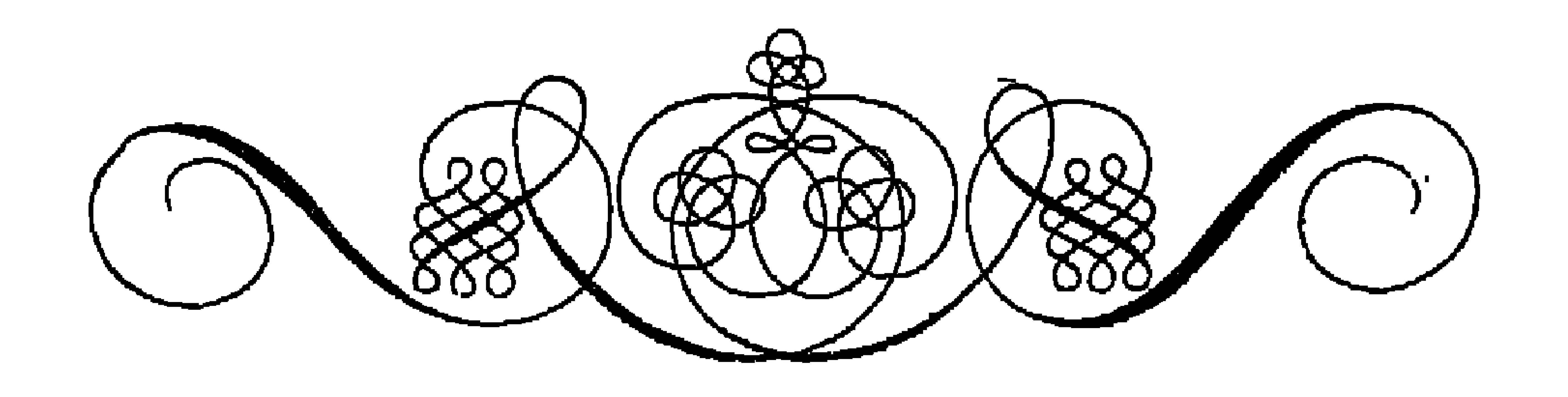
قلت . « كلا ! هذا لايكفى . سيحبك غيرى »

ولم تكد شفتاها تفترقان ، وهمست كأنما تتنفس :

« سأحبك دائماً » .

***

وكان هذا آخر لقاء فقد زوجوها فى الريف .



سعد زغلول

لم يكن «سعد باشا» رجلا عاديا . فما من العادى أن يستولى فرد ، كائنـا من كان ، على هوى أمة بأسرها . وما يجود الزمن كل يوم — لا ولا كل جيل — بمثل هذه الشخصيات الفذة الممتازة، التي يكون تأثيرها أقرب إلى السحر وأشبه به، شخصيات ترضى عنها أو تسخط عليهـا ، وتقرها على سلوكها أو تنكره ، وتحمد سيرتها أو تعيبها ، وتحبها أو تكرهها ، ولكنه لا يسعك الا أن تجعل بالك اليها والا أن تدخلها فى حسابك ، وهل يسع الانسان أن يغض عن الزوبعة ويتجاهل الاعصار ويسير كان الجو رخاء والنسيم عليل ؟ ؟ والناس لا يلتفتون إلى الجو الساكن ويقضون الوقت ولا يخطر لهم أمره أو يجرى فى بالهم ذكره ، وتجىء العاصفة فتثنى اليها كل فكر ، ويشيع الاحساس بها فى كل نفس ، وسيان أخرج المرء وكابد متاعبها أم احتمى منها فى داره وأوصد فى وجهها أبوابه ونوافذه . فان الشعور بها موجود

على الحالين . كذلك « سعد باشا » كان كالزوبعة المنطلقة والاعصار الثائر ، لا هو بالهادىء ولا الناس فى شغل عنه الا به .

وأظهر ما امتاز به سعد باشا حيويته الدافقة التى لا ينضب معينها ولا يجف ينبوعها ولا تنال منها شيخوخة أو مرض . وكنت تراه مضعضع الجسم ، مهدود الكيان ، مبهور الانفاس ، لا يكاد يقوى على الكلام . ثم ما هو الا أن يقع الحادث أو تلد الليالى شيئا حتى ينتفض الضعيف قويا ، والمهدود مستويا ، ويعلو اللسان وتشرق ديباجة البيان ، وترتفع النفس الى المستوى الذى يتطلبه الحادث ، فلم يكن أكذب من فتوره ولا أخدع من كلاله وسكونه ، ولم يكن أخيب ممن يغتر منه بذلك أو يعول عليه ، وما كان أشبه ساعات ذلك الكلال بالسكينة تسود الحومة على حين يستعد الجيشان للقاء الحامى الدامى تطيح فيه الرؤوس وتفيض النفوس وتتناثر الاشلاء . وقد فتر بعده الجو السياسى لانه هو كان روح العاصفة فيه

وكان « سعد باشا » زعيما بفطرته ، اجتمعت له كل العناصر اللازمة لذلك وفى جملتها الخطابة الشعبية . ومن هنا كانت كل خطبه من ذلك الضرب الذى يروعك أن تسمعه ، ولكن قراءته تتركك حيث كنت . ذلك أن مرجع التأثير لم يكن الى العبارة الملقاة بل إلى شخصية القائل نفسه ، ولقد كان غيره يلقى أحيانا كلامه اذا أقعده هو المرض عن الالقاء ، فكان الناس يخطئون

فى القائل وفى المقول كل ما يشب النفس ويورى الصدر . وكان حبه للحديث وولعه بالحوار والمناقشة مرجعهما إلى مواهبه الخطابية من ناحية وإلى ما فطر عليه وخلق له من حب النضال. ولم يكن فيما أعلم يحب الحديث لذاته بل لانه يستريح إلى الشعور بقوة عارضته وقدرته على المحاجة ولباقته فيها ، فهو مناضل حتى فى مجالسه الخاصة وفى أوقات السمر والراحة

وكان أعلم الناس بالجماهير وأقدرهم على قيادها. ولم يكن علمه هذا مكتسباً أو مستفادا بالمران فكلنا يحتك بها ويعالجها وقل منا من يقبض على زمامها ، وإنما كان علمه هذا بالغريزة . وكان الواحد منا يراه بين الجمهور ويسمعه يخاطبه فيخيل اليه أنه يشهد تمثيلا معداً لا عفو فيه ، من شدة التوفيق فى وقوع كل إشارة وإيماءة وكلمة فى موضعها الذى لا تنبو فيه . فالنكتة فى أوانها حين يبلغ توتر الأعصاب غايته فتحتاج إلى ما يرخيها ويخفف وطأة الشعور الضاغط عليها ، والكلمة الملتهبة المجنحة تجىء حين تستعد الرؤوس للطيران والعواطف للجموح وحين تموج الدنيا فى رأى العين فلا محل للمنطق ولا قدرة لأحد على التفكير الهادىء المنتظم . وكثيراً ما سمعت « سعد باشا » يخطب فأعيانى أن أعرف : أهو الذى يخلق بخطبته روح الجمهور الذى يسمعه ويوجد الجو له ويقود عواطفه ويجريها فى المجارى التى يختارها لها، أم روح الجمهور هى التى تطبع خطبه بطابعها وتضع عليها

مياسمها ؟ ! ذلك أنه لم يكن أتم من التطابق بين « سعد باشا » وهو يخطب وبين عواطف الجمهور من سامعيه . فلم يكن أحد يدرى أهو يحس روح الجماعة وتعديه عواطفها فتتأثر بذلك لهجته وعبارته ، أم هو الذى يصب هذه العواطف فى النفوس ويجيشها فى الصدور . والأرجح أن التفاعل متبادل . وليس بعجيب أن الناس كانوا حيال « سعد باشا » معسكرين : واحداً معه وآخر يناهضه ، بل العجيب ألا يكون الأمر كذلك ذلك أن الشخصية الممتازة تزحم الناس وتطلب لنفسها الصدر والمكان الأول ، وإذ كانت بطبيعتها لاتنى عن الطلب ولا تكف عن المزاحمة فهى تخلق المشادة حولها وتوجد المدافعة لها ، وأقل من ذلك استدعاء للعجب أن ترى من كانوا خصوم سعد باشا ، أول المعترفين له بقوة الشخصية . ذلك أن الرأى أو العمل أو الخطة أو السياسة مسألة يرجع الحكم على صوابها أو خطئها إلى التقدير الشخصى ، فمن المعقول أن يختلف الناس فى رأى وأن تتعدد مذاهبهم إلى الغاية الواحدة . ولكن شخصية المرء شىء آخر منفصل عن الرأى والسيرة ، والناس يحسونها ويشعرون بوقعها على حدة ، أعنى من غير أن يكون لهذا الوقع ارتباط بتقدير الرأى أوالعمل. والرأى أوالعمل شىء يمكن العدول عنه إلى سواه وقد تعده اليوم صوابا ويجىء الغد فيكشف لك عما كان خافياً عليك من الزغل أوالضعف فيه. وليست كذلك الشخصية فانها وقع مطرد وتأثير مستمر وتيار لا ينقطع أو تنفد مصادره.

عودة الحاج [1]

كان الليل ساجياً والجو سجسجاً . وكان أحدنا يدخن فى سكون ولا يكاد يصغى إلى ما تهضب به ألسنتنا فى كل موضوع، كأنما كنا بعض ما فى الحديقة من زرع ، وكان معروفا بيننا بأنه لم يقل قط كلمة سخيفة ولم يأت فى حياته عملا رشيداً . وكان يحتقرنا جميعاً أو يتظاهر بذلك على الأصح. وكنا نحن نحبه ونحتمله . واقترح بعضنا أن يقص كل منا أغرب ما سمع أو شهد. وجاء دورى فشرعت أروى لهم حكاية رجل سيء الحظ ، فلما توسطتها وبلغت أمتع ما فيها ، إذا بصاحبنا يدفع يده إلى جيبه ويخرج سيجارة ويشعلها فى تؤدة وينفخ الدخان على مهل ثم يقول — دون أن يلتفت الينا أو يعبأ بحكايتى ومقاطعتى فيها كأنما كنت قطة لا يضيره أن يتكلم وهى « تقرأ » ولا يحتاج أن يقول لها « هس » أو « بس » : —

« لم أكن أرتاح إلى رؤيتها ، فقد كانت هزيلة صفراء كثيرة السهوم ، وكانت الحجرة التى تقيم فيها — وهى كل مسكنها — رحيبة جداً وفيها فراش نومها وجلوسها وأدوات طعامها وشرابها،

(١) هما قصتان متداخلتان احداهما ممصرة والأخرى حقيقية لاخيال فيها .

فهى غرفة نوم وغرفة استقبال ومطبخ وحمام : كل أولئك فى مكان واحد . ولم أكن أذهب اليها إلا بعد أن تغرب الشمس وتنتشر على الأرض غيابات الطفل . وكانت أمى تبعثنى اليها كل مساء « بطبق » فيه خليط من الأطعمة التى تقبل الخلط ، فأمضى اليها بالطبق والرغيف أو الرغيفين ملفوفاً ذلك كله فى ورقة أو منشفة ، ولم تكن الطرق مضاءة فى ذلك الوقت ولا كان كل صاحب منزل يعلق على بابه مصباحا ، وقد يطفىء الهواء مصباحا هنا وآخر هناك فكان أكثر ما يكون الطريق مظلما ، وكنت أنا فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وكنت أستثقل هذه المهمة وأتمنى لو أراحتنى أمى منها وعهدت فيها إلى سواى من اخوتى ، ولكنهم كانوا أصغر منى ، ولست أدرى من كان يقوم بذلك قبل أن تكلفنيه أمى ! وكانت أمى — كلما جن الليل — تومىء إلى فأتبعها فى صمت فتناولنى « الرسالة » وتدفعنى إلى السلم وأصبعها على فمها ، فكان هذا التكتم حتى عن إخوتى وجدتى يوقع فى روعى أن على تبعة جسيمة ، وكنا يومئذ فقراء لا يزيد دخلنا فى الشهر على جنيهين منها أجرة المسكن ، فكأنما كانت أمى تخاف أن يطلع إخوتى وجدتى على السر فيظنوا بها أنها تبدد قوتنا ونحن أحوج اليه وأولى به ، وكنت إذا بلغت حجرتها أفتح الباب برفق وأتسلل وأقصد إلى « الصفة » فأضع ما معى وأهم بالخروج دون أن أجترىء على النظر إلى وجهها الشاحب ،

ولكنها كانت تناديني بصوت ضعيف إلا رقيق عذب وتقول « ياحبيبي تعال إلى أسلم عليك»

فتسرى فى بدنى رعدة وأدنو منها بخطى ثقيلة وعينى إلى الأرض ، فتمد ذراعيها كالتى تريد أن تضمنى إلى صدرها فيجمد الدم فى عروقى،ويطوف برأسى ما سمعت عن «المتزرة» وهى امرأة كلها شوك تعانق المرء فتخرق جسمه فيموت.فأقف على قيد خطوة منها كالذى أثقلت رجلاه بكتل من الحديد فتناجينى بصوت يفيض حناناً ويذوب رقة وعطفاً :

« يا حبيبى . انظر إلى ا هات لى خدك أقبله قبلة واحدة . بل آخذها من عينك » وتمد ذراعها فتتناول يدى وتسحبنى فى رفق كأنما كنت بناء من ورق اللعب تحاذر أن ينهار ويتهافت، فأقتلع رجلا وأحطو بها منحنياً خطو الذى يخاف أن يسقط على وجهه ، وتتلقانى بذراعها الأخرى وإذا أنا محطوط على الأرض أمامها أو على حجرها وجانبى اليها ورأسى مثنى على صدرى ، وهى تقبلنى وتمسح لى شعرى وخدى وتدعولى ، ثم أقوم كالمذنب النائب » .

ونفض السيجارة ورفعها إلى فمه ورأسه مسند إلى ظهر الكرسى وصمت كأنما انتهت القصة أو كأنما كان يحدث نفسه ، وغاظنى أن أرى شفتيه مطبقتين أطباق من لا ينوى أن يفتحهما مرة أخرى ، ولكننا كنا أعرف به من أن نحاول استدراجه

بالسؤال ، فالتفتّ إلى إخوانى وشرعت أتمم حكايتى من حيث قطعها على فقلت :

« وأخيراً صار الرجل سائق عربة نقل يجرها حمار بليد غريب الأطوار شاذ الأحوال ، وكان الرجل كما قلت لكم لا يكاد يعرف الا عمله فاذا أتمه مضى إلى بيته ولزمه حتى الصباح وإذا اشتهى مجالسة الناس برز إلى الحارة وقعد على العتبة ومضى يحادث جيرانه كل على عتبته وقد يجتمعون كلهم فى مكان واحد نساء ورجالا وأطفالا حتى يثقل النعاس رؤوسهم وجفونهم فيتفرقوا وينفض المجلس : ولكن الحمار كما أسلفت القول كان شاذاً وكان لا ينفك يقف فى طريقه أمام حانات « البوظه » كأنما يسمر إلى الأرض فلا الجر ينفع ولا الضرب يؤثر فيه . فقد كان سائقه القديم شريباً سكيراً وكان يدعه على باب « البوظة » ويدخل فيقضى الساعة والساعتين . ومن هنا اعتاد الحمار هذه الوقفات وتشبث بها وأصر عليها ، وكان الغلمان يحيطون بصاحبنا وهو يعالج أن يقنع حماره بمواصلة المسير ويعاونونه ويشتركون معه فى ضربه ووخزه ويجدون فى ذلك لذة عظيمة ومتعة كبيرة . ثم صار صاحبنا يتعب من هذا الجهاد العقيم ويضجر وانتهى إلى اليأس من حمل حماره على إيثار أى سلوك آخر معقول فاصبح مضطراً أن يلتمس الراحة وأن ينظر حماره ريثما يشبع من الوقوف ، وكان فى أول الأمر يقعد على العربة أو على عتبة أو غير ذلك إذا

كانت العربة موقرة ثم صار يدخل البوظة وألف ذلك على الأيام بفضل حماره العنيد الذى . . . »

ولما بلغت إلى هنا فى حكايتى استأنف صاحبنا قصته غير حافل بشعورى أو عابىء بمقاطعتى فقال :

« ولما كثرت روحاتى هذه اليها فى الظلام خفت وطأة الشعور الأول، شعور التكره والنفور من النظر إلى هذا الجثمان المتهضم والوجه الشاحب وبدأت أشتاق أن أعرف عنها شيئاً . ولكن ممن ؟ لقد كانت فى هيئة أمى حين تدعوننى اليها بإيماءتها الخفية للذهاب ، ما يصدنى عن السؤال ،ولم أكن ألقى أحداً فى حجرة هذه المرأة ولم يكن ذلك لقلة فى الجيران فقد كان المنزل واسع الفناء كثير الحجرات وفى كل واحدة أسرة كاملة ، ولا مر ما كنت أجد حجرة تلك المرأة خالية فى تلك الساعة إلا من هيكلها المشرف على الفناء .

ثم فوجئت يوما بحادث لم أفهمه . ذلك أن أمى أعدت ألواناً شتى من الطعام وأمرتنى أن أحملها اليها واحداً واحداً وأوصتنى أن أهش لها وأن أظهر أمامها الجذل والسرور ، فوجمت من فرط الدهشة حتى لعجزت أن أسألها عن السر فى ذلك ، ولما صرت إلى البيت الذى هى فيه صارت دهشتى ذهولا فقد وجدت فناء البيت تخفق فيه رايات حمراء وكرات كبيرة ما بين صفراء وحمراء وخضراء كتلك التى تعلق فى الأعراس ، وألفيت سكان

البيت رائحين غادين خارجين داخلين وكلهم فى أزهى ثيابهم وآنق حللهم . وفى ناحيـة من الفناء امرأتان بينهما طشت كبير عميق تذيبان فيه سكرا وتلونانه، وإلى جانبهما عدد عظيم من الأكواب تغسلها فتاة صغيرة شقراء . ودخلت الحجرة فاذا هى غاصة بالنساء من كل سن ، والمرأة الشاحبة الهزيلة بينهن فى حلة بنفسجية مطرزة ، وأحسبها قديمة فقد كانت واسعة ، وكان لونهـا باهتاً فى كثير من المواضع ، وهى مزينة كالتى توشك أن تستقبل زوجها لأول دخوله بها ، فارتددت خارجا ووضعت الأطباق حيث لمحت كثيراً من أمثالها ، وهممت بالانصراف ولـكنها كانت قد أبصرتنى فخرجت إلى تعدو وجذبتنى اليها ووجهها يطفر بشراً وقالت :

« تعال يا حبيبى ! لا تخرج ! لقد كنت أنتظرك وأدور بعينى طول النهار عليك . وهذا أنت . ابق معى . سيأتى بعد ساعتين . هذا خطابه »

وأخرجت من بين ثدييها خطابا مصفر اللون ومدت به كفها الى وقالت :

« اقرأه : انك كابنى . أسمعنى مافيه . تعالى يا . . . تعالين جميعا ! الى هنا ! الى هنا ! أسمعن الخطاب فانه سيقرؤه لـكن ! أليس يقول فيه انه قادم الى مصر اليوم ؟ لقد حسب لنا الشيخ محمد الوقت ونحن نعلم أنه سيكون عندنا بعد ساعتين ... أليس كذلك يا أخت ؟ »

فقالت المرأة المعنية بالكلام وخطفت من يدى الخطاب قبل أن أقرأه« بعد ساعتين تماما وقد اعددنا كل شيء! الرايات معلقة والشربات مهيأ ، وقد ذهب الشيخ على لاحضار الطبل والمزمار . . تعالى انظرى من النافذة . . . »

وجرتها الى النافذة فاطلت منها ثم رجعت الى فسحبتنى معها لتريني الزينة ، ولم أعد أطيق السكوت بين هذه الالغاز فرفعت اليها وجهى وقلت « من هو ؟ »

فالقت الى نظرة عطف مشوب بالعتب وقالت : «أليس اسمه فى الخطاب ؟ زوجى . زوجى ! لقد خرج يحج منذ ثلاثة شهور وسيعود الليلة . تالله ما كان أطول هذه الشهور الثلاثة ! لكانما كانت سنين عدة ! وكاد يفنينى الشوق اليه والتلهف عليه . ولكنه يعود الليلة . الليلة . بعد ساعتين . لا بل ساعة ونصف الم تمض نصف ساعة يا اختى ؟ »

— « تقريبا . يجب أن نطعم الضيوف » واكلوا جميعا

ثم نادت المدعوة «يا اختى» فتاة فغابت قليلا وعادت ومعها أخرى وهما تحملان اكواب « الشربات » ودارتا بها على النساء فشربن واقبلن على المرأة يهنئنها ويحادثنها . ودخلت فتاة أخرى بكوب فسقت المرأة . ثم انطلقن يتلاغطن . . . » وصمت مرة أخرى وأمسك عن الكلام ومضى يدخن ، فضقت ذرعا بهذا الشذوذ ، وصحت به :

« اما أن تتم قصتك أو أتم أنا قصتى . أما هـذا التناوب فسخافة لا تطاق ! »

فوضع السيجارة على فمه ثم زم شفتيه وأرسل الدخان خيطا طويلا ثم قال بهدوء :

« أتم أنت حكايتك اذا شئت . »

وأشاح بوجهه عنا ، ومحانا من الوجود ، ورفع عينه الى السماء وراح يتأملها كانما نسينا فكدت أجن ، ولـكنى كظمت غيظى ، وعدت الى قصتى :

« وصار الرجل سكيرا مدمنا . وجاء عيد الاضحى فجاد عليه صاحب العربات بقطعة من اللحم تزن نحو رطل ونصف رطل فحملها معه ملفوفة فى ورقة ومضى إلى «البوظة» على عادته فشرب حتى صدر ، وكانت ورقة اللحم على الارض فانحنى ليتناولها حين هم بالخروج فلمست يده «قرعة» فهوت مقلوبة على الورقة فأتلفتها وأصاب اللحم من « البوظة » رشاش ليس بالقليل فبحث عن ورقة أخرى ليلفه فيها،وأنه ليطويه إذا أفلت اللحم وبلغ الارض وتعفر بترابها ، ثم غسله ولفه وخرج ، وخطر له فى الطريق أن اللحم الذى صبت عليه البوظة وتعفر بالتراب لعله لم يعد صالحا للاكل فخير له أن يتخلص منه. ولكن كيف ؟ أيلقيه على الارض؟ أم يهديه الى صاحب أو جار ؟ أم يبيعه ؟ وقال لنفسه بل أبيعه وأشترى بثمنه ما أحب ، وأكون أنا الرابح على كل حال . ولكن

لمن يبيعه ؟؟ هذا هو المشكل. ان الناس كلهم قد اشتروا كفايتهم من اللحم فلم يبق الا القصابون ! ولما تذكر القصابين سره أنهم خطروا له فأغذ السير وفى نيته أن يميل الى أول حانوت يراه فى طريقه ، ولم يعر الامر شيئا من التفكير ووقف بحانوت أول قصاب وكان غاصا بالخراف والعجول ، ودنا من الرجل ودفع له اللفافة وقال أتشترى هذا ؟ فكشف القصاب الورق وأخرج اللحم ونظر منه الى صاحبه ثم رماه به فى وجهه ! فدهش الرجل ورمى نظرة الى لحمه الملقى على الارض ثم اندفع الى القصاب وأمسك بتلابيبه فاجتمع الناس حولهما وحالوا بينهما وسألوا القصاب فقال : « هذا المغفل يأتى الى ليبيعنى لحما ! أأعمى هو ؟ . . . »

وهنا استأنف صاحبى قصته بلا استئذان أو اعتذار :

« ودنت ساعة الاياب المرقوب فازداد قلب المرأة خفقا ووجهها شحوبا على الرغم من المساحيق ، وبدا عليها الاضطراب وصارت أصابعها ترتجف وشفتاها تختلجان ، ولم تعد تطيق الجلوس فى مكان واحد دقيقة واحدة ،وجعلت تنتقل من نافذة الى نافذة . وتمط عنقها وتشب عن الارض ،ثم ثبت انسان عينها وامتقع لونها جدا واسترخى ذراعاها الى جانبها وخيل الى أنها ستسقط الى الارض ميتة لا حراك بها، وكان حولها نسوة كأنهن لا يرينها ولكنهن تلقينها حين خارت وحملنها الى فراشها ثم خرجن على أطراف أصابعهن وأغلقن الباب عليها وانصرفن الى حجراتهن . . .

« ودنوت أنا من احداهن فى فناء الدار وقات لها :

« ألا تنتظرن حتى تستقبلن الرجل الآيب ؟ » فهزت رأسها وقالت :

« يا بنى لقد مات منذ عشر سنين ! »

قلت : « مات ؟ ماذا تعنين ؟ »

قالت : لقد خرج الى الحج وكان هذا الخطاب آخر ماوردها منه وفيه ينبئها بالموعد الذى يؤوب فيه ، ولكنه أصيب بالكوليرا ومات . فجنت . وفى كل عام وفى اليوم الذى كان ينبغى أن يعود فيه تعاودها هذه اللوثة فنحف بها ونجاريها ، ونعلق هذه الرايات ونبل السكر ولكنا نضع فى كوبها منوما ، ولولا ذلك لا حسبها كانت الآن تكون فى عداد الموتى . وفى الصباح تفيق وينصرف عنها السوء ويعود لها عقلها بقية العام ... »

فقلت « مسكينة . . . »

قالت « نعم . عد يا بنى الى بيتك وأمك »

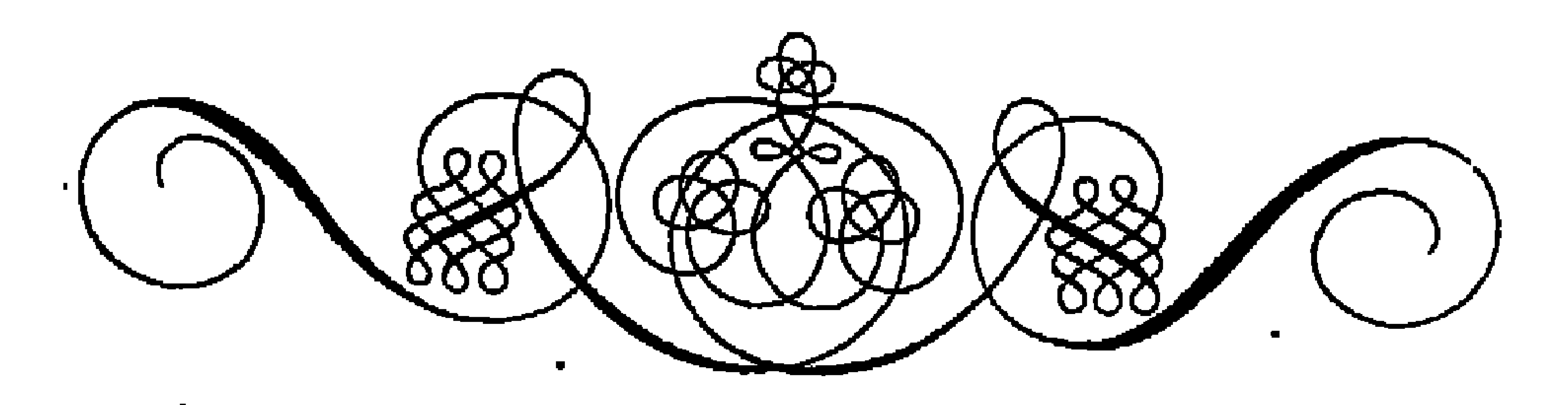
ثم وقف . ورمى السيجارة وداسها بقدمه وقال :

« كانت هذه المرأة المسكينة ضرة أمى »

وهز رأسه وانصرف دون أن يحيينا . ولما صار عند الباب سمعناه يقول :

« أما لو كنت أعرف هذا يومئذ ! .

ثم لم نسمع شيئا .



فى سنة ٢٢٣٠

كان « س » من أشد المطالبين بحقوق « الرجال » حماسة ومن ألحهم فى السعى وأصبرهم عليه ، وكان كثيرا ما يمزج الجد بالهزل ويبطن عمله بالفكاهة فكان لهذا محبوبا من الرجال غير مبغوض من النساء ولا ثقيل الظل عليهن ،وان كان نشاطه كثيرا ما عكر عليهن صفوهن وأزعجهن من حيث لا يحتسبن . وكلت أعصابه قدتعبت على الأيام فاحتاج إلى الطب ، وكانت النساء هن الاخصائيات فى أمراض الرجال ، وليس بين الرجال من يوثق به فى هذا الباب ، فاستخار الله فى اللجوء إلى طبيبة مشهورة ، وضحك وهو يحمل نفسه على هذا المكروه ويعجب لسخر الأقدار التى تكرهه على استشارة واحدة من ذلك الجنس الذى يتمرد عليه ويثور ، وقال : لا بأس أن للضرورة أحكامها ، ولأخلق بهذا أن يعلمنا نحن معاشر الرجال أن من العبث أن نطالب بحقوقنا التى كانت لنا والتى غصبتنا المرأة إياها إذا كنا ندعها تسبقنا ونحن قاعدون .

ولما لم يجد بدا من استشارة هـذه الطبيبة البارعة دق لها التليفون فضربت له موعدا للزيارة ثم قصد فى الساعة المعينة إلى عيادتها وكانت فى « منشاة الحورية » على مقربة من ضاحية « البساتين » ، وقعد ينتظر دوره فى حجرة أنيقة محلات بطائفة متخيرة من أبدع ما أخرجت يد « الفنانات » فى ذلك العصر ، وقد قام فى أحد الأركان تمثال رجل عار ، راعه منه الاقتدار على إبراز معانى اللين والمرونة ، وإن كان من حجر صلد ، فدنا منه وجعل يلمسه ويتحسسه ويمر كفه عليه ، وصوب نظره إلى القاعدة فقرأ عليها هـذا الاسم محفورا فيها « من صنع المثالة قادرية . م . ا ، و . ع ، ل . د ، سنة ٢١١٥ . »

فقال لنفسه « تحفة نادرة » ثم ابتسم وقد شـاع فى نفسه الاحساس بما انطوى عليه الموقف كله من سخر ، وركبه شيطانه الخبيث فأشرقت ديبـاجة وجهه ولمعت عيناه وشعر فى هـذه اللحظة كأن له من القوة ما يكفى لمصارعة فيل هائج .

وفتح الباب وأطل وجه دقيق المعارف وبرز أصبع حلو يومىء اليه أن تعـال . ومضت به إلى حجرة أخرى آنق أثاثا وألطف ألوانا وتركته وأغلقت الباب عليه ، ولم يكن ثم غيره فوقف يتأمل المقاعد والصور وألوان قوس الغمام فيها ، ويعجب أهو فى معرض فنون أم فى عيادة طبية ، وانتقى مقعدا وانطرح عليه وانطلق يحلم وعلى فمه ابتسامة خبيثة معقودة .

وفتح باب آخر لم يره حين دخل ولم يفطن إلى وجوده وهو يدير عينه فى الحجرة ودخلت منه فتـاة مشرقة صفحة البشر وبوجنتيها ألوان الربيع وهى فى حلة كأنهـا من خمائل الورد . فوثب إلى رجليه كأنما كان قد شكه أحد بحديد محمى ، ثم ملك نفسه وابتسم ، وأشارت اليه الفتاة فجلس وجلست ، ولبثا برهة يجيل كل منهما فى وجه صاحبه عينه — لا هو يستحى ولا هى تنهزم. وتحركت شفتاه كالذى يهم بالكلام فرفعت أصبعها وقالت:

« لا تعجل . الوقت فسيح »

فقال « الحق أقول لك أن العجلة لم تكن قط من صفاتى . ولست أخشى من نفسى التعجل وإنما أخاف منك الضجر »

فابتسمت ، وعجب هو لهذا الثغر الصغير جـداً كيف يتسع للالفاظ تند عنه ؟ وماذا ترى تصنع حين تأكل ؟؟ أيفتنون لها الطعام كما يفعلون حين يقوتون العصافير والدجاج ؟؟ وراح يفكر فى هذا وأشباهه وهو ينظر اليها بعين الحالم وأخيرا قالت له .

« والآن ؟ »

قال « ألم أقل لك ؟ » وابتسم

قالت « إنك ظريف . . . »

قال « عفوا ، ولـكنى الآن لا أرى داعيـا للاسراع إلى مقابلة الدكتورة »

قالت « انك معها الآن » وانحنت .

فقال مداعبا « معها ؟ قولى كلا ما غير هـذا ! لقد كنت أتخيلها عجوزا شمطاء ! »

فلم تزد على أن ضحكت ومضى هو فى كلامه فقال « لقد عرفت الآن سر شهرتك »

قالت وقد اهتمت « ما هو ؟ »

قال « هو شىء أحسه ولا أعرف كيف أصفه . لقد شفيت مما جئت له »

قالت « وماذا كنت تشكو قبل أن تجىء ؟ »

قال « أشكو ؟ أشكو ؟ يا إلهى ماذا أقول ؟ (وتكلف الجد وزوى ما بين عينيه كالذى يجهد ذاكرته) هنا (ووضع يده على صدره) نار أحسها موقدة ... »

وبدا عليها الجد وهى تصغى اليه وقالت وهى متجهمة « نعم » .

فنظر اليها وقال « أرجو منك يا سيدتى ألا تبخلى على بالبشر »

فرفعت حاجبيها مستغربة فقال

« نعم فما يحسن التعبيس وجه يضحك فيه الجمال . كنت أقول إنى أحس هنا ناراً موقدة ، وكثيراً ما أخشى على ثيابى أن تذهب طعاما لها ! (فضحكت) ثم إنى أشكو اليك لصاً يسرق النوم من جفونى كلما أضوانى الليل . . »

فقاطعته « وينام بدلا منك . . »

قال « ما أظن إلا أن الأمر كما تصفين . »

قالت « ألا تعرفه ؟ »

قال « كما أعرفك »

فاحمر وجهها فلم يعبأ بذلك وقال « وما أكثر ما أخاطبه فى لجمة الظلام وأناجيه وأناشده أن يرد ما سلبنيه ويعيد إلى ما بزنيه، وليتك تسمعينى فى ذلك الوقت ! إذن لأكبرت بلاغتى وفصاحتى . وقد يتجسم لى وهمى فأتخيل كأنى فى مثل هذه الحجرة الرائعة وأرى مثل هذه الستائر المخملية مسدلة على النوافذ حتى السقف يبدو لى كهذا السقف متوهج اللون متأجج الصبغة بل حتى أرضها أراها بلورية كهذه تأخذ عينى فى صقالها سحباً من الأضواء ، برتقالية حينا ، وأحياناً قرمزية وطوراً متقدة كالجمر وتارة خضراء متموجة كعباب اليم ، وقد أسمع — وإن كنت لا أرى — موسيقى نائحة باكية تمزق الصدر كأن لأنغامها أظافر ومخالب ، موسيقى صارخة ، موسيقى معذبة كأنها صاعدة من قرارة الجحيم ، وتزدحم الغرفة فيما يصور لى الخيال فأرى نساء ورجالا متخاصرين يخطرون بين طيات الستائر، وفى وجوههم كلال الشهوة . ويخيل إلى أنى ملتق فى حضن واحدة كغيرى وأنى بعض هذه الأشباح المسحورة ، وتعول الموسيقى فى مسمعى اعوال الأرواح المعذبة فأثب عن فراشى وأهم بأن أدع نفسى لفتنة الألوان والأصوات والأضواء ثم أفيق وإذا بى أحتضن عامود السرير البارد ! »

وكانت يدها وهو يتكلم ، على رسغه ، وعينه فى عينها وهو يكاد يأكلها بلحظه ، فلما سكت لم تدع له يده ، ووضع هو كفه الأخرى على كفها واضطجع فى مقعده وأغمض عينيه وانتقلت إلى جانبه ولم تسحب يدها ، ووضعت كفها الأخرى على صدره وكان يعلو ويهبط ، وأسندته إلى صدرها ولم يكن أقل اضطرابا ، وظلا هكذا دقائق ثم فتح عينه وأجالها فى الغرفة فسألته :

« كيف أنت الآن ؟ »

قال « أحسب كأن عروق ستنفجر بالدماء »

قالت « إبق كما أنت »

فاغمض عينيه مرة أخرى وترك رأسه على صدرها ، ثم نهض لجأة وهو يقول

« دعينى . دعينى . إنك ساحرة . »

فأمسكت برأسه بين كفيها وقالت له بصوت متهدج . « لست مريضاً . إنه الحب » فاندفعت يداه إلى كتفيها وقال :

« ليس كل حب »

فلم تنح يديه عن جسمها وقالت « أستطيع أن أدرك ذلك »

قال « إذن ماذا تصفين »

قالت « إذهب الآن ولكن عد غداً فى الساعة التاسعة مساء »

***

قالت له — فى اليوم الثانى — ونأت بجسمها عنه قليلا :

« ألست جائعاً ؟ »

قال « لا أدرى سوى أنى أحبك . »

ولثم جيدها باحترام وخشوع كأنما كان يصلى .

فقالت « تحسن إذ تفعل ذلك . فلن تجد مثل حبى عند سواى . سأفسد عليك النساء جميعاً . »

قال « لقد أفسدتهن على وانتهى الأمر. ولست أريد سواك . »

قالت « ألست معك ؟ »

قال « ولكن أريد أن يدوم هذا »

قالت بضجر « طبعاً طبعاً » وضغطت زر الجرس فدخلت الخادمة فلم يتحركا لدخولها فأمرتها باعداد الطعام .

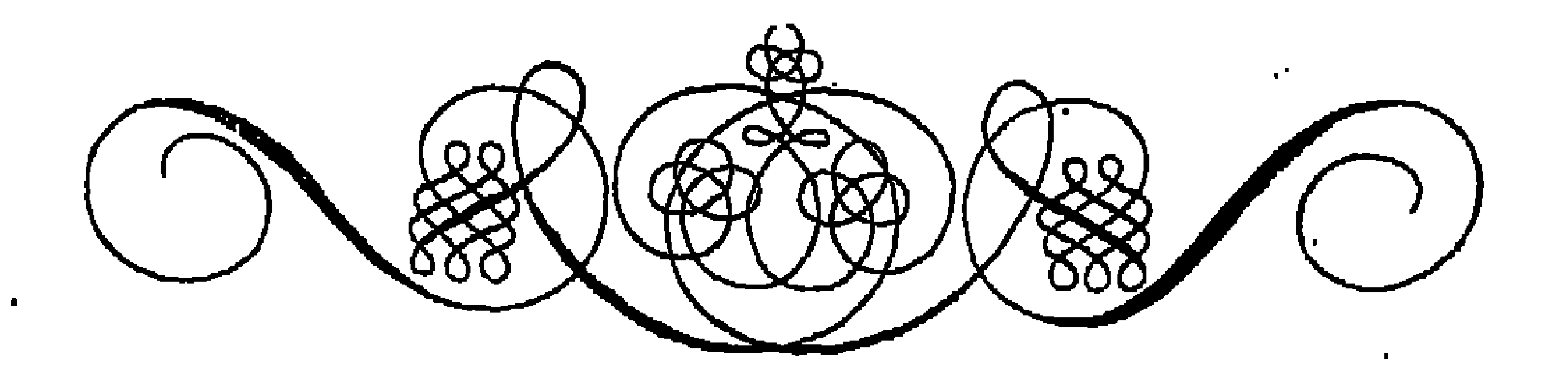
وسألته : « أين تسكن »

فاخبرها . فقالت « سأبعث من يجىء إليك بثيابك . »

فسألها « ولكن لماذا تريديننى أنا ؟ ماذا أستطيع أن أفيدك أنا ؟ »

فقالت وهى تلثمه : « إنك تحسن التقبيل . لقد عرفت هذا من شفتيك أول ما رأيتك . ولم يخب ظنى . وأنا أريد أن تستحوذ على . أن تملكنى . أن أكون جارية لك . عبدة رق . هذا ما أبغى . . . ثم أشبع منك وأضجر فألقيك وأبتغى لى سيداً سواك »

• ◄◊► •



سحر مجرب

لا أدرى كيف أسوق للقارىء حكاية هـذه التجربة بحيث لا يتوهم أنى أهزل ، ولـكن الذى أدريه أنه قل بين الصبيان من اتفق له ما اتفق لى من التجارب ، ولو أنه قدر لى أن أكتب تاريخ حداثتى . . . ولـكنى هزيل الصبر ، ولعل مما هو حقيق أن يعين القارىء على فهم البواعث التى تغرى حدثا فى مثل سنى يومئذ ، بما فعلت ، أن أقول له انى نشأت نشأة دينية ، وأعنى بذلك أن أهلى من أهل الورع والتقوى والصلاح وأن بيتنا كان فى فنائه مصلى ، أو مسجد صغير ، عامر أبدا بالمصلين ليلا ونهارا . والآن الى القصة بعد هذا التمهيد الوجيز الذى لم أر منه بدا اتقاء لسوء التأويل ونفيا لمظنة المغالاة .

عثرت فى باكورة حياتى على أوراق مخطوطة استولت على هواى واستبدت بخاطرى ، وقد اعتقدت يومئذ أنها بخط جدى لابى وأن كنت لا أذكره إلا كالحالم فقد مات فى طفولتى ولحق

به أبي، ولم أره قط يكتب ولا ثبت عندى أن هذا خطه ،وكنت أكبر جدى وأجل ذكراه لغير سبب سوى ما كان تلاميذه يحدثوننى به عن علمه وتبحره وتقواه ، فقوى اعتقادى هذا ثقتى بما فى الاوراق وثبت يقينى فيها ، وكان من عادتى أن أقضى الصيف فى « الامام » حيث تقيم طائفة كبيرة من أهلى ، وكان لاحدهم حمار مليح القسمات لين الخطوات فكنت أركبه حين أشاء الى حيث أشاء ، وأبى الحظ إلا أن أعشق . وما أكثر من عشقت فى تلك السنوات الاولى من شبابى . ولقد صدق أخى « العقاد » حين قال يصفنى بعد ذلك بأعوام عدة :

أنت فى مصر دائم التهميد بين حب عفا ، وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه وطريف كاليانع الأملود
أنت كالطير ربما شالت الطير عن الايك وهو جم الورود

ولم يكن الحظ يلقينى الا على كل فتاة « عسيرة البذل » كما يقول الشاعر — ولا أذكر من هو — فحرت ماذا أصنع ، ولم أر أن أستشير أحدا من الصبيان الذين كنت أختلط بهم لانى كنت أراهم دونى معرفة ، ثم تذكرت الورقات التى كنت أعتقد أنها مما خلف جدى فوجدت فيها « فائدتين » طرت بهما فرحا ، فاما الاولى فتقول

« من أراد الارتقاء الى الدرجات العلا فليتطهر ظاهرا وباطنا وليصم سبعة أيام وليواظب دبر كل صلاة على هذه الاسماء —

ياهادى ياخبير يامتين ياعلام الغيوب — ألف مرة ، فانه يكشف له عن كنوز الارض وينادى بها فى ضمائر الناس ، وأن أكمل ثلاثة أسابيع فى الرياضة كشف له عن ملكوت السموات والارض باذن الله تعالى ، وأما صفتها للاخفاء فهى أن تقرأ الآية الشريفة سبعمائة وخمسين مرة ثم تقول باسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم — إلى قوله فهم لا يبصرون — ثلاثمائة وثلاث عشرة مرة ، فلو اجتمع أهل السموات والارض على أن يبصروك لم يقدروا ويعمى الله أبصارهم عنك فلا يرونك ، وأكثر من ذلك أن يحول الله قلوبهم اليك بالرأفة والمحبة والعطف »

وكان هذا كل ما فى الورقة ، فاما كنوز الارض فلم يكن يعنينى منها يومذاك شيء ، فا كان لى هوى الا مع تلك الفتاة ، أو رغبة الا فى إلانة قلبها . وأما الكشف عن ملكوت السموات والارض فشيء مرعب خفت أن أعالجه فأصعق . وأما الاختفاء عن الابصار فهذا ماسحرنى واستولى على لبى ، وتشبث به خيالى ألست أستطع اذا فزت بذلك ووفقت اليه ببركة هذه الفائدة ، أن أكون أدنى شيء الى الفتاة وأن أراها ولا ترانى وأتملى بحسنها وقربها وهى ذاهلة عنى لاتحسنى ؟؟

ألست أستطيع بفضل هذا السر الجليل أن أكون حيث أشاء وأن أفعل ما بدالى بلا تثريب ؟ لا ترانى الابصار ؟؟ وافرحتاه ! أى شيء أتقى بعد ذلك ؟ أى شيء يصعب على ؟ تالله

ماأولانى بحمد الله على أن كان لى مثل هذا الجد الصالح ؟

ولكن الورقة لم تذكر الآية التى لا بد من تلاوتها سبعمائة وخمسين مرة ! فماذا أصنع ؟ حرت قليلا ولكنى كنت فتى عمليا فتناولت المصحف الشريف وقلبته حتى وقعت عينى على قوله تعالى « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » وأقنعت نفسى بأن كلام الله كله فى منزلة واحدة من الجلال وأن كل آية ككل اية ، وليست كلمة منه بأفضل من أخرى غيرها . وما أرى حتى الان الا أن منطقى كان مستقيما وتفكيرى كان سليما سديدا .

وأما « الفائدة » الثانية فتقول ما يأتى :

« ومن أراد أقبال الناس عليه بالمحبة والهيبة والتعظيم له فى قلوبهم فعليه بقراءة هذه الآية الشريفة عقب الصلاة أربعمائة وخمسين مرة ثم يتلو بعدها هذا الدعاء الجليل سبعة آلاف مرة فانه يحصل له من الخير مالا تدركه الافهام وهى هذه « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ياألله ثلاثا يارب ثلاثا يارحمن ثلاثاً يارحيم ثلاثا لا تكلنى الى نفسى فى حفظ ما ملكتنى مما أنت أعلم به منى وامددنى برقيقة من رقائق اسمك الحفيظ الذى حفظت به نظام الموجودات واكسنى بدرع من كفايتك وقلدنى سيفا من نصرك وحمايتك وتوجنى بتاج عزك ومهابتك وكرمك وركبنى مركب النجاة فى

المحيا وبعد الممات بحق خجش ثطخذ وامددنى برقيقة من رقائق اسمك القهار تدفع عنى بها من أرادنى بسوء من جميع المؤذيات وتولنى بولاية العز يخضع لى بها كل جبار عنيد وشيطان مريد ياالله ياعزيز ياجبار ثلاثا ألق على من زينتك ومن محبتك وكرامتك ومن حضرة ربوبيتك ماتبهر به العقول وتذل به النفوس وتخضع له الرقاب وترق له الابصار وتبدد دونه الافكار ويصغر له كل متكبر جبار وتسخر له كل ملك قهار يا الله يا ملك ياعزيز ياجبار ثلاثا يا الله ياواحد ياأحد ياقهار ثلاثا اللهم سخر لى جميع خلقك كما سخرت البحر لسيدنا موسى عليه السلام ولين لى قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام فانهم لا ينطقون الا باذنك . نواصيهم فى قبضتك وقلوبهم فى يدك تصرفها كيف شئت يامقلب القلوب ثلاثا يا علام الغيوب ثلاثا أطفأت غضبهم بلا اله الا الله استجلبت محبتهم بسيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رأينه أكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا أن هـذا الا ملك كريم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . ويكون ذلك فى جوف الليل ثم تصلى ست ركعات فاذا سلمت تقرأ الدعاء تسعمائة وخمسين مرة وفى حال قراءتك للدعاء تصور المطلوب بين عينيك كانك تجذبه اليك فاذا وفيت العدد المطلوب تقرأ هذه الآيات سبعا وهى « يحبونهم كحب الله والذين امنوا أشد حباً لله . لو أنفقت مافى الارض جميعا

ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » تقرأ هـذه الايات سبعا وأنت فى كل ذلك تبخر بالجاوى واللبان الذكر » .

ثم طويت الورق ووضعته فى جيبى وخرجت إلى السوق وقد بدأت أشعر كأنى فوق الناس أو كأنى أمشى فى السحاب ، واشتريت قليلا من الجاوى واللبان والفحم ، وعرجت على الفتاة وأنا عائد إلى البيت فلما رأتنى أحمل هذه الأشياء ضحكت وقالت « أتراك صرت خادما ؟ مبروك إنشاء الله ! » فألقيت اليها نظرة عطف مشوبة بالكبر وقلت ملغزاً ويدى على جيبى « أترين هذا الجبل ؟ ؟ — وأشرت اليه — سيحمل الليل اليك صوتاً منه » ومضيت غير عابىء بضحكها وسخرها .

ولا أطيل . خلوت بقية النهار إلى نفسى حتى فرغت مما فرضت « الفائدة الأولى » ثم قمت بعد العصر بقليل وفى اعتقادى أنى قد اختفيت عن أعين الناس وقصدت إلى حيث الحمار مقيد ففككت القيد وأسرجته وألجمته ووضعت عليه « خرجا » فيه ما يلزمنى من مواد البخور وأعواد الثقاب والفحم وسبحة وموقداً صغيراً وإبريقاً فيه ماء ، ووضعت فوق « الخرج » فروة صغيرة لجلوسى ثم ركبت الحمار بعد أن صار أعلى من البغل وسرت به بين المساكن إلى الجبل ، وكان الناس قد ألفوا منى هذا الخروج فلم يلتفت إلى أحد ولكنى كنت أعجب لهم فى ذلك اليوم كيف لا

يدهشهم أن يروا الحمار سائراً وحده وليس عليه راكب ؟؟
وعللت ذلك بأن السر الذى أخفانى عن أبصارهم لا بد أن يكون قد امتد إلى الحمار أيضاً فتوارى مثلى عن العيون ، فجعلت أتلفت يميناً وشمالا وأضحك. واتفق انى مررت بشيخ كليل البصر وإن كان فيما ترى العين سليم النظر — ولكننى لم أكن أعرف ذلك — فحككت له أنفى بسبابتى ورحت أخرج له لسانى وأمط شفتى تحت أنفى فلما لم أجده التفت إلى صفقت من فرط الجذل ففزع الرجل قليلا فقلت لنفسى سمع الصوت ولم ير الشخص فحق له أن يفزع ، فطغى بى الطرب ولم أعد أطيق هذه المشية الهينة فضربت الحمار فمضى يعدو بى إلى الجبل. وهناك فى سفحه ترجلت وربطته إلى حجر على باب كهف صغير كنا — وأعنى غلمان الحى — نقيل فيه إذا حميت الشمس وفرشت الفروة فى جوف الغار ووضعت الفحم فى الموقد وأشعلت فيه النار وتركته للريح قليلا لتضرمه ، واستلقيت أنا على الأرض وانطلقت أفكر فيما سيكون من أمر الفتاة معى بعد أن أفرغ من العمل ، وجمح بى الخيال فبدا لى كأنى فى التهليل والتسبيح والدعاء فجاءنى رجل وجلس عن يمينى لم أر فى زمانى أحسن منه ولا أطيب ريحاً فقلت من أنت ؟ قال أنا الخضر جئتك حباً فى الله عز وجل وعندى هدية أريد أن أهديها اليك فقلت وما هى قال هى أن تقرأ . . فقاطعته وقلت كفى كفى ! لقد بح صوتى من القراءة فدع هذا وهات لى...

ولم يعجبني هذا ، فاختصرت الحكاية وجعلت الخضر يقوم مغضباً وأنا لا أعبأ شيئاً ، وعدلت بالخيال إلى سواه فتصورت الفتاة تهب من النوم مذعورة تلهج باسمي ويهتف بها هاتف أن اخرجي الى مكان كذا في سفح الجبل . فتخرج في ظلام الليل حافية عارية الرأس في ثياب النوم ولا تزال تجرى حتى تبلغ الكهف دامية القدمين من وخز الحصى والرمال ، فتقف بالباب وتناديني فأدع القراءة وأصيح من ؟

فتقول فلانة (أو لعل الأحسن أن تقول حبيبتك فلانة)

فأقول « ماذا يجيء بك إلى هنا »

فتقول « لم أطق صبراً . . »

بل أجعلها تقول « رأيتك في نومي ناظراً إلى محدقا في فجذبتني عيناك ولم أزل أسير على ضوئها حتى جئت اليك »

فأقسو عليها وانتصف لنفسي منها وأؤدبها غير أدب الصباح حين تهكمت على وهنأتني بأن صرت خادما وأقول لها « ارجعي من حيث جئت فما بي حاجة اليك »

فتجثو على ركبتيها وتتوسل إلى أن أدعها ولو عند قدمي . . .

ولم يعجبني أن أتصورها تجثو عند قدمي فقد كنت رقيق القلب مهذب النفس فغيرت الموقف وأعتضت منه آخر فشرعت أغازلها تلميحاً لا تصريحاً وأصف لها جارة دميمة الساقين ضخمة القدمين فتسألني ماذا تعني ؟

فأقول أعنى أن للساق الجميلة سحرها

فتقول « ولكن ماذا يعنيك من ساق هذه الفتاة ؟ »

فاقول « أنها تفسد على اليوم كله حين أراها وأخشى جداً أن تفسد لى صحتى »

فتقول « أنك مضحك ولست أفهمك »

فاقول « تصورى هذه الفتاة التى سلبتها الطبيعة كل مفاتن المرأة ، كيف يكون ألمها لو أن الشهرة (المودة) كانت تقضى بأن تكون ثياب النساء قصيرة ؟ كيف تجرؤ أن تبدى ساقيها لعيون الناس ؟ »

ثم أطرق برهة فتردنى اليها بسؤالها عنى ماذا بى ؟

فأقول « بى هذه الطبيعة التى تأبى إلا أن تخرج إلى الدنيا مثل هذا التشويه »

فتقول « لعل الفتاة سعيدة لا تفطن إلى عيبها »

فأقول « سعيدة ؟ أتكونين أنت سعيدة لو كنت مثلها ؟ »

فتسرى فى بدنها رعدة خفيفة فأكر عليها بقولى

« بأى حق تمنحك الطبيعة كل ما حبتك من المفاتن وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذى ضنت به عليها ؟ »

فتتهلل أسارير وجهها وتقول « ولكن لعلها لا تكترث لذلك »

فاقول جادا « أين الفتاة التى لا تحفل أن تكون دميمة ؟ تصورى مالا بد أن يصيبها من الالم حين تراك ؟ »

فترتفع عينها الى وتحدق فى وجهى لتقرأ فيه المعنى الذى أرمى اليه والذى يغالطها صوتى فى حقيقته وأمضى أنا فى حديثى فأقول .

« أن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها ...» فتقاطعنى وتقول « ولكن ما ذنبى أنا حتى تحطم لى رأسى بها ؟ »

فأقول معتذرا « هل ضايقتك بحديثها ؟ انى آسف . ولكن هذه المناظر تستفز نفسى وتثير سخطى فأحس كأنى وحش »

فتقول « ألا تظن أنك قد تفيء إلى السكينة والهدوء إذا تركتك وحدك ؟ »

فأنهض وأقول « لا لا لا ! يا لها من فكرة شنيعة ! »

فتقول « إنك على ما يظهر . . . »

فأقاطعها وأقول « سأنسى ساقيها ولا أفكر إلا . . . »

ولكنى لم أشأ أن أعترف لها حتى فى الخيال ولم يرقنى هذا الحوار وما فيه من اللف والدوران فغيرت المنظر وحولت الصحراء المحيطة بي جنة فيحاء حافلة بالشجر حالية بالزهر وتصورت نفسى أطوف فيها باحثاً عن فتاتى ، ثم إذا بى أرى ثوبها فأمضى اليها على أطراف أصابعى ، فيعترضنى حاجز من النبات الكثيف الشائك فيخطر لى أن أتسلل اليها حتى أصير إلى جانبها قبل أن تشعر بى ولكن النبات المتشابك تحيط بى أشواكه وأنا أعالج ختراقها وتسمعنى هى فتدير وجهها إلى ناحيتى فترانى فتصبغ

الحمرة وجهها — من عنقها إلى جبينها — ويعبث النسيم بشعرها ويطيره على وجهها وكتفيها فتمسحه بكفها وترده عن جبينها ثم تقف ويداها فى جانبي خصرها وشفتاها مفترقتان من المفاجأة وكأنها تحاول أن تعلق أنفاسها مخافة أن تذهب زفرة بالسرور المباغت الذى شاع فى كيانها حين رأتنى .

ثم تهمس « ابر . . . اهيم »

فأصيح وأنا أعالج الفكاك من أسر الأشواك « لقد سجنت هنا »

فتقول « لقد قلت لى أنك لن تأتى قبل أسبوعين ثم هذا أنت »

فأقول « إذا لم تأتى إلى نجدتى فلن أجىء اليك قبل عام »

فتضحك ويسرها ما أنا فيه فأصيح بها « مهلا ريثما أتخلص »

وأحاول الخلاص فأزيد تورطاً فتصفق وقد أمتعها منظر اعتقالى وتقول « لن تنفذ أبداً من هنا . فارجع . ذلك خير وأسرع »

وتخزني شوكة فأهيب بها أن تنجدنى فتضحك وتقول « إن منظرك ظريف . ليت هنا مرآة فترى نفسك فيها . »

فأضحك من نفسى وأقول لها « إنى لم أمش كل هذه المسافة ليكون منظرى مضحكا . وما أرانى أستطيع الآن أن أحرك أصبعاً فان الشوك يتلقانى من كل ناحية . بالله نحى هذه الشوكة عن ذقنى فانها تكاد تقتلنى . »

وترى الدم سائلا من ذقنى فيدركها العطف علىّ فتنحى الشوك بيديها عن وجهى وتضغطه بكفيها فيدنو وجهها منى وتصبح

عيني في عينها وأنفي قبالة أنفها وفمها أمام فمي ويقرأ كل منا في عيني صاحبه من آيات الحب ما لا سبيل إلى العبارة عنه ، ثم يدور رأسها وتهيم نظرتها وتهوى على فمي بفمها ويحط في هذه الساعة عصيفير على غصن وينطلق يغرد . . . .

ولما بلغت إلى هنا فيما تخيلت وبينما أنا أتذوق القبلة التي تصورتها مطبوعة على فمي ، نهق الحمار فانتبهت مذعوراً من حلمي اللذيذ ومحيت الصور الفاتنة وانتسخت الخيالات الأنيقة المعجبة وردني الصوت المنكر إلى ما جئت من أجله فقمت متثاقلا وفرشت الفروة في أرض الكهف وأطلقت البخور في الموقد وقمت إلى الصلاة ثم شرعت في التلاوة على نحو ما حتمت الورقة

***

ولا أدري ماذا أصابني ، ولكن الذي أدريه أني ظللت أقرأ وأقرأ في جوف الليل وأطلق بخور الجاوي واللبان ثم لم أعد أعي شيئاً . ولما قمت في الصباح كان ضوء الشمس قد غمر السهل والجبل فخرجت من الغار وأنا لا أفهم وأدرت عيني في كسل وفتور ثم تذكرت الحمار فجمد دمي في عروقي وأحسست العرق البارد يتصبب . أين ذهب ؟ وكيف يفك القيد عن أرجله ويحل اللجام عن الصخرة ؟

ولا خير في الاطالة ، فقد سرقه اللصوص وأنا ملقى كالجثة في جوف الغار ، بارك الله في جدي وفوائده !

رجل ساذج

كان لنا — ونحن شبان — زميل ساذج لم يكن يعرف سوانا . كأنما قد هبط علينا من السماء . وكان الواحد منا يذكر معارفه أو يصف القرية التى هو منها ، أو يقص علينا مغامراته ، أو يحدثنا بمعاشقه ، ويعرض ما عسى أن يكون محتفظاً به من مثل خصلة شعر أو منديل أو نحو ذلك ، وهو واجم كئيب لا يفتح فمه . وكان يخشى ركوب الماء ويجزع من اضطراب الزورق على متنه ، ولا يزال يتنقل من جانب إلى جانب كلما مال ، ولقد اضطررنا مرة أن نشده إلى سارية الزورق لنستريح من قلقه . وأنشدته مرة قصيدة ابن الرومى التى يصف فيها ما لقى فى البر والبحر من التباريح والمخاوف . فلما بلغت قوله :

ولم لا ولو ألقيت فيه وصخرة ... لوافيت منه القعر أول راسب؟

ولم أتعلم قط من ذى سباحة ... سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب

وأيسر إشفاقى من الماء أننى ... أمر به فى الكوز مر المجانب

وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب؟

صفق وتحمس وقال إن هذا « رجل عاقل » وبعد أيام انتحى بى ناحية وسألنى : أتعرف ابن الرومى ؟ فلم أعجب لسؤاله وقلت « نعم » قال « أرجو منك أن تعرفنى به » فوعدته أن أفعل . وشاورت إخوانى كيف أصنع ؟ ولما اتفقنا قدمناه إلى شيخ وقور كث اللحية إلا أنه أحمق سريع الغضب وفى وسع القارىء أن يتصور ما وقع. وبحسبى أن أقول أن صاحبنا خرج من مجلسه وقد أصابه عكاز الشيخ على رأسه وركبته ، وكانت إصابة الركبة أوجع فلبث يظلع أياما . وسألته بعدها عن ابن الرومى كيف وجده ؟ فكاد الدمع يطفر من عينه وقال فى سذاجة محببة إلا أنها مغرية «الحق على: إن التهجم على كبار الناس سوء أدب»

ولست أنسى ما حييت حادثة أردنا أن نركبه بالدعابة فيها فأفضت إلى مأساة أو ما هو فى حكمها . ذلك أننا أوهمناه أن فتاة رومية تعمل فى «بار» شهير، تحبه ، وألححنا عليه بذلك حتى صدق ، وكنا نجيئه بقليل من الفستق أو الشكولاتة ونزعم ذلك هدية منها اليه ، وكان هو حييا يخجل حتى من مخاطبة الأغراب من الرجال فكيف بالنساء ؟ فجعل يغشى هذا «البار» فى الساعة التى يكون على الفتاة أن تجلس فيها إلى «الكيس» ويجلس بحيث يراها ولكن على بعد ، فندعه أحيانا ، وأحيانا أخرى نلحق به ونثنى على جمالها ونتنافس فى وصف مفاتنها ، فيشرق وجهه وتومض عيناه ، كأنما يحمدمنا الثناء على حسن اختياره ! ونروح

نسأله « ألا ترى كيف تغمز بعينها ؟ أليس من الواجب أن تبادلها غمزة عين بغمزة عين ؟ » فيفعل المسكين ونجاهد نحن أن نخترع سبباً لما ننفجر به من الضحك. وما زلنا نحثه على استعمال أشارات الحب حتى صار يدخل البار ومعه طاقة من شتى الورود ما بين حمراء — رمز الحب المتقد — وبيضاء عنوان الطهر والعفاف ، وصفراء للدلالة على ما أصاره اليه السهر والبكاء واللهفة ، من ذبول لونه فيجلس ويشرع يخاطبها بهذه اللغة الدقيقة ، حتى إذا فرغ من هذا المعجم استعمل المناديل يضعها على فمه أو يكفكف بها الدمع الموهوم أو يفركها بين أصابعه . ولم يعد يبالينا أو يحفل غيرنا من الناس. فقد اضطرمت نفسه ولعجه حب هذه الفتاة.

والحق أقول أننا أسفنا لما تبينا ما صار إليه الأمر ، ولكنا لم نستطع أن نثنيه عن هذيان قلبه ، وكان كما قلت ساذجا جداً حيياً إلى درجة تفسد الحياة وتحيل الانتفاع بها من المستحيلات . ولكن الحب خلق شخصاً جديداً وأسعفت السذاجة الحب وأعانته على الاستبداد بنفسه ، وما راعني يوما إلا هذا المسكين يعود إلى ويقول « هنئنى ! »

قلت وقد طاف برأسي أن المستحيل قد وقع: «بأى شىء ؟»

قال « لقد خطبتها ! »

قلت ولم أستطع أن أخفى دهشتى « خطبتها ؟ أنت ؟ »

قال « نعم ، ألست أحبها »

فلم أدر أأهنئه أم أرثى له، وخرجت من هذه الحيرة باجتناب الاثنين جميعاً وسألته « ومتى الزواج إن شاء الله ؟ »

فطال وجهه فجأة وحاول أن يبتسم ولكنه لم يوفق إلا إلى جعل وجهه مفزعا وقال « لن أتزوجها » وكأنما أحس أن الأمر يحتاج إلى إيضاح فزاد على ذلك « أعنى أنى أظن أنه خير لى ولها ألا أتزوجها »

فلم أرنى زدت بإيضاحه إلا حيرة فصحت به بلهجة قاسية :

« إنك مغفل »

فأدهشنى أن تنبسط أسارير وجهه وأن يقول « نعم أنا مغفل . ولم أكن قط أجهل ذلك . وأنت تعلم أنى أحبها وقد خاطبتها فى الزواج . فكانت كريمة جداً مؤدبة جداً . لم ترفض ولكنها لم تقبل أيضاً . والحق أقول يا صاحبى. لم يسعنى إلا أن أصارحها بأنى . . بأنى كما تعلم . . مغفل ، وأنها تكون أسعد لو تزوجت رجلا . . . رجلا . . . غير مغفل . . . يجب — ما دمت أحبها — أن أقدم خيرها على رغبتى . . أليس كذلك ؟ . أن من حقها على وواجبى نحوها أن أراعى مصلحتها . . . قل لى أليس هذا . . . خيراً ؟ »

فلم أقل شيئاً ومضيت عنه ، لا ساخطاً ولا ناقماً ، ولكن فائض النفس جائش الصدر . وماذا عسى أن أقول لهذا المسكين الطيب القلب ؟؟

ولم نضحك بعدها منه أبداً .

أسْرَ الليل

كيف تدخن دون أن تستأذنني ؟

وماذا أصنع إذا تلطفت فطلبت الاذن فتخابثت ورفضت ؟

ولكنى لا أحب رائحة الدخان . . .

وأنا أستريح إلى التدخين .

إذن لا اتفاق بيننا . . .

فى هذا .

أهذا كل شىء ؟ ؟

كل شىء

قالها بلهجة اليقين الجازم وبلا تلعثم أو تردد ، ومضى يدخن فى سكينة ، كأنما كان قولها أنها لا تحب رائحة الدخان معناه أنها تحب أن تنقلب الغرفة أنبوبة مدخنة ، ولم يكن بطبيعته جافى النفس أو بليد الشعور ولكن قسوة الحياة عليه علمته قلة المبالاة ، فكان ربما هم بالشىء يعرف أن فيه خيراً له أو لسواه، أو أنه الذى يتقاضاه إياه إدراكه لواجبه ودقة الشعور به ، ثم يعدل عنه فتوراً ويهز كتفيه استخفافا ، وقد يفعل الشىء

يلام عليه وهو المصيب أو المحسن فلا يعنى بإيضاح أو دفاع أو اعتذار ، فكأنه أصيب فى الارادة والعزم دون الشعور والفكر، ولم يكن يعينه على احتمال الحياة والصبر على ما يجره عليه سلوكه هذا إلا أنه كان امرأ يحسن أن يلزم بكل شىء موضعه ولا يدعه يعدوه إلى غير مكانه، فالحوادث عنده كل منها فى دائرتها، والدوائر لا تتداخل ولا تتلامس على قدر ما يسع أمرءاً أن يباعد بينها .

وقالت الفتاة :

أنك تخيب الأمل

فلم يسؤه أن ترمى بهذا الرأى فى وجهه ونفخ الدخان على مهل وأتأره عينه وهو يتلوى ، ثم قال بابتسامة :

لست إلا كالدنيا .

ويظهر أن رده راقها ، وكان حظها من التعليم والاطلاع كبيراً ، وفيها فطنة وذكاء ، فسألته ·

وهل خيبت الدنيا لك أملا ؟

فهاجته بسؤاله إلى الذكرى وتلاحقت أمام عينه طيوف الماضى واصطخبت فى صدره العواطف التى كانت نائمة وراحت تتدافع ويحاول كل منها أن يبرز ويحتل المكان الأول من حسه ووعيه ولكنه تماسك وردها جميعاً بجهد وأرقدها كلها وأرضاها بجواب واحد افترقت عنه شفتاه :

لا أعرفها صنعت شيئاً غير ذلك مذ عرفتها .

ولم تجد الفتاة فى هذا الجواب الذى اختزل فيه قصة حياته مقنعاً لها ، وأثار فيها الرغبة فى الاستطلاع وأغراها بمحاولة النظر إلى ما وراء هذه السكينة التى أسدلها على نفسه فباغتته بهذا السؤال :

وكيف كانت التى خيبت أملك ؟ ؟

فحول اليها عينه بسرعة وحدق فى عينها هنيهة ولكن ابتسامها كان أكثف من ان يشف عما تحته ، فأراد أن يستفزها كما حاولت أن تستفزه فقال

مثلك !

فغاض الابتسام وامتقع الوجه ووقف لسانها ، ولكنها هى أيضاً كانت قد تعلمت أن تضبط عواطفها وتكبحها

فقالت مازحة أو مستطلعة :

وهل أنا يا ابن العم أخيب الامل ؟

فنقل عينه إلى النافذة وقال وهو يرمى منها ما بقى من السيجارة :

« لست إلا واحدة من بنات حواء . على أنى لا أعنى أكثر من أنك تشبهينها جداً حتى لأكاد أكره أن أراك »

فالتمعت عينها وقالت :

أصحيح انى أشبهها ؟

أيسرك هذا إذا أكدت لك أنه صحيح ؟

يسرنى ولا يسرنى

ما الذى لا يسرك

لماذا لا تسأل عما يسرنى ؟

فنهض ولم يجب ، وسار إلى النافذة واتكأ عليها بساعديه. وأرسل لحاظه فى الظلام المتراكب ، فدنت منه وقالت :

ماذا تصنع ؟

لا شىء !

ولكنك تحدق فى الظلام جداً

فأدار اليها وجهه دون أن ينظر اليها ومد يده فأخرج سيجارة. وقال وهو يشعل عود الثقاب :

إنى أحب هذا الليل الذى يتبعنى

فوجمت وأدارت وجهها الى الظلام وقالت كأنما تخاطب روحا أو تحدث نفسها :

ما أغرب هذا ! أنا أيضاً يتبعنى الليل ويسألنى عن أشياء لا أهتدى إلى جوابها !

ثم التفتت اليه وقالت :

ألم يلق عليك الليل سؤالا ؟

فقال ويده إلى فمه بالسيجارة :

أولى أن تسألى هل يكف عن السؤال ؟

وماذا يسألك ؟

فقال وهو ينظر إلى الظلام :

يسألنى هل أنا أحب الفتاة أم صورة لها فى ذهنى مما صنع خيالى . .

وما هو جوابك ؟

جوابى ؟ ماذا يمكن أن يكون ؟

انك تحب الفتاة

فابتسم — للظلام — وقال :

بل صورتها فى ذهنى أنها أجمل . . وأروع وأفتن . . .

وأكمل . . . و

ماذا تعنى ؟ لست أفهم . . .

« أعنى انى كلما سرت وحدى أو خلوت إلى نفسى طالعتنى من الظلام — ظلام الدنيا أو ظلام النفس — هذه الصورة الباهرة ، ولم أكن أعرف فى أول الأمر ما هى فسألتها وألححت عليها فاخبرتنى أنها صورة ... أأ ... صورة الفتاة فعجبت كيف يكون للصورة كل هذا البهاء والرونق الساحر ولا يكون للاصل من ذلك حظ ؟ ولا بدع بعد ذلك اذا كان الاصل قد بدا لى فاتر الاداء ضعيفاً فعلقت الصورة وليت من الممكن ان اعايش الصورة . ولكنها تنفر من العناق والقبل افهمت الآن لماذا خيبت الفتاة املى ؟ ؟ وسيخيب املى مرة اخرى . . »

فى اى شىء ؟

فى الصورة

انك محرج . لماذا تقف حين اود ان اسمعك تتكلم ؟

ماذا أقول ؟

حدثني عن الصورة

الصورة ؟ ؟ ها ها ! ستبهت الصورة أيضاً وتفقد وضاءتها ويفتر سحرها ولا تعود تطالعني إلا غامضة ملفوفة في الضباب

وصمت وساد السكون برهة ، ثم أخرج سيجارة أخرى وأشعل العود ولكنه تركه يحترق وسأل الفتاة :

وأنت ماذا يسألك الليل ؟

فتراجعت عن النافذة وأسندت ظهرها إلى الحائط وأرخت ذراعيها إلى جانبيها وقالت كأنما كانت تخاطب أثاث الغرفة :

يسألني عن أشياء كثيرة : لماذا أنا كالعود من القش يسبح على متن التيار ويلقيه الموج هنا وهاهنا . ولا ارادة للعود ولا رأى له في نفسه ؟

والى أين كان يؤثر العود أن يذهب لو رزق الارادة وأوتى القدرة على التحكم في التيار ؟

فنظرت اليه بسرعة ولكن عينها لم تقع على عينه فقد كان يتأمل البساط ويتعقب بلحظه نقوشه ، فلما رأته مشغولا أو متشاغلا عنها عدلت عن الجواب وأرسلت زفرة طفيفة غير أنه لم يدعها وقال مستحثاً لها :

انى مصغ ..

فندت عنها كلمتان اثنتان لعلها لو فكرت لردتهما ولكن اللسان سبق بهما

« كيف تسأل ؟ »

فأدهشته اللهجة أكثر مما أدهشته الالفاظ وسألها «ألست سعيدة . . معه ؟ » ولكنها لم تجب ومضت الى المنضدة وجعلت تعبث بما عليها من اللعب كانما أحست الحاجة الى الحركة ، ثم كانما لم يرفه ذلك عنها فقالت : «سأخرج الى الحديقة» وتركته في الغرفة.

ونظر الفتى فاذا الوردة التي كانت معها ، على البساط ، فلم يدر أألقتها له أم كان سقوطها عفواً لا عمد فيه ، وخطا اليها وتناولها في كفيه وتأملها ملياً كالمتردد الحائر وأدناها من فمه فلما كاد يبلغه بها ترك يده ترجع بها دون أن يشمها ، وبقي هنيهة يلمس غلائلها ثم راح يفركها وينثر أوراقها على البساط ورمى ما بقي منها وعاد الى النافذة يطل منها .

وظل هكذا حتى عادت ، ولم يحسها وهي تقترب منه ولم يفطن إلى وجودها بجانبه حتى سألته :

« لماذا لم تلحق بي في الحديقة ؟ ان الجو هناك حسن » .

فقال دون أن يدير وجهه أو يصرف عينه عن الظلام :

« لست أحب أن ألقي عليك ظلي في حيثما تكونين » .

فابتسمت وقالت : ان الظلال تختفي في الظلام .

قال : نعم . وليس اختفاؤها بمانع أن تحسها النفس .

فسألته : لماذا تتكلم هكذا ؟

فقال « معذرة . انى لا أفكر قبل أن أتكلم » .

قالت « انى آسفة » ...

قال مقاطعاً لها « لا تأسفى » .

واعتدل ونظر اليها ومضى فى كلامه فقال :

« اذا رأيت طفلا يبكى ويطلب النجم ؟ . . »

وأمسك فقالت : أتسألنى ؟

قال « نعم »

قالت « أصرفه وألهيه عن مطلبه بلعبة »

قال وأشار بأصبعه الى غلائل الوردة على البساط :

« تلهينه بلعبة كهذه الوردة ؟ »

فقالت كالصارخة : « وردتى ! ! » وركعت على الارض وجمعت أوراقها وحنت عليها فى كفها وقبلتها ثم رفعت اليه نظرة عتب وألم وقالت : لماذا صنعت بها هذا ؟

قال وهو يسير الى الباب ويده على أحد مصراعيه :

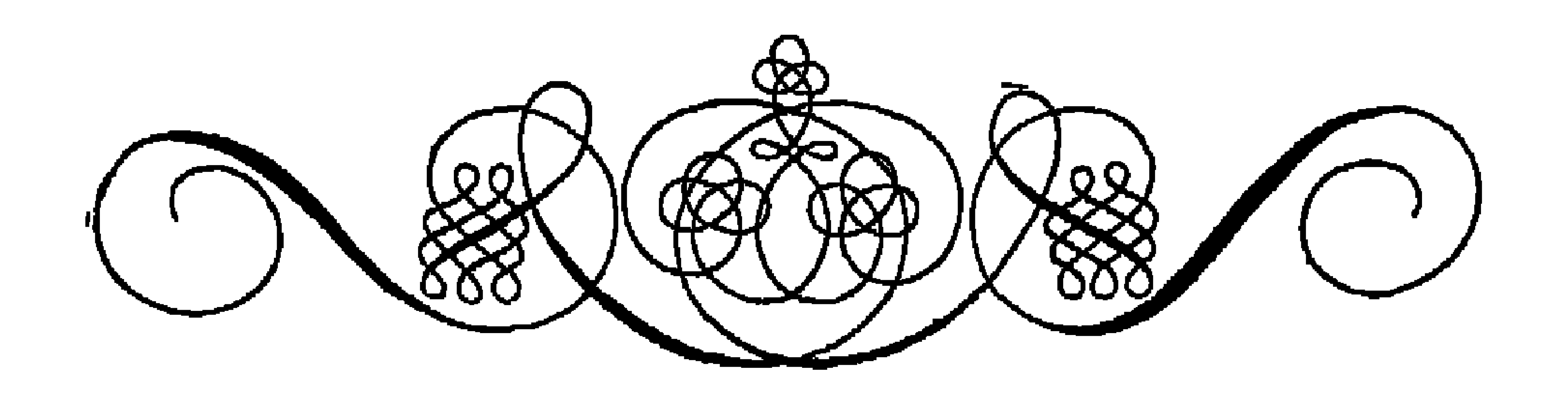
« أصغى الىّ الطفل الذى يبكى على النجم يلهى بلعبة ولا تشعر الأم له بعطف له حز فى فؤادها . كذلك لا تألمى لمحب أمله خائب لا محالة » .

وأولاها ظهره ليخرج فصاحت به :

ألا تنتظر . . ز . . ز . . ؟ . . .

كلا !

وخرج .



الطفولة الغريرة

أظنني كنت فى الرابعة أو الخامسة ، فما أذكر على التحقيق كم كانت سنى — والطفل عندنا ، أعنى فى بلادنا : لا يفكر — أو على الاصح لا يسمح له بأن يفكر — فى مثل هذه السن ، ويخيل الى الآن وأنا أدير عينى فى تلك الايام كأن وظيفة الاباء والامهات كانت صرف الابناء عن النظر والتفكير والزامهم الجمود ونهيهم عن كل حركة جسمية أو عقلية . والطفل — كما نعلم الآن — أكثر ما تكون حيويته فى اعضائه، فرغبته فى الجرى والوثب وما الى ذلك ، طبيعية ، وهو أشد من الكبار صبراً على ذلك ولجاجة فيه لقلة ما يشغله غيره ، وهو جديد فى هذه الدنيا فشوقه الى معرفتها معقول ، ومن هنا مده يده الى كل ما تقع عليه عينه وتناوله وتقليبه وتحطيمه أو افساده ، وليس التحطيم أو الافساد غايته ولكنها المعرفة ، والاباء يشفقون على اشيائهم من مغبة هذا التناول فيمنعون التجربة ويأخذون على المعرفة طريقها .

ولست أذكر انى هممت مرة باللعب الا زجرنى عنه واحد من الكبار ، أو مددت يدى الى شيء الا نهيت عن لمسه ، وما كان أصعب السكون المقضى على به، بل ما أقل ما كان الجمود يرضيهم! فانا اذاً لعبت « شقى » واذا اسكنت فلا شك انى مريض! وكان ملجىء الوحيد أبى هو وحده الذى كان يبدو لى أنه يفهم !: وقلما كنت أجالسه لانه رجل ، والرجل فى ذلك العصر ، مكانه بين الرجال لا بين الاطفال والنساء، حتى الاكل كان يتناوله وحده أو مع ضيوفه فى « منظرة » الرجال . حتى القهوة تصنع وترسل اليه . فهو فى منزلة وحده ، وكل من فى البيت يخدمه حتى أمى.. بل حتى أمه هو . يستيقظ أهل البيت ويكون هو لا يزال نائماً: فالكلام همس والسير على أطراف الاصابع والاطفال يحملون الى مكان قصى من تلك الدور القديمة الواسعة لئلا توقظه ضوضاؤهم. ثم يفتح عينيه ويتثاءب فينقلب السكون جلبة ، هذه تجيء بالطشت والابريق للوضوء ، وهذه تعد الشاى ، وتلك تهيء الطعام ، وكأنما يتعمد كل انسان أن يسمعه صوته ويثبت له أنه يتحرك فى خدمته ، فالاصوات عالية والنداءات متتابعة ، « والقباقيب » ملبوسة ، والارجل تدب ، ويكون الشيء المطلوب تحت أنف الطالب فيقطع المكان ذاهباً وآيباً عشر مرات قبل أن يمد يده اليه ، ويصيح وينادى ويسأل عنه كل مخلوق قبل أن يتفضل ويراه ، ويحاسب كل من فى البيت على اختفائه ويتوعد

ويبذر حتى اذا ظهر — وهو أدنى شىء منهم جميعاً — انطلق طالبه المتعامى عنه يصف الاهمال والعمى بما يفتح الله به عليه. ثم تقص هذه الحكاية بتفصيل واف شاف لابى وهو يفطر أو يشرب القهوة على سبيل الاعتذار من الابطاء عليه والشكوى من الخدم وسائر أهل البيت، والتذمر من الدنيا وسوء الحظ فيها، والتبرم بهذه المتعبات التى تحفل بها ساعات الليل والنهار.

ولا أزال أذكر «علقة» من أجل هذا وكانت أمى تطلب الطشت والابريق وكان الطشت فى الحمام والابريق على بابه، فاحتملت الخادمة الطشت وذهبت به ولم تر الابريق فذهبت تسأل عنه خادمة أخرى أصغر منها وتصيح بها «أين وضعت الابريق يا ملعونة ؟»

فقالت الصغرى فى ذلة وخوف «لم أره والله!»

فصرخت الكبرى «كيف لم تريه ؟! لقد وضعته بيدى فى الحمام فهل أخذه العفاريت ؟!»

الصغرى. «والله العظيم. والله العظيم..وحياة النبى.....»

الكبرى «لا تحلفى يا ملعونة. سيصيبك العمى يوما من الايام من كثرة الحلف كذبا. أقول لك هاتى الابريق، وإلا صار يومك أسود ؟!»

أمى: بصوت عال جداً — «أجننتما ؟ ما هذه الضجة ؟ ألا تستحيان أن تتصايحا هكذا وسيدكما فى البيت ؟»

الـكبرى . يا سيدتى لقد أضاعت هذه البنت الابريق .
وانظرى كيف تحلف انها لم تره »

أمى : أين يا بنت الابريق ؟

الصغرى : والله العظيم ، والله العظيم ... والله .. و...... »

أمى : ألم أقل لك كفى عن الحلف ...

ودفعتها بيدها وأطلقتها لتبحث عن الابريق فدخلت المسكينة ووقفت بباب الحمام وأسندت كتفيها الى الحـائط ولـكنها لم تبحث عن الابريق وكان بجانبها وعلى مسافة شبرين منها ، بل وقفت تبكى ، لا كما يبكى الناس ؛ بل بحنجرتها دون عينيها . أعنى أنها كانت تخرج مثل صوت الباكى المعول ولـكن عينيها جامدتان .

ودخلت فى أثرها الخـادمة الاخرى وأمى وراءها . وعلا الضجيج وكثر الـكلام وكنت أنا أشاهد هـذا كله ، وأرى الابريق . ولـكنى كنت مفتوناً بهذا الحوار الذى يدور على لا شىء ، فلم أدلهم على مكانه ، ولو أنى تـكلمت لضاع صوتى الصغير ولغرق فى طوفان هذه الضوضاء . على انى لم البث ان شعرت كأن رأسى سيتهشم ، وعجزت عن احتمال هذا الحال ، وبدالى — لسوء الحظ — انى حقيق بان يكون لى من احترام النساء للرجال حظ ولو قليل ، قياسا على ما اراه من اجلالهن لابى . فصحت بهن — وامى فى جماتهن —

« يا للعمى ! ألا ترين الابريق وهو تحت أنوفكن ؟
ما هذه الضجة الفارغة ؟ لقد أوجعتن رأسى ! »
فكان جزائى — كما أسلفت — علقة !

***

نعم كان المنزل جحيم الطفل . فهو مطالب بان يكون له عقل الكبار واتزانهم وفهمهم ، ولكنه محروم من مزاياهم ولا يعامل معاملتهم . وكل شيء يصدر عنه معيب وخطأ فاللعب عيب والصمت عيب ، والتهويم فى المجلس عيب ، والارق عيب ، والاستفهام عيب ، ولا شيء فيما يرى الطفل محمود مشكور

ماتت بنت خادمنا — وكانت فى مثل سنى — ولم أعلم انها ماتت ، لانهم أجلونى عن البيت وأرسلونى الى عمتى ، فلما عدت ولم أجدها سألت عنها لانى افتقدتها ، فكان كل من استفسر منه عن اختفائها يتجهم لى وينهرنى عن السؤال لانه عيب . فذهبت الى أبى ، وكان حليما صبورا رضى الخلق ، فسألته عنها ، فأخبرنى انها ماتت . فعجبت ولم أفهم كيف تجرؤ أن تموت . فسألنى أبى بدوره عن سر عجبى . فقلت له « لانها صغيرة ».

قال « ولكن الموت ينزل بالكبار والصغار على السواء » .

فألححت وقلت « ولكن يا أبى . انها لا تزال صغيرة فكيف يجوز أن تموت ؟ »

قال « يا بنى لا اعتراض على قضاء الله »

قلت مصرا ، « ولكنها صغيرة وهذا عيب » .

فضحك ومسح رأسى بكفه فلم أزد الالحاجة وقلت «ياأبى. هل تسمح لى أن أفهمها ان هذا عيب وانها لا يصح أن تموت؟»

قال وقد ضجر على ما يظهر وان ظل يبتسم : « يا بنى كيف يكون الموت عيباً ؟ »

قات مستغربا : اليس الموت عيباً ؟

قال « كلا . أنها آجال »

فاعجبنى ان يكون الموت « آجالا » وطربت جداً . ودنوت منه ووضعت كفى على خديه وقلت وقد خيل الى انى ظفرت بملهاة جديدة « اذن ليس من العيب ان أموت أنا أيضاً »

فصاح بى « أعوذ بالله ! » واكفهر وجهه لا أدرى لماذا « اياك أن تقول كلاما كهذا مرة أخرى »

لا أدرى لماذا ! .... لقد فهمت .. ولكن بعدسنوات ترى ألم يكن فى الوسع اختصارها

وصار لى أخ صغير . لم أره حين جاء لانى أجليت عن البيت فلم أكن فى استقباله . ولما عدت وأخبرونى وسألت عنه من أين جاءوا به قالوا أو فهمت أنا منهم انه من عند الله ، وان الله هو الذى يرزق الاباء ، فاقتنعت ورحت بعدها أتوقع أن أتلقى كل يوم من عند الله أخا جديداً وساءنى أن يرزقنى الله أخا لا أختاً . فسألت أبى :

لماذا لم يرسل الله لى أختاً بدلا من هذا الاخ ؟

قال — هذه مشيئة الله ولا حيلة لنا فيها .

قلت — ولكنى أريد أختا . .

قال — ادع لله

فلبثت بعدها أدعو الله ولاسيما قبيل النوم ، وكنت أتوقع فى كل مرة أن أصبح فأجد الاخت المرجوة تحت السرير أو فى الدولاب أو بجانبى ، ولكن الله لم يستجب لى قط .

***

وكان فى البيت اثنان لا أراهما أبدا وان كان ذكرهما على لسانى أبى وأمى ، وهما « الست » و« الافندى » فابى يقول للخادمة مثلا قولى كذا أو كذا « للست » ، ويتحدث فى أوقات شتى ولا سيما حين يكون معه رجال من أقربائنا عن هذه « الست » وأمى لا تفتأ تقول « الافندى قال ـ أو الافندى اتى أو الافندى خرج » فاعجب أين هما ؟ ولماذا لا أراهما ؟ وأصعد الى السطح باحثاً عنهما فلا أجدهما وأدخل كل غرفة فلا أهتدى إلى أثر لهما ، وأنزل الى فنـاء الدار فلا التقى بهما . أين ينامان يا ترى ؟ ماذا يأكلان ؟ ألا يظهران أبداً ؟ وعلى كثرة مافكرت فى أمرهما وبحثت عنهما لم يفتح الله على بخير من أنهما لامحالة يلبسان «طاقية الاخفاء» ولشد ما كان يلج بى الشوق الى رؤيتهما ويدركنى العطف عليهما أيضاً ؟ وكثيراً ما كنت أقوم من النوم على صوت — لعله موهوم —

فاتخيل انهما داخلان وأرهف سمعى وأنشر أذنى فى الليل وأفتح عينى جداً وأحدق فى الظلام وقد قمت على ذراع . وربما تسللت الى كل غرفة لعلى أبصرهما ، ناسيا فى سبيلهما مخاوفى وما تثيره الظلمة فى نفوس الاطفال .

واتفق مرة انا كنا جميعاً جلوساً فى غرفة أبى وكان مريضاً — فدخلت الخادمة فأسرت شيئاً الى أمى فقالت لها هذه « اخبريه ان الافندى مريض » فصعدت روحى الى حاقى وشعرت بالاسف على « الافندى » والالم له ، والفرح أيضاً لان مرضه قد يتيح لى أن أراه أخيراً ...

ودنوت من أبى — وكنت عليه أجرأ فابتسم لى ومد يده فوضعها على كتفى فاطرقت برهة ثم رفعت عينى اليه وقلت « بابا »

قال « نعم » وجذبنى اليه فى رفق وعطف

قلت « كيف صحة الافندى ؟ » .

فضحكوا جميعا — أبى وأمى وجدتى وعمتى و . . لا أدرى من أيضاً . وقبلنى أبى ، ولكنه لم يجبنى لا هو ولا سواه . فلم أفهم هذا ، وأحسست بالغيظ ، ورحت انظر فى وجوههم نظر المحنق . ثم تولانى العناد فعدت الى أبى أسأله عن صحة « الافندى » فنظر أبى الى أمى فتناولت هذه يدى وقالت « عيب الاولى كانت عفواً . وقد فاتت ولكن لا يليق أن تكررها »

فكدت أجن . لماذا يخفون عنى الافندى والست وهما يراهما كل انسان سواى ويحادثهما على ما يظهر لى مما أسمع؟ لماذا أحرم وحدى أن أبصرهما وأكلمهما ؟

فقلت « ولكنى أريد أن أرى الافندى »

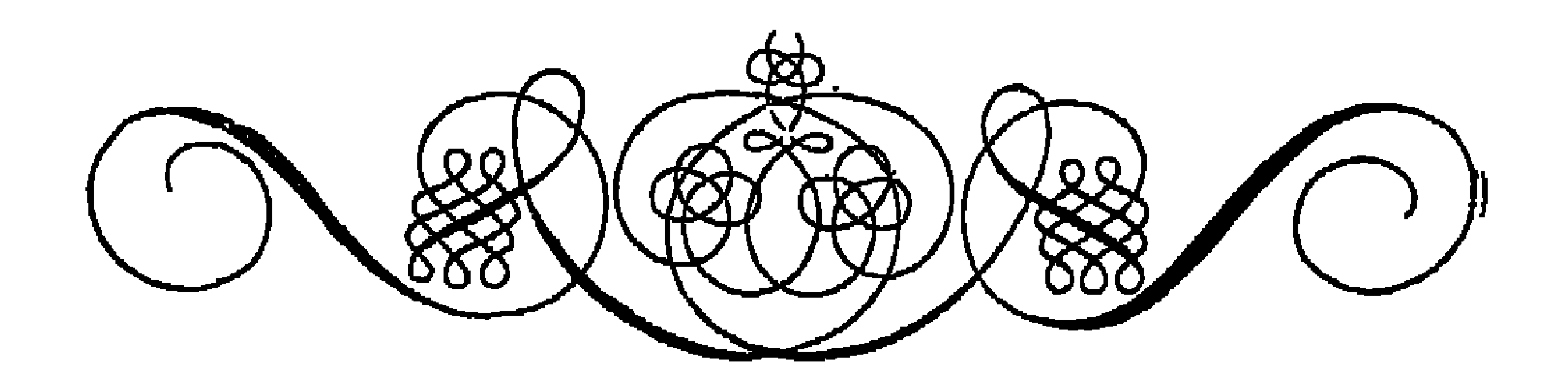
فقالت أمى « عيب قات لك عيب »

وفى هذه اللحظة دخل جدى على مهل ويظهر أنه سمع أمى تنهرنى وكان شديد الحنو على فسأل « ماله ؟ »

فقصوا عليه الحكاية . فابتسم وأجلسنى على ركبته ولم يزل بى حتى سرى عنى وجفت دموع الغيظ التى كانت تترقرق فى جفنى ، فشرحت له المسألة وكشفت له عن جهودى التى بذلتها فى الاهتداء الى « الست والافندى » ولم يبق فى الغرفة أحد لم يضحك منى . ولكنى كنت فرحا باصغاء جدى وتشجيعه لى وما كان يبدو على وجهه من الاغتباط والجذل ، فلم أعبأ بالضحك ، ولما فرغت سألته « والآن هل ستخفيهما أنت أيضاً عنى ؟ »

قال « لا . لقد أخطأوا معك يا بنى . وكان حقهم أن يدلوك »

واستغنيت بعد ذلك عن البحث والتنقيب فقد عرفت « الست والافندى » وضحكت أيضاً لما عرفتهما



صورة وصفية لصحفى

قضى « م . » سنة كاملة يعمل فى سكون فى الصحيفة التى التحق بها ، ويؤدى الواجب الذى وكله اليه رئيسه باخلاص ودقة ، وكان واجبا شاقا ولكنه كان يجد فيه ملهاة عن هموم الحياة . وعرف له رئيس التحرير فضله فكان لا يفتأ يثنى عليه ويشجعه ويبلغه حسن رأى الناس فيه وحمدهم مجهوده ، وكان يخجله أن يسمع هذا المدح ولا يدرى بماذا يجيب فيقطب — وهو يريد أن يبتسم — ويتلفت يميناً وشمالا كأنما يبحث عن نافذة يثب منها . وطلب منه رئيس التحرير يوما صورته فريع المسكين وقال : (صورتى ؟)

قال : « نعم صورتك . نحن فى ديسمبر كما تعلم » .

قال وقد زادت حيرته « أعلم هذا ، ولكن ما العلاقة بين كوننا فى ديسمبر وبين صورتى ؟ »

فابتسم رئيسه وقال : « قداعتزمت أن أعطيك جواز ركوب مجانى للترام . هذا ما أستطيع أن أكافئك به الآن . وقد كان

بودى أن أزيد مرتبك ولكن لا أرى هذا ميسوراً فى الوقت الحاضر . وفى مرجوى أن أستطيع بعد قليل » .

ولبث اياما يخجل أن يبرز الجواز أو ينبىء عمال الترام انه « ابونيه » ويؤدى اجر الركوب ، ذلك انه احس بشىء من الحرج لان الجواز مجانى ، وخيل اليه — لغير ما سبب معقول — أن « الابونيه » منحة من الشركة ، فلا يبعد أن يخطر لها يوما أن تسترده ، وتجسم له وهمه فكان يتصور ان العامل جاءه يطلب ثمن التذكرة ، فقال له «ابونيه» فطلب رؤية «الأبونيه» وفتحه ثم طواه ودسه فى جيبه وقال «تذكرة من فضلك» ومع اطمئنانه الى استحالة هذا ، صار يستدرج اخوانه الذين يحملون مثل جوازه ليركبوا معه . أو على الاصح يركب معهم وان كان طريقهم غير طريقه ليطمئن ويتشجع ، حتى ألف هذه الحالة الجديدة . وعلى انه مع ذلك ظل زمناً كلما مر به عامل الترام وهو راكب ، يتوخى ان يكون سلوكه وهيئته على خير ما ينبغى . فاذا كان واضعاً رجلا على رجل انزلها ، واذا كان يتكلم صمت ، واذا كان ناظراً الى اليمين أو الشمال رمى بعينه الى الامام كأنه تلميذ لمحه المدرس يتشاغل عن الدرس .

وكتب يوما مقالا ودفعه الى رئيسه فما راعه فى اليوم الثانى الا رؤية المقال فى صدر الجريدة وفى ذيله اسمه . فألقى القلم واسرع الى رئيسه يؤكد له انه لم يذيل المقال باسمه وان المسئول سواه .

عن هذا الخطأ او التصرف المعيب .

فقال رئيسه : ألم يخطر لك ان من الغبن ان جمهور القراء يجهل اسم كاتب مقالاتك ؟ »

فدهش واستحيا ان يخالف رئيسه لا جبناء بل لانه لا يحب ان يتهم رئيسه بقلة الفهم ، ومضى الرئيس فى كلامه فقال :

« لقد وضعت اسمك فى آخر المقال حتى من غير ان استأذنك ... » .

فتمتم « العفو . استغفر الله »

« . لأنى رأيت ان من الواجب انصافك . ان اسلوبك فيه فن وقوة لا أرى لهما مشبها فى كتابات غيرك . ومن العدل ان يعرف القراء انك انت صاحب هذا الفن الرائع ومبتكر هذا الاسلوب المحكم ... »

فوجد قوة كافية للاعتراض فقال : ولكنى لا أعرف أن لى اسلوبا . . »

فقاطعه رئيسه : « ان هذا تواضع يزيد قدرك . »

فتحامل على نفسه وقال : « اؤكد لك انى صادق »

« لا أشك فى ذلك »

« ليس لى اسلوب أو فن ، وليس فى قولى هذا شىء من التواضع انها الحقيقة » .

قال الرئيس : « اذن هو كبر ان يكون بك كبر » .

قال : « كلا . كلا . ولا هذا »

قال الرئيس وقد ضجر «اذن ماذا ؟ ان أعصابك متعبة استرح بضعة ايام »

ولكنه لم يسترح ، وحاول بعد هذا الحديث أن يكتب فصار يمزق ورقة بعد اخرى ولا يزيد على سطر فى واحدة منها ، فوضع القلم يائساً وقال ما اظننى استطيع أن اكتب شيئا بعد هذا. وراح يعجب كيف كان يؤاتيه الكلام وكيف صار يستعصى عليه الآن . أسلوب ؟ فن ؟ ماذا يعنى ؟ ان كل ما يعرفه انه كان يتناول القلم ويجريه على الورقة ، وكانت الالفاظ تسعفه ولم يكن يجد عناء فى تخيرها ، بل لم يكن يتخير أو ينتقى ، فما له الآن لا يقدر ان يخط حرفا ؟ وتناول طائفة من اعداد الجريدة وجعل يقرأ مقالاته من جديد لعله يقع على ما فيها من الفن ويتبين ذلك الاسلوب الذين يذكرونه ، فلم يهتد الى اسلوب او فن ، وألقى الصحف ونهض عن المكتب واستأذن فى الخروج ، وقد أيقن أن مستقبله فى الصحافة قد قضى عليه .

***

وبعد بضعة أسابيع دعاه رئيس التحرير وطلب منه ان يتحرى مسألة من المسائل .

فقال : « ارجو ان تدع لى مفاتيح المكتبة »

فذهل رئيس التحرير وقال : « المكتبة ؟ او تحسب ان هذا مما يوجد فى الكتب ؟ »

فسأل : « اين اذن اجده ؟ »

قال : « لو امهلتنى لما احوجتنى الى كل هذا . » وشرح له الموضوع ثم قال : فعليك الآن أن تقابل وزير الخارجية فى مكتبه

فسأل : « متى استطيع ذلك ؟ »

فضجر الرئيس وقال « لا تكن طفلا يام . . »

وفى صباح اليوم التالى ركب سيارة حملته الى الوزارة المقصودة، فلما دخل لم يدر اين يذهب ولا الى اى ناحية يقصد ووقف لحظة يدير عينيه فى البناء ويرجو أن يلتى أحدا تكون له به معرفة ، ولما طال عليه الامر راح يتمشى ثم خشى ان يضيع الوقت فعاد الى الجندى الواقف بباب الوزارة وقال :

« هل تستطيع أن تدلنى على غرفة صاحب المعالى الوزير ؟ »

فصعد الجندى فيه نظره وصوبه ثم قال : « ادخل من هنا وامش فى خط مستقيم . »

ففعل ولم يزل داخلا حتى صار فى حجرة واسعة فاخرة الاثاث ولكنه لم يجد فيها لا مكتبا ولا وزيرا والتفت فرأى بابا مواربا فمد عنقه وأطل منه فرأى مكتبا وليس أمامه انسان ، فشجعه خلو المكان فالتفت وراءه فلم يجد أحداً ، فتقدم خطوة وأطل مرة أخرى فاخذت عينه ما أيقن معه أن الغرفة غرفة الوزير ، ولكن الشك خامره . إذ أين الوزير والساعة الآن الحادية عشرة ؟ وكيف يخلو المكان من حجاب وشرطة وموظفين قائمين

فى خدمته ؟ كلا . بل أكبر الظن أن الوزير فى مكان آخر . ورجع فالتقى بشرطى فسأله . فقال بل هى الغرفة وهنا (وأشار الى غرفة صغيرة) سكرتير الوزير . فحمل بطاقته مستأذنا فى الدخول عليه وخطر له وهو يناوله البطاقة أن مخبرى الصحف مساكين لانه ظنهم لا يدخلون على موظف الا اذا بعثوا اليه ببطاقاتهم مقدما. وأذن له فى الدخول فحياه بلسانه ورفع يده بالسلام فلم يزد السكرتير على أن هز رأسه ، وقال نعم . قال هل أستطيع أن أقابل معالى الوزير ؟

قال السكرتير : « انه مريض »

فقال صاحبنا : « مريض ؟ لا بأس عليه . أرجو أن تبلغه سلامى »

فابتسم السكرتير وخرج م . وقد سره أن الوزير مريض وأنه نجا من لقائه ؟ أكثر مما ساءه أن عاد بلا جدوى .

***

وخيل له أن رئيس التحرير يدرك ما انتابه وأنه يتعمد أن يصرفه عن الكتابة ويكلفه مهمات من هذا القبيل فقد بعث به فى اليوم التالى الى وزير الحقانية ، فخرج ولم يركب فى هذه المرة سيارة لأنه تفقد مافى جيبه فاستقله، ولم يشأ أن يرهق الجريدة بكثرة النفقات ، وخجل أن يطالب أجرة الركوب مقدما . ولم يكن قد احتاج من قبل أن يذهب الى وزارة من الوزارات

فسأل بعض من لقيهم فى الطريق فدلوه ، وكان وهو سائر يفكر فى ثقل هذه التكاليف وفى هذه الضرورات المتعبة ، وانتقل من هذا الى التفكير فى الموضوع الذى يقصد الى الوزير من أجله ، فلم ير أن المسألة تحتاج الى استفهام أو لقاء وزير . وكيف يبدأ الكلام ؟ وماذا يفعل اذا رفض الوزير أن يجيب ؟ ولماذا لايذهب رئيس التحرير بنفسه ؟

وكان فى أثناء ذلك قد دخل من باب وزارة وقطع الفناء ووصل الى السلم فصعد وهو لا يزال يحاور نفسه ، وسأل عن غرفة السكرتير فسار به شرطى اليها فأعرب له عن رغبته فى مقابلة الوزير،وكان السكرتير يعرفه فأكرمه ورحب به وطلب له قهوة وبعد نحو ساعة مضى به الى باب فتحه وأشار اليه أن يدخل .

قال الوزير « أهلا وسهلا . . زيارة نادرة . تفضل »

فجلس على حرف الكرسى وافتر فمه عن ابتسامة بلهاء ، وكان يدرك أن عليه أن يتكلم ، ولكن لسانه خانه كأنما كان قد استل منه ، ولم يكن ينقصه أن يحدث له هذا ليزيد ارتباكه ، وكان الوزير دمثاً ريض الخلق فابتسم له وقال وهو يميل اليه :

« أتشرب القهوة ؟ كلا ! اذن خذ سجارة ؟ ولا هـذه ؟ ألا تدخن ؟ »

فأومأ المسكين برأسه أن نعم ؛ فقال الوزير : « اذن يجب أن تدخن ؟ »

وقدم له العلبة فأخذ منها واحدة وأسقط واحدة أخرى على المكتب ، واستطاع فضلا عن ذلك أن يطير بكمه بضع أوراق، وانحنى يريد أن يلتقطها ويعيدها الى مكانها فصدم المكتب برأسه ونزل الطربوش الى اذنيه . فضحك الوزير وقال : « لا بأس، والآن ماذا أستطيع أن أفعل لك »

فجر صاحبنا الكرسى ودنا به من المكتب وتنحنح ثم استطاع بجهد أن يفضى بالموضوع ، وكان الوزير فى أثناء ذلك يقطب حاجبيه أو يرفعهما أو يستعيده بعض ما يسمع منه ، وهو مستغرب ، وصاحبنا لا يفطن الى آيات الدهشة فى وجهه ولا يدرك أمارات العجب ولا يلتفت الى دلائل الملل ، وأخيراً قال : « وقد جئت راجياً أن تتفضلوا على ببيان واف على قدر المستطاع فى هذا الموضوع »

فقال الوزير ولم يخف امتعاضه : « ولكن هذا من اختصاص وزير الحقانية »

ولو كان صاحبنا حاضر الذهن لفطن الى الغلط الذى وقع فيه ولاستطاع أن يحسن التخلص، ولكن لسانه سبق رأسه فقال:

« ولهذا جئت لمعاليكم »

قال الوزير وقد اشتد امتعاضه : « ولكنى لست وزير الحقانية »

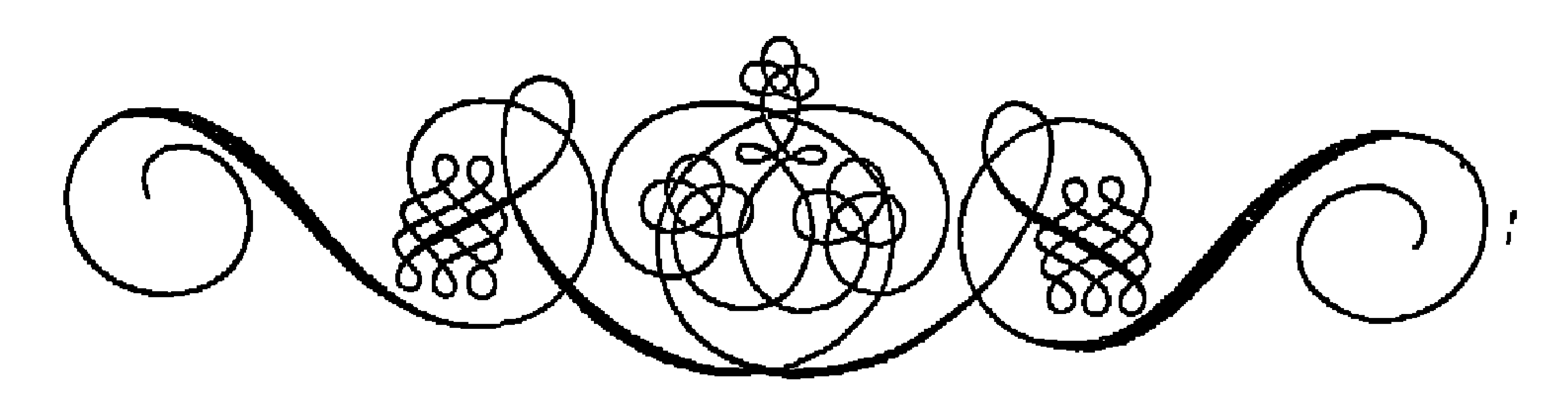
فبهت المسكين . ووقف لسانه فى حلقه ، ودارت به الارض ورثى الوزير له وأدركه العطف عليه فلاطفه وقال :

« لا بأس . لا بأس . الغلط مردود (وضحك) لم يضع الوقت ، يمكنك أن تقصد الى وزير الحقانية الآن . لقد سرتني زيارتك على كل حال وأرجو أن أراك مرة أخرى . نهارك سعيد . »

وخرج م. وهو لايرى ولا يفهم شيئاً . ماذا عسى ان يقول عنه رئيس التحرير أو أى انسان حين يعلم انه يخلط بين وزير الحقانية ووزير ... وزير ... أى وزارة هذه التى كان فيها ؟ حتى هذا لايعرفه ! وهل يجرؤ الآن أن يستخبر أحداً ؟؟ وهل يجرؤ أن يعود الى جريدته جاهلا أى وزير قابل فوق ما كان من جهله وتخليطه ؟؟

ولم يكن يخفى عليه أن الحل الوحيد هو أن يقصد الى الحقانية ويقابل وزيرها . ولكن اضطرابه بلغ مبلغاً احتاج معه الى علاج ، فقصد الى قهوة قريبة وألهم أن يطلب كأساً من الويسكى جرعها صرفا ولم يلبث أن سكنت نفسه قليلا ، فشرب كأساً ثانية وثالثة ثم قام الى بغيته وبه من الثقة بالنفس ما لا يذكر أنه أحسه من قبل ، ورأى من الأمانة أن يكاشف رئيس التحرير بما كان من غفلته . فضحك حتى كاد يقع من فوق كرسيه وقال :-

« ياصاحبى . انك كاتب لبق يسعك ما لا يسع فرقة باسرها من الكتاب حين تجلس الى مكتبك ، ولكنك حين تلقى الناس لا تعود صالحاً لشيء أو قادراً على شيء . فاذهب الى مكتبك ولا تزايله فما نستطيع أن نخلقك خلقاً جديداً .



المرأة وحقوقها

قلت لسيدة فاضلة سألتنى عن رأيى فى المرأة وحقوقها :

« أنا ممن يؤمنون بأن الحق للقوة ، ولا يكفرون بأن القوة للحق ، لأن الحق فى ذاته قوة »

قالت : « تعنى .... »

قلت مقاطعاً : « عفواً . أنا أدرى بما أعنى — أعنى انى لا أعرف ما هذه الحقوق التى تقولين انها للمرأة ، وأنما الذى أعرفه أن الدنيا أمامها فاذا كان ثم شىء تظن أن لها فيه حقاً فعليها به اذا وسعها أن تستولى عليه ، فاذا استطاعت فهو لها وأنف الرجل راغم ، واذا عجزت فليست له بأهل ولا يصح أن يقال حينئذ أنه حق لها . »

فهمت بالكلام فأشرت اليها أن تتريث وقلت :

« أنا أقدر منك على الكلام ، وصوتى أرفع من صوتك ، ماذا تطلب المرأة ؟ أو على الأصح ماذا تبغين لها ؟ أهو السفور مثلا ؟ »

قالت : « نعم . »

قلت : « ماذا يمنع الصالحة للسفور أن تسفر ؟ أنا واحد من الناس لا أمنع زوجتى أن تسفر وأن تكون كأختها الغربية ، وقد يكون أشهى الى وأمتع لنفسى أن تسفر ، وأبعث لى على الشعور بالاعتزاز بها ؛ ولكنها هى لا تشاء ذلك ولا تكاد تطيق هذه الفكرة . فما شأنى أنا ، وأين الحق الذى ترين أنى حرمتها اياه ؟ أنها هى لا تحس الحاجة الى السفور حتى بعد إن حاولت أن أثير فى نفسها الشعور بالحاجة اليه ، وقد يكون الشعور موجوداً ، ولكنها تعرف من نفسها أنها لا تقوى على مقتضيات السفور . ثم ماذا تطلبين أيضا ؟ التعليم بكل مراتبه ؟ أنه لا يأباه عليها الا كل ضيق العقل ، أم تبغين أن تطلق لها أن تزاول المهن الحرة ؟

وهنا أسأل أيضا : من يمنعها ؟ أن المرأة المصرية تعرف التجارة والزراعة والصناعة أيضا ، ومن بين نسائنا من يتجرن ، والسواد الاعظم منهن فى الحقول يؤدين ما يستطعن ، ومنهن من يشتغلن بالنسج والحياكة وصنع السجاجيد والطب ، فليس أحمق ولا أجهل ممن يذهب الى منع المرأة أن تعمل اذا وسعها العمل ، مثل هذا اعمى لا يرى ما حوله . »

قالت : « لم أكن أدرى أنك مناصر للمرأة الى هذ الحد »

قلت : « إنك تخطئين جدا اذا توهمت انى أذهب الى هذا

كله رغبة مني فى مناصرة المرأة . كلا ! لا مناصرة ولا مناوأة .
والمسألة عندى لا تستحق شيئا من هذا اللغط الفارغ والضجة السخيفة . والأمر ، كما قلت ، مرجعه الى القوة . فاذا وسع المرأة أن تفعل شيئا فلن تحجم عنه ولن تبالى رضى الرجل أم سخط ، وهذه الدنيا أمامها ، فمالها لا تغشاها ولا تخوض عبابها كما يفعل الرجل ؟ أنها ستفعل يوم تقوى على ذلك وتصبح كفؤاله ، أما قبل هذا اليوم فكل كلام هراء وسوء فهم لحقيقة المسألة . »

ولم أكن أحتاج بعد هذا أن أقول شيئاً ولكن السيدة الفاضلة سألتني :

« وما رأيك فيما تطلبه المرأة من مساواة الرجل ؟ »

قلت « : لست أفهم ، فهل لك أن تتفضلى على ببيان ما تريد المرأة أن تساوى الرجل فيه ؟ »

قالت : « فى كل شىء »

قلت : « ان كل شىء كثيراً ما يكون معناها لاشىء. فيحسن أن تعينى بعض هذا الكل فلا خير فى كلام ليس له ضابط »

قالت : « فى الحقوق والواجبات »

قلت : « ان من سوء حظ الانسان أنه يستطيع أن يوهم نفسه انه فاهم ما ليس بفاهم ، وأقول أن هذا من سوء الحظ ، لأن الدنيا كانت تخلو من طائفة غير قليلة من المتاعب لولا ما أشرت اليه من التعقيد الذى تجره قدرة المرء على اللعب بالالفاظ أو

قدرة الألفاظ على اللعب بالعقول أو استعداد المرء للانخداع بها، فهل تستطيعين أن تبيني لى هذه الحقوق والواجبات ليكون كلامنا دائراً على شىء مفهوم ؟ »

فتمتمت و بدا لى انها لن تستطيع ، فقلت :

« دعى هذا واسمحى لى أن أسألك : هل الرجل والمرأة سواء من حيث تركيب الجسم واستعداده ؟ » .

قالت « كلا »

قلت : « هذا حسن . والمرأة مخلوقة لتحمل وتلد ، وقد استوجب هذا أن تختلف عن الرجل فى بنية الجسم باطناً وظاهراً، ففى جوفها مكان للجنين ليس فى جوف الرجل مثله ، ولها ثديان يدران اللبن وليس للرجل نظيرهما، وثم وجوه أخرى من الاختلاف فى التكوين، حتى عظام المرأة ألين من عظام الرجل، على العموم. ولا شك أن هذا الاختلاف فى التركيب يؤدى الى الاختلاف فى الوظيفة، فلكل من المخلوقين عمله فى الحياة وواجبه فى الدنيا، وليس أحد العملين بأشرف من الآخر أو اسمى . ففى أى شىء تريدين أن يتساويا وقد خلقا مختلفين؟ ليس الرجل هو الذى يأبى على المرأة أن تكون صنوه ونده فيما تسمينه الحقوق والواجبات ، وانما هى الطبيعة التى تأبى ذلك عليهما جميعا — تأبى على الرجل ان يكون كالمرأة ، كما تأبى على المرأة أن تكون كالرجل ، فالذين يلهجون بالفاظ المساواة وما اليها يغالطون أنفسهم فى

الحقائق . ذلك ان من الخطأ أن يقول قائل ان المرأة غير مساوية للرجل وان هذا نقص فيها أو فى حقوقها ، فان الرجل أيضا غير مساو للمرأة . وهما — أى الرجل والمرأة — مخلوقان أعدت الطبيعة كلا منهما لعمل فى الحيـاة . فلن يتساويا أبداً الا اذا استطاع الرجل أن يؤدى وظيفة المرأة أو المرأة أن تؤدى وظيفة الرجل وهو ما لا سبيل اليـه . ولا أدرى كيف صارت المرأة تستصغر واجبها فى الحياة وتستقل منزلتها فى الدنيا وتراهما دون واجب الرجل ومنزلته ! أقليل أن المرأة هى الحياة « مختزلة » وانها الاداة الوحيدة لبقاء النوع ؟ وان الرجل ليس الا معوانا لها ووسيلة تتخذها الى هذه الغاية ؟ لو كانت المرأة تدرك هذا لصار من دواعى فخرها . »

فاطرقت لحظة ثم رفعت الى عينيها وقالت : « ان هذا ـ على ما فيه من صواب ـ تهوين للأمر وأرجو ان تبين لى لماذا جُعل الرجال قوامين على النساء ؟ »

قلت : «هل تعرفين من الذى جعل الرجل قواما على المرأة»

قالت : « أتريد أن أجيبك بان الرجل أقوى من المرأة ؟ »

قلت : « كلا ! مثل هذا الجواب لايعنينى. ان المرأة يا سيدتى هى التى جعلت الرجل سيداً لها وحاكما وقواماً عليها . »

قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قلت : « زعموا ان المرأة — بطبيعة تكوينها — هى الاداة

لحفظ النوع . ولما كانت هذه هى وظيفتها فان الغريزة النوعية ـ أى الموكلة بحفظ النوع ـ أقوى فيها من الغريزة الفردية أى المتعلقة بحفظ الذات ، فهى على نقيض الرجل ، وسلاح المرأة ووسيلتها لاجتذاب الرجل ، الجمال . وقد فطن « أنا كريون » لهذه الحقيقة فقال فى قصيدة له . ان الطيور سلاحها المخالب والأسود سلاحها الانياب والمرأة سـلاحها الجمال ، هو الذى تسطو به على الرجال وتستولى على أهوائهم وتخلب ألبابهم . واذا شئت فقولى أن الجمال هو الاداة التى تستخدمها الحياة لبقـاء النوع . وهذا السلاح الذى تغلب المرأة به الرجل وتأسره هو سر قوتها وهو أيضا سر ضعفها ، لأنها محتاجة الى الرجل لحفظ النوع ، ولما كانت الغريزة النوعية أقوى فى المرأة منها فى الرجل فحاجتها اليه أقوى من حاجته اليها ، والنتيجة ظاهرة . ومن هنا خضوع رقبتها له فى سبيل الغاية التى خلقت لها . والطبيعة ــ كما تعلمين أو لاتعلمين — تتخذ من العواطف الانسـانية مسارب تتدفق فيها وتنتظم ، فالأثرة أصل الوطنية ، والعطف أصل هذا النظام الاجتماعى الذى لا يبدو فيه شيء من التعاطف ، والحب أصل نظام الزواج ، كذلك هذه الغريزة النوعية واربا قوتها فى المرأة على قوتها فى الرجل هى علة استخذاء المرأة للرجل وامتلاك الرجل لناصية المرأة . وأن المرأة لتكون أقوى من الرجل — أقوى جسما أو ارادة أو أحد ذكاء أو أوسع حيلة أو اكثر مالا

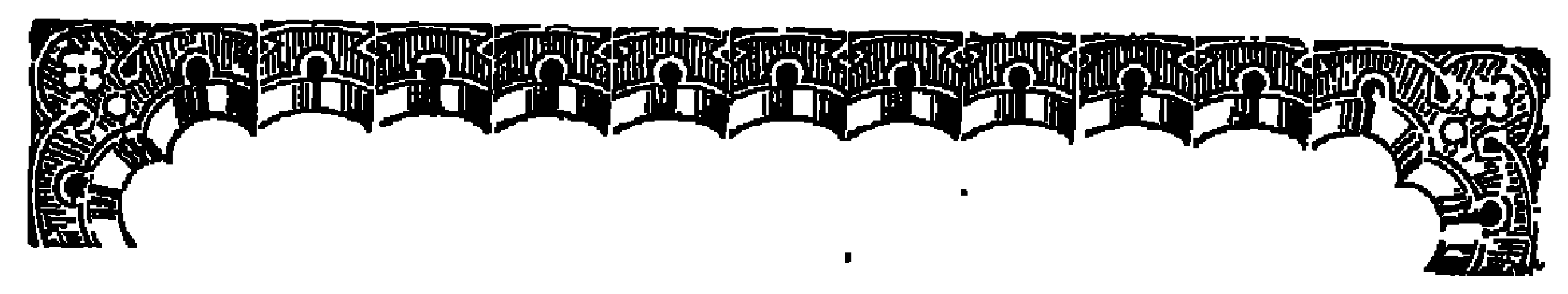
الى آخر ذلك — حتى اذا صار الامر الى هـذه الغريزة النوعية عادت المرأة وهى درج مشيئته ، ولم يبق للذكاء أو الحيلة أو الفطنة أو الارادة أو غير ذلك من عمل الا استرضـاء الرجل والتزلف اليه رجاء الفوز بالحظوة عنده . وما أعرف — ولا اظن — امرأة ما خضعت لرجل ما الا من هذه الناحية الجنسية . وعندى أن الرجل ليس أقوى من المرأة الا لهذا ، أى لأن الغريزة الجنسية أطغى بنفس المرأة منها بنفس الرجل وليس للرجل فى هذا فضل ولا هو للمرأة منقصة » .

قالت : « انك اقسى على المرأة من خصوم حقوقها » .

قلت : « كلا . ومعذرة اذا قلت أن المرأة لا تعرف قيمة نفسها وانما يعرفها الرجل الذى يدرك أنها تحاربه وتغلبه بكل قوى الحياة مختزلة فى شخصها بل فى لمعة عين أو افترار ثغر أو خطرة أو عذوبة صوت أو سحر ظرف أو فتنة رشاقة ، والخضوع متبادل: فالمرأة تخضع للرجل من الناحية النوعية، والرجل يتطامن لجمالها ويعنو لحسنها ويقعد رهن ارادتها من هذه الناحية »

قالت : « ان هذا لا يهون ما أسلفت القول عليه وما أراك تنصف المرأة »

قلت . « ليس الذنب لى . وما أنا بمكلف أن أنصفها وانما عليها أن تنصف نفسها ، وليس أجـدى عليها من أن تدرك وظيفتها فى الحياة وتحسن القيام بها. واذا وسعها بعد ذلك شى فعليها به ، وكل ماعدا ذلك كلام لا محصول وراءه ولا خير فيه



الحياء

الحياء مفسدة للحياة ومضيعة للرجولة، وهو فى المرأة زينة بل فتنة ، ولكنه فى الرجال ضعف ، بل شر من الضعف ، هو عنوان الخيبة وسرها ، ونذير التأخر وعلته وما رأيت شاباً فيه حياء يمنعه أن يتقدم بحقه وفضله وأن يبرز بالسعى لمطلبه إلا أشفقت عليه من الخيبة التى هى لا محالة نصيبه،ولا يتعجل القارىء فيحسب أنى أريد بالحياء،الأدب.فهذان شيئان بينهما:

« أبعد مما بين بصرى والحرم »

وانما أعنى بالحياء ذلك الضعف الذى يعتور النفس ويصدها عن السعى ، ويقعد بها عن طرق أبواب النجاح ، ويمنعها أن تنزل إلى كل حلبة وتغشى كل ميدان وألا تفزع من صدمة مقدرة أورد محتمل،أعرف رجلا فيه فضل كثير تقدمه فى الحياة كل من كان خطوهم وراء خطوه كما يقول الشاعر،لأنه يستحيي أن يقول لمخلوق انه يستطيع كذا وكذا ويحسن كيت وكيت ويستحق هذه الدرجة أو تلك ولا تطاوعه نفسه لا على التقدم بنفسه ولا على أن يسمح لسواه بأن يعرف به من بيدهم أمره ،

فهو من أجل هذا لا يزال عند أسفل السلم ، وأحسبه سيظل كذلك إذا ظل ينتظر أن تنتشر فضيلته وحدها بغير لسان ، ويجيء اليه الرجل من معارفه يستعير منه كتابا أو يستسلف مالا ويعرف هو أن لا أمل فيما يقرضه، ومع ذلك لا يقوى على الرفض. وتعترض عليه وتعجب لأمره كيف يعطى من لا يرد ، فيقول لك : ان بحسب من يسألك شيئاً خجل السؤال أفتريد أن تضاعف ذلك بالرد ؟؟ فتقول له : ان هذا صحيح إذا كنت أنت السائل ، ولكنك لست به ، ومن أدراك أنه لا يضحك منك فى سره ولا يسخر بك فيما بينه وبين نفسه ؟ فيقول هذا شيء لا علم لى به ، وكل ما أدريه أنى أقيس — ولا أملك إلا أن أقيس — على ما أحسه من نفسى

وقد عشق مرة ، ودلهه الحب ، فاستحيا أن يطلب يد الفتاة من أبيها ، فطار بها آخر الأمر من لم تساوره الوساوس ولا يمنعه — حتى إذا ساورته — أن يطالب ويلح حتى يفوز

وسألته فى ذلك مرة : «أى عيب فى أن تتقدم إلى أسرة خاطباً؟»

قال : «لا عيب ولا شبهه وإنما خفت أن أقابل بالرفض فيسوء وقع ذلك فى نفسى ويفسد الأمر بينى وبينهم »

قلت : « ولماذا تقدر الرفض ولا تقدر القبول ؟ »

قال : « لأن الرفض هو المخوف »

قلت : « كلا وإنما أنت مريض الأعصاب ، فلا تزال تحاسب

نفسك وتوازن بين مالك وما عليك وتقيس قوتك إلى ضعفك ،
وإذ كنت دقيق الاحساس ، فان الذى ينقصك فى رأيك لا
ينفك ماثلا أمامك حاضراً إلى ذهنك مالئاً لشعاب نفسك حتى
لينسيك أن لك محامد أو فضائل أو مزايا ويذهلك عنها أو
يدفعك إلى بخسها حقها »

والواقع أن الحياء مرض ، وأن مرجعه إلى الاعصاب ، وعلى
قدر حظ المرء من سلامتها أو ضعفها يكون اقتحامه للحياة أو
فرقه من مكابدتها ، واحجامه عن خوض غمارها وهو لا يدل على
نقص فى الشجاعة فلعله أدل على العكس، وقلما تكون نفس الحيى
إلا فاضلة ، وليس مرجعه إلى فقر فى التجربة ، فعسى أن تكون
تجاربه أوسع وأقسى أيضاً ، وانما هو كما قلنا مرض ، وم يستحيى
الانسان فى هذه الدنيا لو كان الأمر كله للعقل وحده وليس
للاعصاب والنشأة وطبيعة التكوين دخل ما ؟ ! انها دنيا من لم
يغتصب فيها الشيء لم يفز به ، ومن لم يمدد يده إلى الطعام بات
طاويا، ومن لم يجعل وجهه أسمك من أديم الأرض، لطم على الخدين
والناس فيها لا يحفلون الفضل ولا يعبأون بالمزايا وانما يكرمون
من يكرههم على العناية به ، ومن ينحيهم ليتقدم ويردهم ليسبق،
أليس البقاء للأصلح ؟ والاصلح ليس من الضرورى أن يكون
الأفضل أو الأنبل أو الأكفأ ، فكثيراً ما يكون الاوقح
والاسفل ، أى الاقدر كائنا ما كان نوع القدرة وصفتها ، والحياة

لا تعرف نبلا أو سفالة ، ولا كرما أو بخلا ولا مروءة أو لؤما، وانما تعرف القدرة على المكافحة والنضال ، وكما أن النبات الطيب الذي يروق العين والانف ، قد يقضى عليه نبات طفيلي لا خير فيه ولا منظر له ولا مشم ، كذلك الانسان الخير قد يدوسه فى معترك الحياة الخسيس الوضيع. وعلى أنه ما الخير وما الشر وما كل ما نحمد فى دنيانا ونذم ؟ ؟ انه هى الألفاظ لما نريد وما لا نريد ، وما أكثر ما يكون « ما نريد » هو البغيض الينا والثقيل على نفوسنا وان كنا لا نجهر بذلك ، « ومالا نريده » هو الحبيب إلى نفوسنا العزيز عليها فلا عجب أن تكون الحياة سائرة على مقتضى ما هو فى قرارة نفوسنا لا ما هو دائر على ألسنتنا ؟

ملاحظة — لما نشرت هذه المقالة أقام بعضهم على القيامة لأنهم أرادوا أن يفهموا منها أنى رجل لا يعرف الفضيلة ولا يحفل الذمة والضمير ، فليت عندى صورهم لأنشرها للقراء !



بين كتبي

اضطهاد النفس

— ١ —

خمسة وعشرون عاما تقضت وأنا أقرأ . لم يفتني كتاب أستطيع أن أمد اليه يداً وأن أضعه تحت إبطي وأمضي به — شاريا أو مستعيرا أو . . . سارقا ! نعم فقد سرقت مرة كتابا ، وكنت يومئذ شابا في العشرين من عمري أنهز مع الغواة كما يقول النواسي ،

« وأسوم سرح اللهو حيث أساموا »

وكنت قد تخرجت قبل ذلك بعام في مدرسة المعلمين العليا وصرت مدرسا ولي مرتب حسن يكفيني أنا وأسرتي ويزيد على حاجتي لو أني عقلت ! وفي عصر يوم من أيام الصيف الحميدة — وما أقلها — كنت جالسا في « مقهى » ألفته ، أنظر الى الرائحين والغادين — أم ينبغي أن أقول الرائحات والغاديات ؟؟ — في ثياب الصيف الشفافة ، وأترقب مقدم الاصفياء والخلصاء لنقوم الى

النيل فنركبه بجهل الشباب . وشاء حسن الحظ أو سوءه — لا أدرى — أن يبطئوا على ، فضجرت ، وقلت أزجى الوقت بكوب من الجعة ، وكنت بها كلفا ولها شريباً ، وكان إخوانى يبالغون فى وصف حبى لها وولوعى بها فيذكرون عنى أنى لو كان كل ما معى نصف ريال ، لانفقت تسعة قروش على الجعة ووهبت القرش الباقى للخادم الساقى ، وعدت الى بيتى ماشيا . ولم يكن هذا صحيحا ، ولكن دعه الى سواه ، ومتى كان إخوان المرء الا أظلم الناس له وأقلهم تقديراً لمزاياه وأشدهم عمى عن فضائله وتجسيما لعيوبه؟

وبينما كنت أكرع من الجعة ، لمحت استاذا كان لى فى مدرسة المعلمين وكنت أجله ، وهو المستر ماركند — وأحسبه لايزال فى وزارة المعارف أو من يدرى لعله رحل عنها — فقمت اليه أحييه ، فقال لى بعد كلام (وكان يعرف حبى للكتب) :

أحسبك لا تقرأ شيئاً الآن .

قلت : بل أقرأ كثيراً .

قال : لا أظن . لقد صرت موظفاً ، وقل أن يعنى الواحد منكم بتثقيف عقله بعد أن يترك المدرسة ويجد عملا له .

فقلت أؤكد لك أني لا ازال أوسع دائرة اطلاعى . لقد كنت امس فقط اطالع كتاب «مائدة الافطار» لويندل هولمز .

فافتر فمه عن ابتسامة فيها من السخر والاسف معان ، وحز فى نفسي أن أرى فى وجهه أنه لا يصدقنى ، وجزعت ، وودت

لو أن معى فى هذه الساعة كتابا فاقول له : انظر . هذه هى الكتب لاتزال رفيقى وانيسى وسميرى .،ولم ادر كيف اقنعه بخطأ اعتقاده وآلمنى ان يسوء رأيه فى ، فقلت : « أقسم لك »

فوضع يده على كتفى وقال : « لا تفعل . » ومضى عنى .

لم اطق الجلوس بعد ذلك فى المقهى . ونسيت اخوانى ولم أعد اشتاق أن اركب النيل فهرولت الى المكتبة التى اعتدت أن ابتاع منها الكتب ، وكان عمالها يعرفوننى فهزوا لى رؤوسهم وتركونى اجيل عينى فى الرفوف واعلو واهبط فوق السلم فجعلت انتقى من الكتب وانتخب ، وقد عاودتنى الحمى ، وتمنيت لو يمر بى المستر ماركند ، وعددت ما اخترت وحسبت ثمنه فاذا به أكثر مما معى ، وأعدت العدوالحساب مرة وثانية وثالثة، فكنت لا ارانى ينقصنى فى كل مرة غير ثمن كتاب واحد هو — كما يشاء الحظ أن يكون — الجزء الاخير من تراجم فلوطرخس ولم يكن عندى ، وعز على أن أدع كتابا واحدا ، واحسست كأنى متسامح جدا مقصر غاية التقصير لانى سأخرج تاركا كل هذه المئات من الكتب على رفوفها دون أن احملها معى ! وكان فى وسعى ولا شك أن اعتذر لصاحب المكتبة بقصور الموجود عن المطلوب ، ولكننى تذكرت مما قرأت من تراجم فلوطرخس ان ليكرغ المشترع الاسبرطى كان يجيز السرقة على أن لايفتضح أمر السارق، فاذا افتضح وظهر امره أوقع به اقسى العقاب ، ولم يخطر لى فى

تلك الساعة أن هـذا لايختلف عما تقضى به القوانين والشرائع الاخرى ، ذلك انها لا تبيح السرقة وتقسو فى عقاب من ينكشف أمره ، بل تمنع السرقة وتقول من سرق عوقب بكذا ، والنتيجة واحدة ، لان العقاب لاينال على أى الحالتين الا من يظهر أمره .
أما من يستطيع أن يخفى السرقة فهذا لا تصل اليه يد القانون

ولا اطيل . حملت هذا الكتاب وحده فى يدى ـ كأنه كان معى قبل ان أجىء ـ ودفعت الباقى الى التاجر وانقدته الثمن وخرجت ، وهونت فعلتى على نفسى بأن آليت أن اعود اليه فى الغد بثمن ماسرقت . واستطيع أن أقول ـ ويستطيع القادىء أن يصدق ـ انى بررت ولم احنث.

***

واعود الى ماستطردت عنه فأقول : اليس حقيقا بمن يقضى مثل هذا العمر فى القراءة والاطلاع أن يجلس ساعة يحاسب نفسه وان ينصب الميزان فيضع فى كفة ما أنفق من حياة ومال وجهد، وفى كفة أخرى ما اشترى به كل ذلك وما خرج به منه ؟ لم اكن قط ممن يقرءون لأنى لاأدرى ماذا اصنع غير ذلك. كلا ! ماأردت من القراءة قتل الوقت وتزجية الفراغ . وانما كان همى ان استقطر الكتب واستخلص منها كل ما يمكن أن تجود به فالى اى حد ياترى وسعنى ان احتفظ بما اتوهم انى فزت به ؟ هل اختزنت شيئاً فى هذا الرأس الذى كددته وأجهدته كل هذه السنين ؟ ؟

وساورتنى المخاوف لما طاف برأسى هـذا الخاطر . وخشيت أن أتبين انى لم أكن الا كالأنبوبة يصب فيها الماء من ناحية ليخرج من ناحية أخرى ، وأقلقنى أن يتضح ان القراءة لم تكن عندى الا عادة ، وانى لا أقرأ الا لأنى أجد فسحة الحياة كالأبد — شاسعة الفراغ . إذن أكون قد أضعت عمرى وانهكت أعصابى وأضنيت نفسى فى غير طائل ! ولخير حينئذ أن أبيع ما عندى من الـكتب وأن أتصدق بثمنها وان أغرم بلعب الطاولة . ان هـذا يكون اجدى اذا كنت لم أفد من الـكتب ماتهب من الايمان والشجاعة والبصيرة وما تنبهه من الاحساس والقلق والحب والظمأ الى الجمال ، او اذا كنت على كل ما جهدت ، لم احى الا نصف حياة .

لذلك عمدت الى كتبى المبعثرة على النوافـذ والـكراسى وتحت الأسرة وفى اركان الغرف ، فرتبتها وصففتها على رفوفها ثم قعدت على كرسى امامها وشرعت اختبر نفسى وابحث عما فى رأسى . ولـكن كيف ؟ ليس فى وسعى أن أتناول رأسى فى كفى فأفتحه وأنظر مافيه . وليت هذا كان ميسوراً . اذن لوسع المرء أن يتفقد كنوزه كلما قلق عليها ، او اشتاق أن يمتع عينه بمرآها أو يجدد ادكاره لها ! ولـكن هذا مع الأسف لا سبيل اليه . وخطر لى ان خير ما اصنع هو ان اعقد لنفسى امتحاناً ، فجررت الـكرسى ودنوت به من الرفوف ومددت يدى فتناولت كتابا :

وكان «مقالات ايليا» الأولى والأخيرة (لشارلز لام) ووضعته على رجلى وقالت :

« والآن يامازنى احضر ذهنك ، وتذكر آخر مرة خطر لك شيء مما قرأت فى هذا الكتاب ؟ » .

فرفع المازنى عينه الى السقف وزوى ما بين عينيه وحدق فى لاشيء وحك راسه ثم هزه آسفاً .

فقالت النفس : لا تيأس . افتح الكتاب وأجر عينك فى الفهرس وحاول ان تتذكر : »

فتناول المازنى الكتاب وفعل كما أمر ، وسره وهو يقرأ العناوين ان يذكر بعض مافى المقالات، ولما بلغ (اطفال الاحلام) ترك الكتاب يسقط فى حجره

فسألته النفس : « هل عاد الى الحياة شيء ؟ »

قال : « نعم » بلهجة الراضى

فقالت النفس : (دع ما تذكرت وهات ما يثير فى نفسك من الخواطر — هذا اهم . فليست المزية ان يكون العقل مخزنا، وانما المزية ان يعود اقوى وافطن وان تنفتح العين وتصقل الروح وتعود احس واذكى واقدر على الاستيعاب) .

قال المازنى : (انى لاذكر الآن كيف كنت أفر فى أول عهدى بالكتب ، من كارليل إلى شارلز لام . وكنت اقول ان اسلوب كارليل وعر شاذ فاستريح الى لام كما يستريح المصعد فى

جبل الى الروض النضير والنسيم الرقيق ، وكنت ازعم انى أحب من شارلزلام اسلوبه ، ولكنى أعلم الآن انى مخطىء وانى كنت احب منه روحه ومزاجه ، ذلك انه لا يطيل ولا يكثر ولا يكظ كلامه بالحزون ولا يتسامى على القــارىء . وهو خفيف الظل مخلص ، يحب الأدب ويعدى القارىء بحبه هذا ، وقد صرت اعرف ان الذى يقول انى احب كاتباً لاسلوبه، انما يعنى انه يحب فيه خصائص معينة تطالعه من المادة التى يسوقها الـكاتب بل صرت الآن أتخذ فى الحـكم على الاسلوب نفس المعيار التى اتخذه فى الحـكم على الناس . أى انى لم أعد اكترث للتوافه التى يمكن اغفالها ولا يمنع وجودها ان يقوم الاحترام بين الصديقين. فاذا رأيت ان أسلوب كاتب لا يدعونى الى الاحترام ، أيقنت ، على الرغم من كل ما أفيد من اللذة والاستمتاع ، ان فى مادته عيباً ، وان السرور المستفاد من قراءته قصير العمر . فاذا أضحكنى كاتب ولم أجد انى خرجت منه بغير هذا الضحك تصورت انى قضيت أسابيع مع رجل لا يكف عن المزاح، واذا وقع من نفسى الـكاتب وراقنى تفكيره وأعجبت بمادته ولـكنى لم أرض عما يعتور عبارته من الخشونة أو الضعف أو التقصير فانى اجدنى أفترض ان لى صاحباً ذكياً طيب القلب ولكنه لا يفتأ يريق القهوة على الوسائد او على الأبسطة او يسقط الأكواب فتتهشم او يصطدم بالزهريات فتتحطم — مثل هذا منه يكون من دواعى الأسف ولكنه لا

يدل على سوء السلوك . وهكذا الى آخر ذلك ، وبعبارة أخرى وجيزة أقول انى أنظر الى الاسلوب نظرى الى الحياة . ذلك أن الاسلوب هو الكاتب أو صورة من نفسه اذا شئت،وليس فى وسع المرء أن يقسم الكتابة الى قسمين فيقول : هذا هو الاسلوب وهذه هى المادة . كلا . لا سبيل الى هذا ، لأن المرء لا يستطيع أن يتصور فكرة الا مفرغة فى طائفة من الالفاظ. وهذا القالب اللفظى الذى يصب فيه الفكرة هو الذى نسميه الاسلوب ، فلا وجود للفكرة اذا عدمت اللفظ المعبر عنها ، ولا وجود لفكرة معينة الا فى قالب واحد من الالفاظ ، فاذا تغير القالب تغيرت الفكرة تبعاً لهذا، فالفكرة تكون موجودة بمقدار ما يتهيأ من العبارة عنها ، وهى لا تعد موجودة الا بالاعراب عنها ، لا قبل ذلك — وليس اوضح فى بيان العلاقة بين المادة والاسلوب من مقال «اطفال الاحلام» ـ ومعروف ان شارلز لام كان يحب فتاة لم يفز بها ولم يسلها وانه كان له اخ مات فحزن عليه وأخت مجنونة يرعاها ويسهر عليها ، وانه لم يتزوج قط ، ولا حاجة الى القول انه لم يذق طعم الابوة — والقارىء لا يسعه الا ان يحس ان الاسلوب يتغير تبعاً لتنقل الفكر والعاطفة ويتلون بلون الاحساس . وفى هذا المقال يتخيل شارلز لام ان اطفاله — اطفال احلامه — احاطوا به ليحدثهم عن جدتهم ، وقد تصور انه والد وان له ابناء تقر بهم عينه ويلتذ ان يحادثهم ويداعبهم،

وما احسبه رفع قبل العيون هذه الصورة الا ليعينك على تقدير شعوره بالوحدة واحساسه بكل ما فاته فى حياته وخسره فى دنياه ، ولكنه على هذا يفيض على كآبته وآلامه ثوبا من الحسن ، أو هو على الاصح يريك ما فى الكآبة من جمال — وكفى بهذا توفيقا .

وكتوفيقه فى هذا نجاحه فى تصوير أطفاله الذين يحلم بهم وقدرته على وصف نزوعهم الى التقليد واضطراب صدورهم الصغيرة بالمشاعر الكريمة وسرعة تحولهم من الحزن الى الفرح ، وليس يسع القارىء الا أن يذكر تصويره لام لجمال الطفولة كلما وقعت عينه على طفل ، وعلى قدر اقتناع المرء بدقة التصوير وصدقه يكون أسفه حين يعلم انهم من مخلوقات الخيال وان «امهم الجميلة الميتة» التى يذكرها كانت جميلة وكان هو يحبها ولكنها لم تكن قدماتت حين كتب المقال !

***

واحسست الرضى من نفسى عنى فرددت الكتاب الى موضعه وقلت للنفس فى جرأة وثقة واغترار : « نعم » .

قالت النفس : لا تغتر . فما تزال فى أول الطريق . خذ كتابا آخر .

(٢)

زارنى صديق قرأ ما كتبته عن امتحانى لنفسى ، فاستقبلته فى المكتبة ، وقلما ابرحها فى هذه الايام العصيبة — حتى الطعام أتناوله فيها — اذ كنت أريد أن أفرغ من هذه الدعكة بأسرع ما يستطاع ، ليتيسر لى أن استأنف الحياة والقراءة فلما دخل على قلت :

« ماذا تريد »

قال : « جئت لأشهد هذا الامتحان الغريب ، فهل لك اعتراض على وجودى ؟ »

قلت « لااعتراض ، ولكن ماجدواه على أوعليك ؟ وماعسى صبرك على الجلوس والصمت ساعات طويلات لا احسبها انا اذ كنت أقضيها مفاتشاً لنفسى » .

قال : « هبنى لجنة لهذا الامتحان تسمع وتقضى بالحق وتعلن حكمها الى الناس »

فضحكت وقدخطر لى أنه لو أراد اخوانى جميعا أن يحتذوا مثاله ويشهدوا هذا الامتحان لا نقلبت المكتبة .. ماذا ؟ حلقة درس مثلا .. ، فقلت :

« ان الذى يعنينى والذى أباليه هو رأيى أنا فى نفسى

وحكمى أنا عليها لا رأى الناس أو حكمهم . وقد يثير الكتاب في نفسي ذكرى أو صورة ، وقد تكون هذه الذكرى فاترة والصورة غامضة او ملتاثة واقنع بها واكتفى ، حتى ولو اعجزتنى العبارة عن ذلك ، فكيف تستطيع أنت أو سواك أن تقدر هذا وتزنه ؟ »

قال وقد بدا عليه الضجر : « دع هذا وقل ما هذا الذى في يدك ؟ »

فصوبت عينى الى ما في يدى ، والحق اقول انى كنت نسيته ، لأنى ممن يذهلهم ماهم فيه عن كل ما عداه ، حتى لا استطيع أن اكتب أو اقرأ في وسط جحفل متلاغط ، ثم رفعت عينى الى وجه صديقى فأيقنت انه لا ينوى ان يتزحزح فوطنت النفس على احتماله وعقدت العزم على الانتقام فقلت :

« هذه رواية »

قال : « لمن ؟ »

قلت : « سؤال سخيف . الم اقل لك انك لا تصلح ان تحل محل النفس فى مثل هذا الامتحان ؟ » فلم يسؤه ذلك وساءنى أنى عجزت عن اغضابه وقال :

« ألا تبين لى كيف بدا سؤالى لك سخيفاً ؟ »

فضجرت وقلت : « افى مدرسة نحن ؟ الا تكفيك اللمحة الدالة ؟ لقد كنت اظنك لبيبا ! » فلم ينهزم وقال :

« لست اسألك لأستفيد بل لاسبر غورك »

قلت : « يالك من مغرورا ومن تكون قبحك الله حتى تقول هذا ؟ ماذا تعرف انت ؟» ولم أكد أقولها حتى أسفت ورجعت أعتذر له من حماقتي وسفاهتي ، وذكرت صديقاً كان لى « عليه السلام » وكان ، اذا آخذه أحد بشيء أو لفته الى خطأ وقع فيه ، يقول له : « رح رح ماذا قرأت أنت وماذا تعرف ؟ » . وانا أزعم أنى واسع الاطلاع ومن حق هذا أن يوسع الروح والصدر وأن يفضى الى التطامن والتواضع وأن يشعر الانسان ضآلته . ان عالم الكتب أوقيانوس وليس القارىء الا مغترفاً بالراحتين من عبابه الزاخر ، وللذى يصل الى فمه أقل مما يتفلت من بين أصابعه ، وللذى يبلغ الحلق أقل مما يسيل على جانبى الفم ، فما حق من يغتر ؟ أبأنه يستمد من اللجة الطامية ؟فكيف لو أنه كان يعدها ويصب فيها ويضيف اليها ويزيد عليها ؟ بل كيف لو أنه كان « نيلا » طويلا عريضاً جائش التيار لا نهيراً صغيراً ولا جدولا ضئيلا ؟

لذلك أسفت كما قلت فاعتذرت ، وقلت :

« ليس الذى يعنينى من الرواية أن فلاناً أو علاناً هو الذى كتبها ، وان كان اسم الكاتب المعروف بالتجويد والبراعة من دواعى الثقة وبواعث الاطمئنان الى أن وقت القارىء لن يضيع فى كلام فارغ ، ولكنما الذى يعنينى هو هذا السؤال : « هـل

أعانتنى الرواية على فهم شيء أو اغتفار شيء ؟ » أو سؤال آخر كهذا مثلا « هل استطاعت هذه الرواية أن تكشف لى عن وجوه من الجمال لم أكن أراها أو أفطن اليها ؟ أو هل أوقدت لى ناراً يدفأ بها ما ابترد من الايمان بشيء ما ؟». أما الحكايات فكالألفاظ ، فى طريقنا جميعاً . »

فهز رأسه كالموافق وابتسم وهو يسألنى :

« وماذا جعلتك هذه الرواية تغتفر ؟ »

فعجبت له لم لم يسألنى عن الجمال الذى أرتنيه أو الجلال الذى كشفت عنه أو النار التى أوقدت .

وقلت : «ياصاحبى، ان الامتحان يوشك أن ينقلب اعترافاً، وتوشك أنت أن تصبح قسيساً »

فلم ينكص وقال :

« ما أعرفك تنتظر القسيس لتعترف له . فهات ماغفرت » .

قلت : « غفرت لأبى »

قال : « لأبيك » ؟ وقهقه حتى كاديسقط عن كرسيه فسألته :

« ماذا يضحكك ؟ ألا تشركنى معك ؟ »

قال وهو يرد الضحك : « أتغتفر لى اعترافى إذا أفضيت به اليك ؟ »

فاشتقت إلى المعرفة وبذلت له الوعد المطلوب فقال :

« لم أكن أعرف أن لك أباً »

وأغرب فى الضحك مرة أخرى وأنا أكاد أتمزق من الغيظ .

ثم استوى على كرسيه وبلع ريقه وقال :

« لست أقصد إلى النكتة ، وانما أعنى أنى لا أقرنك فى ذهنى بشخص آخر ، ولست أذكر أنى تصورتك قط طفلا تحبو وتدرج وتشب ، طفلا كسائر الاطفال من أبوين . . . لا تعجل فلست أقصد ان أتماجن عليك ، كلا . ولعل عذرى ان أباك مات وأنت طفل وانى عرفتك كبيراً ، وكثيراً ما يخيل إلى — حين تخطر ببالى — انك كنت أبداً هكذا ، ان وجهك لا يحدثنى انه كانت لك طفولة ، وربما توهمتك ـ وهى سخافة كما تقول — « مخلوقاً شيطانياً » — عوداً نابتاً فى صحراء الحيـاة من تلقاء نفسه ومن غير أن يزرعه زارع — مخلوقاً جاء إلى الحياة بفعل الجو مثلا أو بحكم تفاعل العناصر الطبيعية هذا ما عنيت . فهل تغتفر لى هذا ؟ »

ولا أكتم القارىء ان ايضاحه لم يسؤنى . ولقد حاولت أن أغضب وتكلفت أن أعبس فلم استطع ، وراقنى — على الرغم منى — أن أتصور أنى « مخلوق شيطانى » يخرج إلى الحياة من غير أن يكون مديناً بوجوده لانسان ما ، وبدا لى أن من الحطة أن أكون ابن أحد أى فرعاً من شجرة ، غيرى لا أنا ، أصلها ، بل ورقة على بعض أغيصانها الصغيرة ، وخيل إلى أنه أشرف أن يكون الواحد هو أصل نفسه ، وأن يكون آدم ثانياً يخرج منه جنس انسانى جديد ، وابتسمت وقد تذكرت كل ما كان.

من بلاهتى وغفلتى فى الحياة ، وجهلى بالدنيا ، وكيف انى كنت كآدم حين خرج من الجنة أو هبط منها إلى الارض — فما أدرى موقع هـذه من تلك على وجه التحقيق — وكيف كنت أنظر إلى كل ما حولى معجباً مفتوناً ووجلا خائفاً متردداً كما كان يفعل آدم على الارجح ، وقلت لنفسى ما أصدق من قال ان المرء يعيد فى نفسه سيرة الجنس الانسانى كله ، ويمر مذ يخلق إلى أن يشب بالادوار المختلفة التى قطع الجنس مراحلها ، فما أسرع ما يقطع المرء هذه المراحل التى قضى فيها الانسان آلافاً وآلافاً من الاجيال الطويلة والحقب المديدة !

وطال صمتى ووجومى فنبهنى صديقى إلى وجوده وأعاد على سؤاله فقلت :

« لست محنقاً يا صاحبى وأنك لأذكى مما كنت أظنك وأظرف أيضاً . »

قال وقد ارتاح إلى ثنائى عليه وهش لاستظرافى له :

« أفلا تحدثنى ماذا غفرت لابيك »

قلت « أن جاء بى »

ويظهر أن هذا آخر ما كان ينتظر ، وكأنى به كان يتوقع أن أقص عليه حكاية ممتعة ، فقال : « انك تخيب الأمل »

قلت : « ان الحيـاة جميلة فاتنة رائعة — هـذا ما أعنى

وليست كما يهمس اليأس حين تخور النفس وتفتر ، ولهذا اغتفرت لأبى أن زل بى »

قال : « وقسوة القدر ؟ »

قلت : « لا قسوة ولا شبهها . ان للحياة قانونا لا تملك أن تخالفه . ولو أن الحياة تنطق لشكت الينا اضطرارها الى التزام هذا الآيين (١) وتحريها مقتضياته فى كل مادق وجل ، ولكن الحياة — على كل نطقها فى مظاهرها — خرساء ، لا تشكو ولا تتبرم . وتصور أن قوانين الحياة تغيرت تبعاً لشهوات كل انسان وأهواء كل نفس ، أتراها كانت تعود أرحم وأرأف ؟ »

قال : « لا أظن ! »

قلت : « إذن لتحطمت الدنيا بل الكون كله ، ولفقدت الحياة سحرها ولخسرت النفس هذا الاحساس بها، وليس يشكو قسوة القدر إلا الذى يكون شعوره بنفسه أطم وأقوى من شعوره بالحياة والدنيا ،أو الذى يتوهم أن الدنيا خلقت له وليس هو مخلوقا للدنيا ، كلا . ليست الحيـاة ظالمة ولا القدر قاسياً ، وانهما لرجيمان . ولقد أوتى كل مخلوق القدرة على التكيف ،ففى وسعه أن يكون وفق مطالب الحياة ، وهذا يعادل عندى ما يبدو لنا من صرامة الحياة وعنت المقادير . نعم كانت تـكون صارمة لو كنا جامدين لا نملك التحول ولا نستطيع التـكيف

(١) الآيين : القانون

حسب ما تقضى به ظروف العيش »

قال : « ولكن فى لهجتك مع ذلك أسفاً ومرارة لا يتجاوبان مع فكرة الهش إلى الحياة والافتتان بها »

قلت : « الأسف على ما أنفقت من عمرى فى قراءة كتب هؤلاء المخرفين من الساخطين على الحياة والناقمين منها أنها لم تنزل على مشيئاتهم ، وأما المرارة فلأنى لم أفطن إلى هذا إلا بعد أن ولى الشباب وذهبت القدرة على الانتفاع بالعيش . »

قال : « ألا ترى أن هذا من سخر الاقدار ؟ »

قلت : « ماذا ؟ »

قال : « أن تكون الحياة مدرسة يقضى المرء حياته فى التعلم فيها حتى إذا حذق الدرس كان العمر قد تقضى فلا خير فيما تعلم ؟ »

قلت : « قد كان هذا رأيى أيضاً ولكنى صرت لا أدرى . وكيف يمكن أن يكون الامر على خلاف ذلك ما دام المرء لا يصدق إلا نفسه ولا يتعلم إلا من تجاربه هو ؟ والشباب غير الشيخوخة — الشباب هو وقت « فيضان » الحياة ، فهل تستطيع أن تقيم السدود فى وجه السيل الجارف والفيضان الطامى ؟ انه يهدمها ويأتى عليها ويبعثر نفسه ويبدده فى الجبال وعلى السهول ويقذف معظمه فى البحر الذى لا يزيد به ولا يحتاج اليه . حتى إذا أنفق هذا الفيض هدأ واستقر وأمكن أن تفيد السدود وتنفع الحواجز — كذلك الشباب يا صاحبى »

قال : « وهل فى هذا عزاء ؟ »

قلت : « عزاء ؟ أى عزاء ؟ إنى لم أكن أبين وجه التأسى، وإنما كنت أقول، إن قانون الحياة واحد — وأنه لا يحابى وأنه يستوى حياله أن يكون الشيء إنساناً أو حيواناً آخر أو نباتاً أو جماداً أو غير ذلك إن كان هناك غير ذلك »

قال : « ألم يأن أن نرفع الجلسة ؟ »

قلت « آن ذلك جداً »

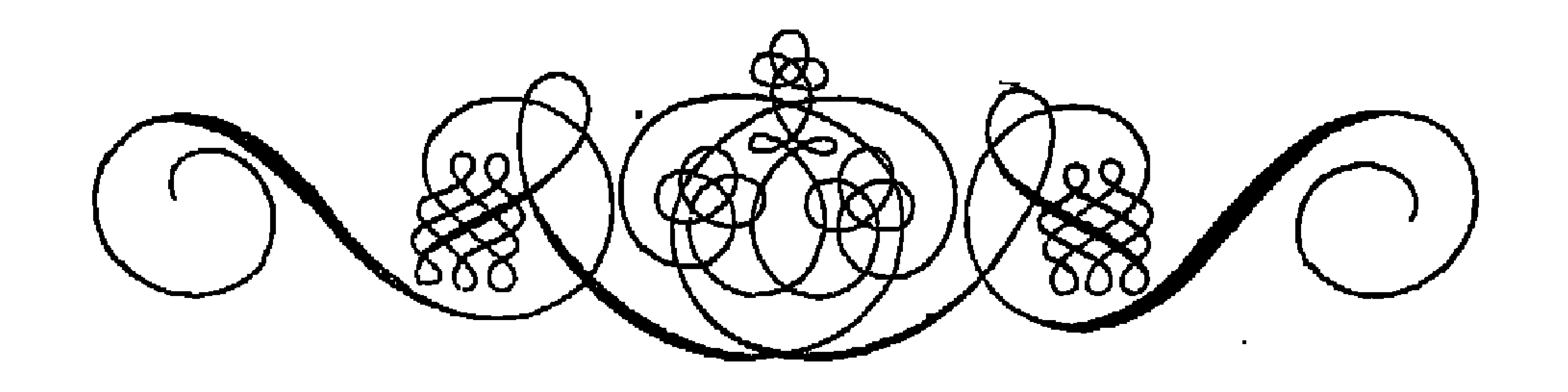
ونهضنا إلى الحديقة فسألته وأنا أناوله زهرة :

« كيف كان ما شهدت من الامتحان ؟»

قال : «لا أدرى.سوى أنى خرجت من مجلسه بنفس مرة.»

قلت : « إنى أحاول أن أواجه الحقائق لا أكثر ... »

قال : « وفى سبيل ذلك تعالج أن تتجرد من الانسانية . . . تقوض بنيانك بيديك لتستطيع أن تقول لمثلى أنظر : إنى كنت مبنياً من آجر هذا صنفه ولونه ... يا صاحبى لأن تزداد كل يوم جهلا خير من أن يزداد علمك بما فى نفسك على هذا النحو .. أن الميزان الذى ينصبه الناس — بعضهم لبعض—على ما فيه من الخطأ الفاحش أرحم جداً من هذهالبوتقة التى تذيب فيها نفسك لتتبين الصافى من معدنها .. لا يا صاحبى خذ الحياة كما تجدها — كيفما اتفق — بابتسامة سخر واستخفاف إذا شئت ،أو ابتسامة رضى وارتياح إذا قدرت.ولكن هذا الذى تصنعه.. أوه ا كلا. الحياة هون من ذلك .. »



كيف كنت عفريتاً من الجن .....؟!

كان ذلك وأنا فتى يافع أسوم كل سرح ، وأنهز بكل دلو ، ولا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها ، ولا أبغى إلا أن استوفى حظى من الحياة وأن استوثق من أن كرعتى منها روية . وفى ليلة من ليالى الصيف الحميدة ، ثنيت الخطى إلى البيت — وكان فى حى « الصليبة » — بعد أن قضيت وطرى من شراب وسماع ، فلما بلغته ووقفت على عتبته ، ذكرت أن ليس به أحد سوى جدتى التى أوفت على التسعين ، وان المفتاح ليس معى فقلت لنفسى «أيليق أن أزعج الجدة وهى تقوم بجهد ولا تسير إلا إلى جانب الحيطان لتضع يدها عليها وتسند نفسها ؟ كلا ! أولى بى أن أدعها مستريحة وأن ألحق ببقية الأسرة — أمى وأخى — والجو رائق والمشى منعش . »

وأوليت الباب ظهرى وانصرفت . ولم يكن الطريق إلى الأمام — فى تلك الايام — معبداً ، ولا ترام هناك ولا نور ،

فليس طريق بأحسن أو آثر من طريق، فاخترت أقصر مسلك وهو
الذي يمر بمسجد « السيدة نفيسة » ويخترق المقابر المبعثرة وراءه
ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره ، ومضيت أخبط فيه،
وأتخبط أيضاً لأن كثرة المقابر وانتثارها وتزاحمها تضل ولا
سيما فى الظلام ، غير أنى لم أكترث لذلك ولا فكرت فيه ،
وفوضت الامر لرجلى تدبان حيث ألفتا أن تدبا فى أوقات شتى
من النهار والليل ، وانطلقت أفكر فيما كنت فيه وأردد ما
راقنى سماعه وأرجع ما شجانى من الانغام،وأعيتنى «مقطوعة»
وأحسست أن المشى لا يعيننى على ضبط الصوت فيها وإخراجها
كما ينبغى فوقفت وأسندت ظهرى إلى قبر وذهبت أغنى! وهى
صورة لا تزال ماثلة بذهنى إلى هذه الساعة وإن كنت فى ليلتى
تلك لم ألتفت اليها ، ولا جعلت بالى لها ، وماذا يعبأ شاب ثمل
بالقبور وما انطبقت عليه ؟؟ وعلى أنه متى كان المرء فى صدر
العمر يفكر فى الموت على أنه حقيقة قريبة لا مهرب منها ولا
معدى عن مواجهتها ؟؟ ان الانسان منا ينظر فى شبابه إلى
الموت ـ حين يجريه شىء بباله ـ كما ينظر إلى شىء وراء الجبل ـ
لا يفهمه ولا يدركه ولا يعرف كنهه ولا يتصوره إلا على انه
المجهول البعيد . ويشغله صعود الجبل وما يلقاه على هذا الجانب
منه وما يفتنه وهو يتوقل حتى يدنو من القمة فتتزاحم فى رأسه
الخواطر والتكهنات عما وراء هذه الرباوة التى قضى الشطر الجميل

من حياته فى الصعود اليها ويحضر إلى ذهنه شيئاً فشيئاً معنى الموت ومؤداه ثم يستبد بخاطره ولا يفارقه ، ويكون الاصعاد قد هد القوى كثيراً وأنهك الجسم فيتبلد إلى حد كبير من فرط التعب ويواجه فكرة الموت فى شىء من الذهول يذهب برهبة الفناء ويسلبه الفزع .

وقفت اذن أغنى على القبر وأرسل الصوت فى ظلمة الليل غير حافل بما حولى من القبور المتزاحمة أو عابىء بما تحتى من الرفات الدفين — رفات أقوام كانوا مثلى فى ميعة العمر وعنفوان الحياة وجهل الشباب يمرحون ويغنون ولا يفكرون فيما يصير اليه كل حى من الفناء الشامل . وما فتئت إلى هـذه الساعة أعجب لذهولى ذاك عن الموت وأنا فى وسط لجته الراكدة ! ان الشباب رحمة ! وكيف كانت الحياة تكون لوأن فكرة الموت كانت تخامر النفس من المهد إلى اللحد ؟؟ كان حريا بها اذن ألا تطاق ! وكان خليقاً بالمرء أن يكف عن كل سعى وأن ينفض يده من كل جهد يبذله فى سبيل أية غاية بالغة ما بلغت من السمو والفتنة ، وما خير الحيـاة أو جدوى المساعى أو عزاء الغايات وهذه الهاوية مفتوحة لابتلاع الانسان ؟؟ ان الموت هواليأس ومن رحمة الله بالخلق أن الحيـاة أقوى ، وأن احساس المرء بها أعظم وأن وقعها فى نفسه أشد وان استيلاءها عليه أتم ، والشباب قوة دافقة ، والحيـاة معه تكون جديدة ، فلها كل

حلاوة الجدة وسحرها ولـكنها فى الـكهولة تكون شيئاً مألوفاً وتجارب معهودة معادة ، ومن هنـا لا يحس الانسان بالفزع حين يخطر له أنه سيكف عن هـذه الحياة التى ظل يذوقها حتى كاد يجتويها ، ولولا أن الحياة عادة كـكل شىء فى الدنيا ، وان المرء يألف أن يعيش وأن يتنفس الهواء لما استثقل أن يموت وأن ينقطع عن الدنيا ، فالعادة والخيال الذى ينمو مع العمر ، والاحساس بالنفس — هذا هو الذى يجعل الموت صعباً ويجعل لمفارقة الحياة ألماً . وعلى خلاف ذلك ، الأطفال والحيوان .

وبينما أنا واقف أغنى لمحت شيئاً مقبلا ولم أشك فى أنه رجل ، فما تجرؤ المرأة — إلا فى الندرة القليلة — أن تسير بين القبور فى الليل ، فكففت عن الغناء وساورتنى الشكوك . وخطرلى أن القادم قد يكون لصاً ، وقد لا يكون ذلك ولـكن وحشة المـكان وسكون الليل قد يغريانه بالتلصص . غير أنى طمأنت نفسى ، وقلت : وماذا أخشى وليس معى شىء يستحق السرقة ؟ ان هى إلا بضعة قروش لاتغنيه إذا فازبها ولا تفقرنى إذا خسرتها ، وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج ، وما أحسبه يستطيع أن يدركنى إذا أطلقت ساقى للريح ، فلا خوف من القادم ، وليكن من شاء ، وليس من الحـكمة أن أدع الخوف يشيع فى نفسى فتظهر دلائله فى صوتى وحركاتى فيطمعه ذلك فى ، ان كان رجل سوء ، على أن

الحزامة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزو ، لأراه دون أن يرانى ، ولأعرف ماذا هو ، وليسير أمامى وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان .

ودنا القادم فاذا هو شيخ كهل ، أبيض اللحية وفى يده سبحة ، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أولا أدرى ماذا كان يتمتم وبأى كلام كان يحرك شفتيه ، فغاظنى أن هـذا الشيخ الضعيف قد أفزعنى، وكأنما تحركت نفسى للانتقام منه ، فغافلته فى بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر فريع المسكين وكاد يتهافت إلى الارض ، وأسرعت فتواريت وعدت أدراجى مسافة قبر أو قبرين — أى بضعة أمتار — وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئاً ولا يسمع حساً فشد بعضه إلى بعض وتفل يمنة ويسرة ورفع صوته بالاستعاذة من كل شيطان رجيم واستأنف التلاوة والسير، وأنا أتسلل بين القبور وراءه ، وصارت خطاه أسرع ، فأدركت أن الخوف لا يزال فى قلبه ، ووثبت إلى جانبه مرة أخرى ، ومددت يدى بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت ، ودرت من وراء القبور فسبقته وأنا أكاد أجن من السرور والجذل ، وصدرى يكاد ينفجر بالضحك المكتوم ، وصبرت حتى مر بى فدفعت يدى إلى خصره ودغدغته ! فأقسم لقد وثب الرجل عن الارض كأنما كنت قد غرزت فى جنبه سيفاً أو حديداً محمياً ! ورأيت فرصتى سانحة — فقد بلغ

الاضطراب بالرجل غايته ، وصار يخلط فى كلامه كالذى لا يعى ما يقول ، فكان يصيح « أعوذ بالشيطان من ..... » من فرط ما أصابه من الفزع . وجئته من ورائه ورفعت صوتى بالزمزمة وبكل ما أستطيع اخراجه من الاصوات المنكرة فانطلق الرجل يعدو . . . ! ؟

وهكذا أفلت منى ..! وكنت قد تعبت فلم أحاول أن ألحق به ، فشيت متمهلا ونفضت التراب عن ثيابى وخرجت إلى الطريق العام المطروق . وبعد قليل — ربع ساعة أو نحو ذلك — بلغت مسجد الامام الشافعى . وكان المؤذن يمهد للأذان بغناء سخيف والنـاس يخرجون إلى المسجد ليتهيؤا لصلاة الفجر ، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبى الشيخ وهو يقول لهم :

« وكان كالقط الاسود ، يثب على كتفى ويلحس لى خدى وينفذ من بين رجلى ، ويدخل بين الجبة والقفطان ، وكنت أستعيذ بالله فتنشق الارض ويغيب فى جوفها ، ولـكنه كان يعود فيظهرلى ، أحياناً فى صورة الدبة راكضاً على يديه ورجليه ، وأحياناً أخرى فى مثل كفن الميت خارجا من تحت أحجارالقبر ، وقد تمزق اللثام عن وجهه وبرزت عيناه تقدحان بالشرر فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتف الوجه فى خرقه ويهوى الجسم إلى جدثه. ولست أنسى ماحييت أسنانه ! لقد كانت كالجمرات لامعة حمراء وكانت تضطرب فى فمه وتخفق كالنجوم ! والحمد لله الذى أنجانى من عناقه . . »

فقال أحدهم « أتراه هم أن يعانقك ؟ »

فقال الشيخ « هم ؟ هم يعنى ماذا ؟ أقول لك انه مد ذراعين كأنهما مأذنتان ودنا منى ليطوقنى بهما ولمع الشوك الذى فى صدره كأسنة الحراب فلولا أن ألهمنى الله أن أقرأ آية الكرسى لكنت أنا الذى مت ! »

قال آخر « وهل مات ؟ غريب ! »

فقال الشيخ « لقد احترق. حرقته آية الكرسى. ثم استأنفت السير حتى بلغت هذا الطريق عند ... »

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذى نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرنى وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلى بيده :

« أهه . . أهه . . أهه . . »

فلم يفهم أحد سواى معنى صيحته واشارته ، ورددت الضحك الذى ازدحم فى حلقى والتفت ورائى كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير، وكان الرجل يتراجع ويلصق بالناس فسأله بعضهم :

« أين ؟ انا لا نرى شيئاً ! »

فمسح الشيخ وجهه بكفه وفاء إلى الهدوء وقال :

« غريب ! غريب ! ان هذا الافندى يشبهه جداً »

فلم أر مانعاً من الضحك وقات

« أترى لى وجه عفريت ؟ »

وكان بين الواقفين رجل أعرفه ذكياً خبيثاً ويظهر أن الشك

خالجه فى الحكاية أو انه فطن إلى بعض الحقيقة ، فقال لى :

« اسمع . من أين جئت ؟ »

قلت — وقد أدركت ما يرمى اليه — « جئت من هذا الطريق »

وكان هذا كذباً أو بعض الحقيقة . ولكنى خفت أن يجر الصدق إلى الفضيحة .

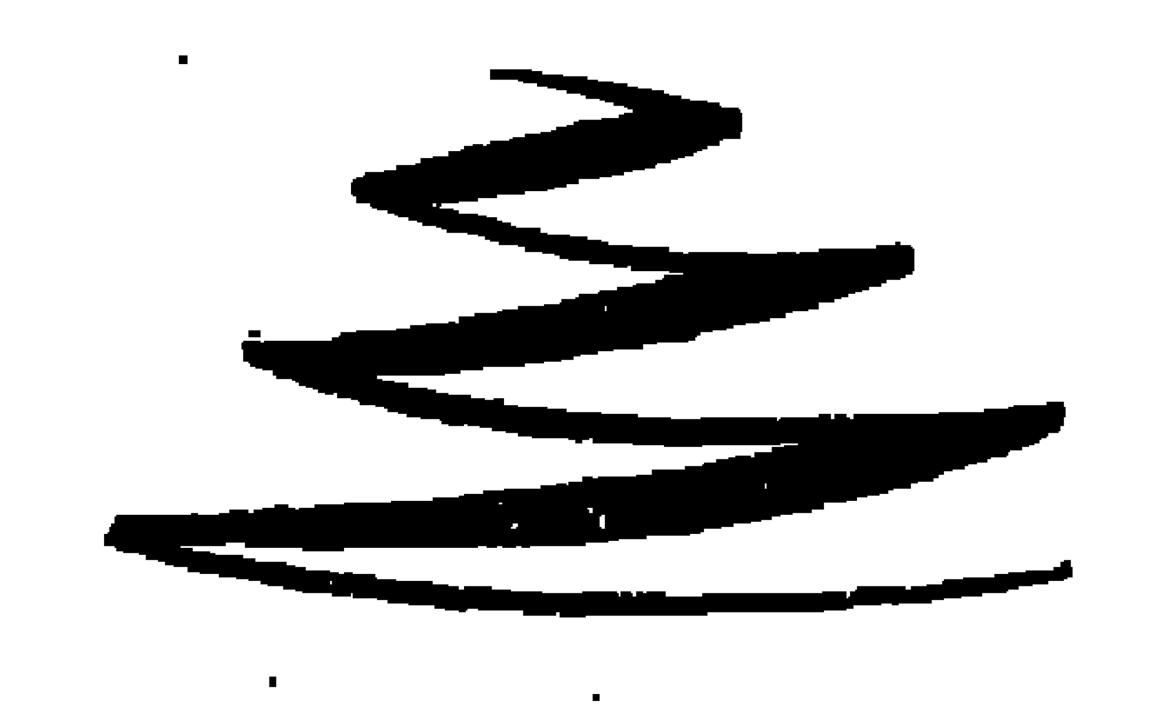
فعاد يسأل :

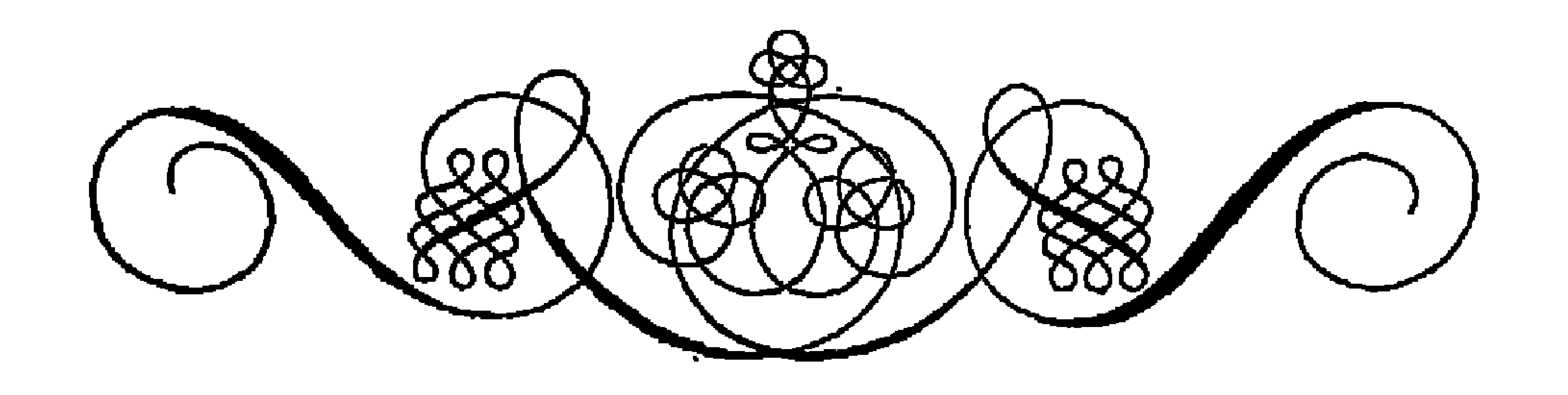
« هل جئت من السيدة نفيسة أو من القلعة »

قلت « من القلعة ولا شك . ومن الذى يجرؤ أن يمشى بين القبور ؟ »

فتمتم شيئاً لم أسمعه ومضى عنى ونجوت .

وهكذا عرفت أنى كنت فى لياتى تلك عفريتاً من الجن !





الغناء المصرى والتجديد

دعانى صاحب لى إلى سماع وقال : إن هذه الآنسة تغنى أصواتا جديدة لا شك فى أنها ستفوز باعجابك ، وكانت أذنى قد صدئت فلبيت الدعوة ، فأما الصوت فجميل أو هو إذا شئت ملائكى ، وحظه وافر من العذوبة والصفاء ، والقوة والامتلاء ، وأما التجديد فكل ما بدالى منه هو محاكاة فى بعض المقاطع للتنغيم التركى أو الافرنجى ، وخروج ببعض الألحان عن الأوضاع المصرية القديمة . وسألنى صاحبى : « كيف ترى هذه الطريقة الجديدة ؟ »

قلت : أتعرف شيئاً عن الشعر ؟

قال : قليلا أو أقل من القليل .

قلت : ما أظن بك إلا أنك تعرف — بالغاً ما بلغ جهلك بالشعر — أن البيت فى القصيدة العربية وحدة تامة المعنى والمبنى ، قد يربطه أو لا يربطه شىء بما بعده أو ما قبله . والقصيدة فى

الشعر العربى عبارةعن وحدات شتى لا يجمعها إلا الوزن والقافية وإلا علاقة كل منها بالغرض الذى نظمت فيه القصيدة ، وعلى عكس ذلك القصيدة فى الشعر الغربى فان البيت فيها أو «السطر» كما يسمونه ليس بالوحدة ، ولا استقلال له ولا انقطاع عما يسبقه أو يليه ، وإنما هو جزء من كل ودرجة من درجات السلم ، والقصيدة مجموع متناسق ووحدة متجاوبة الأجزاء ، وقد كان من أول دلائل التجديد فى الشعر المصرى أن عدل الشعراء عن اعتبار البيت وحدة قائمة بذاتها وكلا تاما مستقلا عما عداه ، وجعلوا القصيدة هى الكل الذى تتساير أبعاضه إلى الغرض الذى قيلت فيه ووضعت له . وقد كان من نتائج ذلك أن خلا الشعر العصرى من التفكك الذى كان من أظهر عيوب المقلدين ، ولولا ذلك لما استطاع الشعر المصرى أن يتزحزح عما كان يلزمه إياه جمود المقلدين وعبث المتكلفين . وكيف كان يسع الشعر أن يتقدم أو تدب فيه الحياة لو أنه بقى مجموعة من الأوصال المفككة والأشلاء المبعثرة ؟؟ والشعر كـكل كائن حى ، ولو أنا أخذنا رأس رجل فغرزناه بين كتفى رجل آخر وأقمنا ذلك كله على ساقى إنسان ثالث لما وسعنا أن نخرج من هذه الأشتات الملفقة آدميا حيا ، وإنما الانسان إنسان بالحياة الشائعة فيه والدم المتدفق فى عروقه وشرايينه وكما أن الرأس وحده أو الساعد أو الصدر أو القلب ليس بالانسان ، بل الانسان هو «الجملة» بما تنطوى عليه

من الحياة ، و« الكل » بما هو شائع فيه وفائض به من الروح كذلك البيت المفرد من القصيدة لا ينبغى أن يكون الوحدة ، وإنما الوحدة القصيدة كلها بما تنطوى عليه ويندمج فيها .

والغناء عندنا لا يزال يعالج أن يقطع هذه المرحلة التى جاوزها الشعر ومضى يعدو بعدها ، والمقطع هو وحدة الغناء . والمغنى لا يزال يمزق أوصال الدور أو القصيدة أو الموشح ، ويغنيه مقاطع مقاطع يعرض كل واحد منها على حدة، ولا يعدها حلقات فى السلسلة أو أجزاء من كل متناسق متجاوب ، ولا سبيل إلى ترقية الغناء المصرى إلا إذا طرح الناس هذا الرأى وانصرفوا عن المقاطع إلى الجملة ، وإلا إذا جعلوا الصوت شائعاً فى الدور أو القصيدة كلها منظما لا بعاضها ، وعدلوا عن تلحينها مقطعة وتناولها أجزاء .

وكما كان نظم الشعر لهواً يتسلى به الفارغون أو يتخذونه أداة لاظهار مهارتهم فى اللعب بالالفاظ والعبث بالعواطف على طريقة المشعوذين « والحواة » — كذلك الغناء لا يزال هذا اللهو الذى تطلب به التسلية ويقصد منه إلى إبراز المهارة . فالمغنى يرفع الصوت بالجملة أو السطر بل بالكلمة أو الكلمتين أو الكلمات ولا يزال يصنع فيها ما يدخل فى مقدوره من النغم ، ويقلبها على كل وجه يؤاتيه عليه صوته : ويتلقى الناس ذلك بآهات الاستحسان وغيرها من وسائل الاعراب عن الرضى والرغبة

فى الاستزادة ، وكلما تلقى الناس المغنى بهذه المظاهر ، زاد هو افتناناً فى لىّ الانغام ، وارتجال هذه الالتواءات ، وليس يعقل أن يخرج من هذا اللهو المرتجل — أو المعد من قبل والذى يراد حسبانه مرتجلا — غنـاء صحيح وموسيقى صادقة الوحى . وسيظل الغناء عندنا عبثاً — مهما قلدنا فيه الأمم الأخرى — ما بقى — كما كان فى العصر الخالى — لهواً يراد به تسلية السكارى وفارغى القلب والعقل والذين يتكلفون حتى التظاهر بالطرب



حلم بالآخرة

— ١ —

وادى الاشباح

عدت من هياكل « الكرنك » (١) مكدوداً معفراً، وكان الجو دافئاً والسماء صافية لا أعرف لزرقتها فى غير « الأقصر » مشبها ، فغيرت ثيابى وبدالى أن خير ما أصنع - لأريح جسمى المتعب وذهنى المكظوظ - أن أركب زورقا أسبح به على النيل. ولما استويت فيه دليت يدى إلى الماء وانثنيت أفكر فيما رأيت وأستعيد ما شهدت ، ولكن صورة « سخت » فى حجرتها المظلمة أفسدت على هذه الكرة التى كنت أرجو أن أستمتع بها فى زورق على النيل، ومن ذا الذى يراها ولا تعود أبرز ما يطيف برأسه — رأس لبوة وجسم امرأة ، وعينان ليستا بعين امرأة ولا عينى سبع ، تحدقان فى الظلام وتبحثان عن الفريسة ، ذلك أنها هى الموكلة باتهام الارواح المذنبة فى الآخرة .

---

(١) فى سنة ١٩٢٤

وأغفيت وأنا أفكر فيها ، ورأيت وأنا نائم على النيل حلماً مضطربا كله تخليط على عادة الاحلام . وانقلب النيل نهراً آخر - ستيكس - نهر الأغارقة الذى تقول أساطيرهم ان الموتى يعبرونه إلى وادى الاشباح ، وآض الملاح الذى يجدف بى على النيل « شارون » (١) وإذا على الشاطىء حشد عظيم من الأموات يسوقهم « هرمز » بالعصا وهم يبكون ويولولون ويندبون الحياة التى خلعوا ثوبها ويبغون الرجعى اليها ولا يطيقون الحقيقة العارية الباقية التى صاروا اليها ولا يتعزون عن أحلام الدنيا التى كانت تفيض لهم على الوجود بريقا مستعاراً خادعا ؟ آه لقد ذهبت سماؤهم كلها مع تلك الاحلام !

وحشروا جميعاً فى الزورق الذى اتسع لهم جميعاً - الاطفال حزمة واحدة بلا سؤال أو مراجعة ، ثم الشيوخ والعجائز الذين لم يبكهم أحد ، ثم قتلى بعض المعارك فى جهات من الأرض لم أسمع باسمها فى حياتى - فما أحوج علم الجغرافيا الى بعثة تذهب إلى هناك - ثم رجل قتلته امرأة وعشيقها ، ثم الذين أفنتهم الحميات ومعهم طبيب هرم ، ودفع شارون الزورق على اللجة ، وتركنى على الشاطىء فاحسست بالوحشة وخفت أن أتعفن إذا بقيت وحدى إلى الغد فصحت بشارون أن يحملنى معه ، فأبى وقال إن الزورق غاص وليس فيه موضع لقدم ، فيئست غير أن واحداً من الركاب

(١) الملاح الذى ينقل الموتى على زورقه الى وادى الأشباح

أهاب بى أن ألقى بنفسى فى الماء وأسبح فقلت له انى لا أحسن السباحة وقد . . . أغرق !

فقهقه وقال : ماذا تخشى من الغرق وقدمت ؟

فرميت بنفسى فى الماء وعمت اليه ومد يده فجذبنى ودار بعينه فلم يرلى مكاناً فأطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال وهو يبتسم:

أنا أيضاً قلق فى موضعى هـذا ، فتعال بنا ننتقى لنا اثنين من هؤلاء المعولين المنتحبين نجلس على أكتافهما !

وفعلنا ودار شارون بالركاب يتقاضى أجرة النقل ، وتنبهت إلى ذلك فقلت لصاحبي : « ولـكنى معدم وقد جردونى من كل شىء لما مت فماذا أصنع ؟ »

قال « لا بأس عليك ! فما أنا بخير منك . فاسكت أنت ودع الامر لى . »

وجاء شارون يطلب الاجر . فقال له زميلى :

« ماذا تنتظر ممن ليس معه شىء ؟ »

قال شارون « كيف ؟ أهنـاك أحد ليس معه أجرة النقل إلى الوادى ؟ »

قال « لا أعلم ، ولـكننا هنا اثنان لا نملك مليما فأشر ماذا تأمر ! »

قال شارون « واثنان أيضاً ؟ وحق بلوتو أخنقكما ! »

قال زميلى « خذ الاجرة ممن بعثوا بنا اليك ! »

قال شارون « ولكنك كنت تعرف أن عليك أن تؤدى لى هذا الحق فلماذا لم تستعد لهذا قبل المجىء ؟ »

قال « لم يكن معى شىء . فهل كان ينبغى أن نظل أحياء وأن لا نموت من أجل ذلك ؟ »

قال شارون « أتريد أن تكون الوحيد الذى يحمل إلى الوادى بلا مقابل ؟ »

قال « كلا ! لست الوحيد فان لى رفيقاً ومؤنساً إلى جانبى كما بينت لك ، وعلى انا لا نحمل مجاناً ، فانا وحدنا دون جمعك هذا لا نبكى ولا نندب ، ثم إنا خفيفان لا نثقل زورقك ، واذا شئت عاوناك ولم نقاسمك الربح ولم نطلب منك الاجر »

قال شارون « لكن هذا لم يحدث قط من قبل فهو غير جائز ! »

قال « اذن ردنا إلى الحياة . »

فالتفت شارون إلى هرمز (١) وقال :

« من أين جئت بهذين الحمارين ؟ وانظر كيف يضحكان، على حين يبكى كل انسان ! لقد كان أولى أن يبقيا هنالك على ظهر الارض فما هما بجديرين بالموت » .

ومضى عنا وهو يسبنا ويتوعدنا بقبضة يده. فأسر إلى زميلى .

« ما أسخف وعيده ! أيموت المرء مرتين ويحمل على الزورق مرتين ؟ ؟ »

---

(١) هو الذي يتلقى الموتى ويذهب بهم الى شارون لينقلهم

ثم قال لى بعد برهة :

« لقد هبطت أنغام العويل والنحيب ، فما قولك ؟ أليس من الواجب أن نضطرهم إلى رفع طبقها ؟ » .

قلت « ولـكن كيف يسعك ذلك ؟ » .

قال « انتظر »

وتنحنح ثم انطلق يغنى

أقبل الليل علينا بدجاه فاسقنا ، فالعمر أيام الشباب !
غننا صوتاً كأمواج الحياه بين لين واعتلاج واصطخاب !

***

ولم يكد يفرغ من هذه المقطوعة حتى علا الصياح والنشيج . فواحد يقول « وأسفاه على ما خلفت ؟ » وثان يصرخ « ويحى ! سيبدد أخى ماورث عنى ! » وثالث يصيح « ألا من لصغارى ! » وهكذا .

ومضى صاحبي فى غنائه :

أقبل الليل فهات القدحا أو ليس العمر أيام الصبا ؟
غننا لحناً نديا فرحاً يطلق الاوصال من قيد الحجى .

***

وارقصوا بين المنايا واطربوا أو ليس العمر أيام النعيم ؟
وإذا ما لامكم مستغرب فدعوا اللائم يذهب للجحيم !

فدنا « هرمز » منه وأومأ اليه أن كف ثم قال :

« ان هذا لا يليق ! ومن واجبك أن تندب كالباقين »

قال مستغرباً « أندب ؟ أأندب الحظ الذى أتاح لى هـذه النزهة الظريفة ؟ »

قال هرمز « إن سلوكك شائن . فأرسل عولة أو اثنتين على الأقل فما يجوز أن تشذ عن المألوف »

قال زميلى « حسن . سأفعل »

ثم وضع كفه على خده وانطلق يصيح :

« وا آسفاه على ثوبي المرقع الذى لا يقى فى شتاء ولا ينفع فى صيف ! واحزناه على الحفى ، لن أجوب الطرقات بعد اليوم متضوراً من الصباح إلى المغيب ! ولن أنام على الافاريز وأتوسد الحجارة وأسنانى تصطك من البرد ! من ترى سيرث عكازى الذى كنت أتوكأ عليه ، ويختال فى مرقعتى التى كنت أخطر فى هلاهلها ! »

فمضى هرمز عنه ساخطاً لاعناً ورحنا نحن نضحك .

وانا لـكذلك واذا « بشارون » ينادى هرمز ويصيح به : ان الزورق يوشك أن يغرق من ثقل ما يحمل . فماذا يفعل ؟ فوقف هرمز كالأبله حائراً ، ووثب رفيقى وقال : « تعال ننقذ شارون فانا مدينون له . »

قلت : « ان الغرق شىء أفهمه وقد أحسنه . أما ما عداه فلا علم لى به يا صاحبى . »

قال : « ولـكنك تستطيع أن تمد يداً على الرغم من ذلك »

ثم قال لشارون : « اسمع . جرد هؤلاء الموتى مما يحملون وألق به فى الماء. أنزع هذه اللحى عن أصحابها، لقد كانت تنفعهم فى الدنيا أما هنا فهى مثقلة بالغش والتضليل . ودعاوى التقوى والوقار والحشمة »

قال شارون « صدقت » ونزعها جميعاً ورمى بها . « وماذا أيضاً ؟ »

— « ألا ترى هــذا الرجل الذى يبكى ويختلس النظر إلى من حوله ؟ »

قال شارون « نعم . ماله ؟ »

قال « أخرج من تحت أبطيه الـكذب والنفاق والدهان تتخلص من خمسة قناطير على الأقل . وهذه المرأة الجميلة ، عر وجهها وجرده من المساحيق فان وزنها يجاوز الطن، افعل وعجل . »

ففعل .

« وهذا الغرور الذى تنطق به عينا هذا الرجل ، ألا تحس ثقله ؟ انه يكفى شعباً بأسره ! »

« والفلسفة التى فى رأس هذا . انها أثقل من الحديد . ألق بها فى الماء . أسرع »

فأطارها شارون عن رأسه

« وهذا الأديب هنــاك . ماذا يصنع بكل هذه الألفاظ

والمجـازات والاستعارات والخيالات والسخافات ؟ إنها كافية وحدها لاغراق زورقك يا شارون »

قال شارون . « نعم يالله اأين كنت مخبئاً كل هذه الأثقال؟»

ثم التفت إلى زميلى وقال : « كفى كفى يا صاحبى! إن الزورق الآن أخف من الريشة . واحسبنى مديناً لك بانقاذ سفينتى . »

قال زميلى مقاطعاً « أمسك ، لا تثقلها مرة أخرى بشكرك إياى » .

وعدنا إلى مكاننا وانطلق الزورق خفيفاً يشق النهر ويفرق أمواجه الراكدة ودنونا من الشاطىء عندالفجر وحاذيناه فوثب صاحبي إلى الارض وأنا وراءه ،

ثم أهوى على الباب العتيق بحجر ضخم وراح يدقه كالذى يريد أن يحطمه فهب « أتروب » (١) وقد طار كراه وأقبل على الباب يتعثر فى مشيته ورمى مصراعيه وسأل من الطارق ؟

قال زميلى « أنا » .

قال أتروب «أنت ؟ أنت ماذا ؟ ماشأنك هنا ؟ ما اسمك ؟».

فال إلى زميلى : وقال « كأنما كنت شيئاً فى الدنيا فيعنيه أن يعرف من أكون » ثم التفت إلى الحارس وقال .

« ومن عسى أن أكون ؟ ؟ أتراك تتوهمنى بروميثيوس قد فك صفاده وجاء يعتق البشر من أسر الموت ؟ » .

---

(١) اتروب حارس الباب بوادي الاشباح

ثم لوح بيده مشيراً الى الركب الذى فى الزورق ورفع صوته مغنياً :

حى يا أتروب ألوان الصباح طلع الفجر عليكم بالرمم !
بين ندب وعويل وصياح جاء وفد الموت من كل الأمم

***

جاء وفد الموت يحدوه الدليل ويغنى سوطه فوق الظهور
ويميل الصف فى كل مميل وهو خلف الصف وثاب يدور

***

لست خيراً منهمو وأسفاه أو كان « الخير » إلا شططا ؟
غلط جاد به ، ثم أباه ، دهر سوء لا يعيد الغلطا !

***

بل يعيد الغلط المسترذلا ! أو ليس الناس أغلاطاً تعاد ؟
ولو ان الدهر شاء الأمثلا لخلت منهم قراهم والبلاد !

وكان هرمز وشارون فى خلال ذلك قد أفرغا حمولة الزورق ؛ فلما سمع الموتى هذه الأغنية تصايحوا وضجوا وهموا بزميلى ولكنه تلقاهم بابتسامة استخفاف وقال لهم : أيسوءكم أن يلحق بكم من خلفتم فوقها ؟

فارتدوا ساكنين ، وتقدم هرمز بورقة فيها بيان مجمل بعدد الموتى فتسلمها أتروب وبدأ يعد ثم كف وهو يقول :

« ماأظن ميتاً يفلت أو حياً يجىء قبل الأوان . إمض بهم يا هرمز إلى ساحة رادامانتيس (١) »

فساقنا هرمز أمامه ، وتقدم صاحبى الصفوف وسرت معه فى طليعتها وانطلق يغنى :

دارنا مغرب أنوار الحيـاة   من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى اليها من نجاة !   ما لما يغرب فيها من شروق !

***

وهى فى الأكوان دنيا عاقر   كل زخار له فيها ركود !
ضرب السحرَ عليها ساحر   فهىعنوان على عقم الوجود !

وطال بنا الانتظار على باب رادامانتيس إلى أن جاء دورى فتقدمت وزاحم زميلى فدخل معى ، ولما صرت أمام القاضى سألنى : ما اسمك ؟

قلت : « المازنى »

قال : « ماذا ؟ ال .. ال .. ماذا ؟ »

فلو كنت حياً لأحمر وجهى وقلت :

« المازنى . لقد كنت أحسب شهرتى قد سبقتنى »

قال : « دع هذا المزاح . من أين جئت ؟ »

قلت : « من مصر »

قال : « مصر ؟ ولماذا جئت الينا ؟ » .

قلت : « وأين كان ينبغى أن أذهب ؟ »

(١) قاضى الآخرة فى آساطير الأغريق

قال : « انك من أفريقية فاذهب إلى قسمك »

قلت : « من أين ؟ إن عهدى حديث بهذا الوادى »

قال : « لا بأس ! سيدلونك عليه . يا هرمز ارشد هذا التائه إلى سومبور »

فألقيت إلى صاحبي نظرة أسف على فراقه ، فجذبني إلى الوراء وأسر إلى : « سأذهب معك »

قلت : « ولكنك لست من مصر ! »

قال : « ماذا يهم ؟ من أنا حتى يعرفوا أمن مصر أنا أم من غيرها ! هيا بنا ! »

— ٢ —

بين أيدى القضاة

انصرفنا عن ساحة رادامانتيس ، وثنينا الخطى إلى الشاطىء — وكان «هرمز» قد سبقنا — وفى مرجونا أن يحملنا «شارون» إلى القسم الافريقى فألفينا هرمز وشارون مختلفين. يقول هرمز:

« لقد آن جداً يا شارون أن تؤدى إلى ، ذلك الدين القديم فما بقى لك عذر » .

فيقول شارون : « ما أحسبنى أنكرت قط يا صديقى أنى مدين لك »

فيهز هرمز كتفيه ويمط شفتيه ويقول « لشد ما نفعنى أنك لا تقصر فى الاعتراف ! هذه عملة لا أعرف أحداً سواى يقبلها، فهات ما عليك وأنكر إذا شئت أنك مدين لى . »

فيبتسم شارون ويفرك كفيه ويقول « ولكنك لم تبين لى قط مقدار هذا الدين . »

فيقبل عليه هرمز ويقول « ان البيان حاضر ، فليتك مثلى استعداداً لتقديم الحساب . المرسى والحبل بسبعين قرشاً ... »

فيقاطعه شارون « سبعون قرشاً. وحق بلوتو لقد خدعوك! أو أنت تضحك على شيبتى ! »

فينتفض هرمز واقفاً ويقول بصوت عال « أضحك عليك ! أنا ؟ أهذا جزائى منك ؟ لا مال ولا شكر ؟ »

شارون — « هون عليك يا صاحبى . فما إلى هذا قصدت. سبعون قرشاً اذن . وماذا أيضاً ؟ »

هرمز — « وأبر لترقيع القلع، وشمع لسد الخروق، ومسامير، وجلد للمجاديف ، بعشرين قرشاً »

شارون — « صفقة حسنة . وماذا . »

هرمز — « هذا كل ما أذكر ، تسعون قرشاً » وبسط يده

شارون — « الآن يا صديقى يتعذر على أن أنقدك هذا

القدر ، فان العمل قليل والربح ضئيل . لا وباء يفتك بالناس، ولا حرب تحصدهم ، ولكنى أعدك أن أؤدى اليك دينك إذا نشطت الحركة »

هرمز — متمعضاً — « الافضل عندى أن يظل دينك مطولا . »

ثم نظر الينا وقال « هيا بنا ! »

فقال شارون « هذان المفلسان ! لا عجب أن يعودا وأن ترفضهما حتى الجحيم ! »

فقال صاحبى « ألا تنقلنا إلى ... »

فقاطعه شارون ولم يمهله ريثما يتم كلامه «أنا ؟ أتراني جننت؟ اذهب أنت وصاحبك فما فيكما خير . »

وهكذا رددنا ، وذهبنا سيراً على الاقدام ، وجعل هرمز يشكو فى الطريق ويتسخط ويعرب عن تبرمه بحياته وكثرة الواجباب الموكولة اليه ،فهو يقوم فى الفجر ويعد المائدة السماوية ويرتب حجرتها ثم يقف بجانب زيوس ليتلقى أوامره وليؤدى رسائله إلى أصحابها النهار كله ،وفى الليل لا ينام بل يذهب بالموتى إلى بلوتو ويقف فى ساحة القضاء حاجباً ، ثم أنه يدرب الخطباء ويشهد الاجتماعات ويفعل غير ذلك أشياء يخطئها الحصر . حتى لقد كان يؤدى وظيفة الساقى لزيوس قبل أن يتزيا (زيوس) فى زى نسر ويخطف الغلام «جانيميد» ويتخذه ساقياً له،يأخذ من كأسه رشفة ،ومن شفتيه البضتين أخرى ، ويكايد به زوجته «هيرا».

وأخيراً بلغنا سهلا فسيحاً أمام « الـكرنك» وسرنا مسافة في ظل أشجار الليمون ، حتى خرجنا من تحتها ووقفنا مع آلاف الموتى من أمثالنا، وكان القضاة خمسة وقد جلسوا صفاً واحداً، فأسر إلى صاحبي أن تعال نشهد الرواية من أولهـا ، وجذبني وزاحم بي حتى صرنا إلى الصف الأول فسمعنا من عرفنا ممن حولنا أنه « سومبور » وهو رجل نحيل هزيل الجسم متهضم الوجه أسود العينين براقهما وفي يده زهرة من زهرات البردى، يقول:

« أيها الزملاء . ان « سخت » تنتظر ! »

فسرت في أجسامنا رعدة . ونودى الاول فتقدم وسمعنـا كلاماً كهذا :

سومبور — وهو يعبث بزهرة البردى — قل الحق الذى نعرفه ولا تحاول أن تـكذب . أهى الخمر ؟

قال الرجل — نعم

ديارناك — (وهو مديد القامة معتدلها كالجندى لا يلتفت يمنة أو يسرة ، وحول وجهه لحية كثة) :

« هل حوكمت من قبل على الشراب ؟ »

الرجل — لا يا سيدى

ممبرون — (وهو عريض الوجه لماع الجلد كأنما كان قد دهنه بالليل، يبتسم تارة ويتجهم أخرى وفي احدى كفيه قطعة من الذهب وفي الأخرى صورة صغيرة) ـ « كيف تقول ؟ من أى بلد أنت ؟ »

الرجل — من قرية اسمها ...

بوتا — (وهو قصير بدين أحمر الوجه أبيض الشعر له عينان كعيني الخنزير وأمامه ختم ذهبي كبير) : دع هذا وقل لنا لماذا ولعت بالشراب ؟

الرجل — لأنه عوض .

بوتا — لست أفهم . إنى أحب الكأس أو الاثنتين من الويسكى مشعشعاً بالصودا ولكن الافراط .. هذه هى المسألة.

الرجل — ان المسألة هكذا ، كلما ألح على الاحساس بالشقاء أفرطت فى الشراب ، وكلما أفرطت فى الشراب زاد إلحاح الاحساس بالشقاء

ممبرون — الحلقة المفرغة مرة أخرى

موروسكن (رجل مثقف مغضن الوجه على ذراعه قطة يمسح لها شعرها بيده الاخرى) — : وماذا عندك غير هذا على سبيل الدفاع عن نفسك ؟

الرجل — لا شيء . ولقد يخيل الى الآن بعد أن مت ، أنى كنت أستطيع أن أنقذ نفسى لو انى اشتغلت فى الدنيا بوصف السعادة للناس حين أحس أنا بالشقاء .

موروسكن — أتقصد انك كنت تريد أن تكون روائياً ؟ هذا جميل ، الحق أقول يا سومبور . انى أعتقد أن التفاؤل لا يزال يقوم فى الدنيا على قاعدة من مرض الفنان أو شقائه . أليس كذلك ؟

سومبور ـ قد يحلو لك هذا البحث . أما أنا فاطلب أصواتكم .

ديارناك ـ إن الشراب أفقد الدنيا جنديا . فيلقذف به إلى « سخت »

ممبرون — سخت .

موروسكن — ولكن الرجل يكاد يكون فنانا ! ان التماس السعادة ....

سومبور — ليس عندنا وقت لهذا . هاتوا بقية الأصوات .

بوتا — « سخت »

سومبور — خذوه اليها — بأربعة أصوات

***

وجروه إلى شجرة ليمون وهمس صاحبي فى أذنى : « جاروا ولم يعدلوا »

قلت — « ولكن موروسكن . . . »

فقاطعنى صاحبي « انه مغفل »

ونودى الثانى ، فتقدمت فتاة وسيمة شاحبة اللون مقدودة قد السيف ، ولكن عينيها ، على جمالها ، كالكهفين .

وقال سومبور — كم سنك يا هذه ؟

الفتاة — اثنتان وعشرون سنة .

موروسكن — قبل الأوان . قبل الأوان .

بوتا — لماذا مت ؟

الفتاة — فزعاً .

موروسكن — فزعاً ؟ ما أقسى هذا !

سومبور — من أى شىء ؟

الفتاة — من الشرطة .

ممبرون — آه أمنهن أنت ؟

الفتاة — نعم ياسيدى ! ولكن مهما كان ذنبي فقد شاركني فى إثمه رجل .

موروسكن — متأثراً — هذا حق وانها لمن الفظائع الكبرى أن يضع الرجال الشرائع وان يتحيزوا فيها لأنفسهم .

بوتا — ولكن ماذا دفعك إلى هذا ؟

الفتاة — زوجت رجلا كانت حياتى معه جحيما ثم أحبنى آخر وظننته (الرجل الموافق) ولكن الغريزة خانتنى ، ولقيت ثالثاً قلت لعله هو الموافق ولكنه لم يكن ، وهكذا حتى لم أعد أعبأ من يجىء ومن يروح وان كنت لم أزل أرجو أن أفوز « بالرجل » . . .

مورسكن — آه ؟ طلب الكمال والسعى إلى المثل الأعلى . .

بوتا — ماذا تقول امرأتى لو سمعتها ؟ ان لى فتيات . . دعوها ! اخلوا سبيلها .

ممبرون — ان روابط المجتمع تنفكك إذا أطلقناها . فلتذهب « إلى سخت »

ديارنارك — سخت

سومبور — صوتان يطلبان لها الخلاص ، وآخران يبعثان بها إلى سخت ، فعلى ان أوازن وأن أرجح أحد الرأيين : إذا أطلقناها فكأنا أبحنا الخطيئة ، فبأى وجه بعد ذلك ننهى الناس عنها ونزجرهم عن مواقعتها وننذرهم سوء المصير ؟ ان هذا يكون خطراً بيناً . نعم ان الرحمة والعطف يدركان النفس على مثل هـذه المسكينة غير أنا خلقاء ألا نطمئن إلى الصوت الذى يدعونا إلى الاشفاق ويغرينا بالرحمة . ولا أكتمكم ان نفسى لا تطاوعنى على الحكم عليها ، ولـكنى على الرغم من ذلك أحس أنى أكون منكراً لنفسى ومعطلا لسلطانى ومبطلا لوجودى إذا أعفيتها من العقاب . ونحن هنا قضاة الآداب وفياصلة الاخلاق ، أفننكر أنفسنا ونعطل وظائفنا ؟ ؟ كلا ! فبكرهى أقول «سخت» فلتؤخذ اليها بثلاثة أصوات . »

***

فسارت باسمة وان ظلت عيناها زائغتين ، وحطت على كتفها وهى سائرة حمامة بيضاء ، فأمالت اليها خدها .

وقال صاحبى : « جاروا للمرة الثانية . والحمامة شاهدى »

ونودى الثالث ، وكان إلى جانبى ، فرفعت اليه عينى وعجبت كيف يكون صاحب مثل هذا الوجه شريراً ؟

وسأله سومبور — ماذا جاء بك الينا ؟

الرجل — طردت عن كل باب ؟

موروسكن ـ يوشك أن يكون هذا ممتعاً . فماذا أنت . ؟

الرجل ـ أنا كالريح تهب بشجرة بعد شجرة

ديارناك — قل وأوجز لماذا طردت

الرجل — لانه لاخير فىّ . لانى جاهل ولا مزية لى إلا حب كل ماهو حى . لان كل من يلقانى يقول « إذا تقبلناه فقدنا القوة والمال ولم يبق لنا سوى الحب ، وما جدوى الحب ؟ »

ممبرون ـ انك عامل من عوامل الانحلال والتفكيك .

الرجل — كالريح أيضاً ـ هى التى تحلل وهى كذلك التى تؤلف وتجمع .

سومبور — وهل فى وجودك ما يعارض وجود القضاء ؟

الرجل — ان من يتقبلوننى لا يعودون يعنون بالحكم على شىء لان قلوبهم تكون أحفل بالحب من أن تفكر فى سواه .

ديارنارك ـ أنت متمرد

الرجل ـ كلا . ولكن حيث أكون لا يبقى محل للامر والنهى لان كل شىء يكون فى خدمة الحب .

بوتا ـ هذه فوضى .

موروسكن ـ انى معجب بك ، ولكنى أحب أن اطمئن . فقل لى : هل وجودك يضر براحة الحياة ونعيم العيش ؟

الرجل ـ ماهى الراحة ؟ وأى شىء هـذا النعيم ؟ أهما شىء

غير الايثار وكف الأذى وان يخفق القلب بالغبطة وأن . . .

موروسكن ـ دعنى من فضلك .

بوتا ـ ماذا يكون مصيرى لو أشركت الناس فى مالى ؟ وآثرتهم على نفسى ؟ كلا ! يا سيدى . ان خيراً للدنيا أن تفتح سخت فمها لتبتلعك .

سومبور ـ إذا بقيت أنت فلن يبقى محل لى ولقضائى .

ديارناك — ولا لجنودى

ممبرون — ولا لشرائعى .

موروسكن — ولا لراحتى ، فأنا آسف

وأجمع الخمسة على ان يلقموا سخت هذا المسكين .

***

قال صاحبى « لقد أصابوا ! »

قلت : « ماذا تعنى ؟ بأى حق يرسلونه إلى سخت ؟ »

فقال : « ليس هذا وقت الجدال ، فانهم يشيرون اليك »

قلت : « الى أنا ؟ »

والتفت إلى الخمسة فوجدت عيونهم على ، فتقدمت فى اضطراب ووجل .

وقال سومبور — من أنت ؟

أنا — أنا المازنى

بوتا ـ « أنت ماذا ؟ »

أنا ـ أقول إنى المازنى .

ديارناك ـ بأى لغة تتكلم ؟ أسرع .

أنا ـ انه اسمى .

موروسكن ـ مسكين ! ان صبرك على حمل هذا الاسم يرفع عنك أوزارك

أنا ـ ليس هذا ذنبى .

موروسكن ـ قد غفرناه لك فماذا أنت ؟

أنا ـ أديب .

بوتا ـ أديب ؟ إذن أنت عاطل وطفيلى

أنا ـ كلا . لقد قتلنى العمل وما كانت شكواى إلا قلة الراحة

موروسكن ـ اسمعوا ! اسمعوا !

سومبور ـ مهلا. أتيحوا له فرصة . بأى شىء كنت تشتغل

أنا ـ بالصحافة .

الجميع ـ الصحافة ! ؟

وانتفضوا جميعاً واقفين يشيرون إلى شجرة الليمون حيث وقف الثلاثة المقضى عليهم .

وقال سومبور ـ « سخت بالاجماع . »

ثم التفت إلى زملائه وقال : حسبنا اليوم هذا وأعفونى من شهود التنفيذ فلست أقوى عليه بعد هذه الصدمة .

***

ووقفت تحت الشجرة مع رفاقى الثلاثة أنتظر « سخت »، وإذا بصاحبي يجذبنى ويقول

« تعال يا أبله ! »

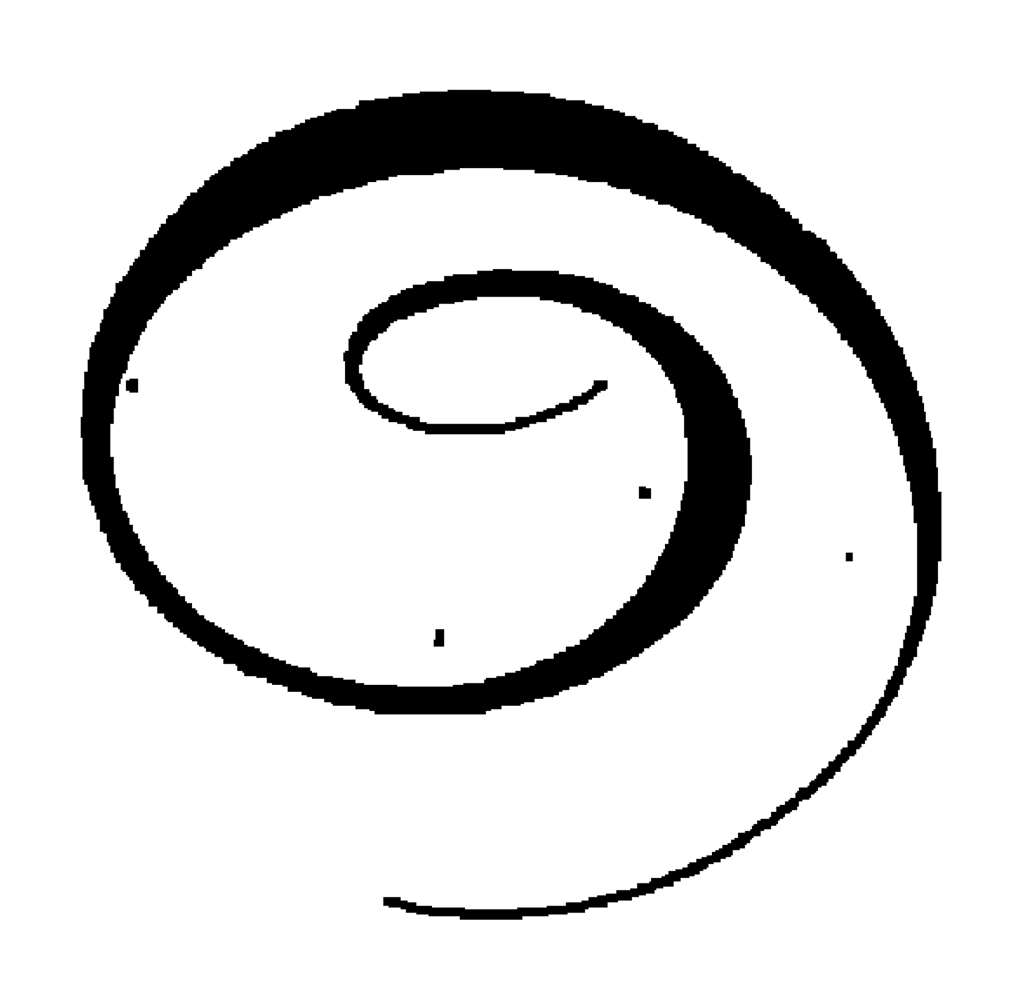
قلت « الى أين ؟ »

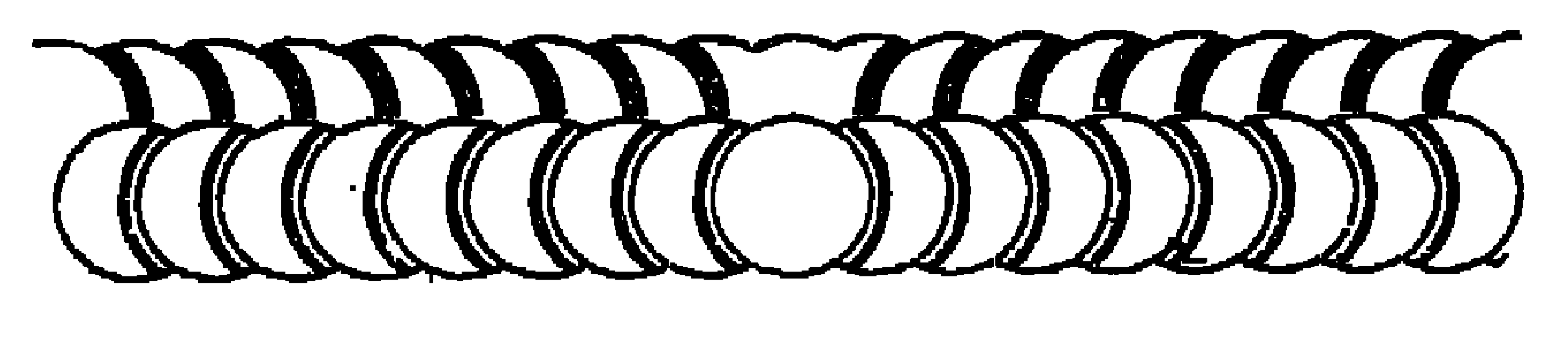
قال « ماذا يعنيك وقد نجوت من سخت ؟ »

قلت « نجوت ؟ كيف كان ذلك ؟ »

قال « لقد عز على أن تكون بين الفرائس فذهبت إلى حيث قيدوا « سخت ». فلما صار القضاة عندها سبقت الحارس فاطلقتها عليهم فالتهمتهم بدلا منكم . ولـكنى والله آسف على نجاه جارك ! على أنى على العموم أرانى أعدل من هؤلاء القضاة يرحمهم الله »

فأرسلتها صيحة فرح عالية فتحت عينى على النيل وحقائق الدنيا على شاطئيه ،





حلموس — رضى

هو حمـار مدلل أنيق الشكل يستعز به صاحبه « عادل » ويدعوه « حلموس » ولا يقبل فيه مسـاومة ، ولا يطيق أن تنظر اليه الا معجباً أو تذكره الا بالخير ، ويا ويل من يمتدح على مسمع منه حماراً غيره ! مثل هذه الجرأة الصفيقة أقل ما تجزى به ، الكرسى يهوى على أم رأس المادح الوقح أو على أى موضع آخر من بدنه يروق الكرسى أن يحطمه . والدنيا كلها لا تساوى الأرض التى يضربها «حلموس» بحافره وهو واقف أمام القهوة، ولجامه المحلى معقود الى برذعته ، ورأسه يعلو ويهبط ، والزبد الراغى على جانبى فمه الذى يلوك اللجام ، وعادل قاعد على كرسيه فى القهوة لا يرى سواه ولا يعبأ إلاه ، واذا أنس بك وأيقن من افتتانك بجمال « حلموس » مال اليك وفى عينيه لمعة الغبطة والزهو وقال :

« انه يعرف أنه جميل ويدرك أنه منى النفس وفتنة العين . ولا يخفى عليه انه مخلوق ليعشق ويدلل لا ليركب أو يجر العربات أو يحمل الاثقال ، ولو عاشرته مثلى لتبينت ذلك ولعرفت لغته.

نعم، فان لكل حركة من حركاته معناها ولكل التفاتة دلالتها ، حتى نهيقه ليس كنهيق الحمير غيره ، منكراً مزعجاً ، كلا . ووالله انه لأعذب عندي وأحلى فى أذنى من سماع «سى عبده» و«الماس» هو شكول وفنون وطبقات وضروب، ولكل منها سحره. كلا. ليس هذا من الحمير إلا فى الخلقة فما أعرفه أحب يوماً أن يتمرغ ويتعفر بالتراب ويحك جسده بالارض ، وياله من صناع ذكى ! انه ليكون فى أشد عدوه وأنا على ظهره ، وأراهنك أن أشرب القهوة فلا تندلق قطرة من الفنجان ، أرأيت ؟ ؟ »

ولسميحة أخت عادل مثل ولوعه بحلموس ، ولكنها أرق منه حاشية وأسجح خلقاً، وأصفى نفساً، فهى تسمى الحمار «رضى» ولا تزال تداور أخاها وتحاوره لينزل عن حلموس ويعتاض من هذا الاسم ما اختارت هى له . ولكن حلموس أعذب فى فمه وأحلى ، ولا سيما حين يمطه ويطيل الواو ، وكثيراً ما جلسا يتحاوران ويتحاجان، وهو يقول :

« يا أخت . جربى . جربى مرة واحدة . اسمعى . حالمو ووو س س ..» ويمسح للحمار خده الأيسر بكف كالرغيف، ويلصق خده هو بالخد الآخر ،

والحمار بينهما وهى تطل فى عينيه وتقول

« ولكن رضى . لضى . هذا أحلى . ما أجملك يا لضى ! »

وتقبله بين عينيه .

ولم تكن سميحة بالجميلة ، إذا ذهبت تعتبر الصورة والشكل ، ولم يكن يسع أحدا أن يقول أبيضاء هى أم سمراء ، ولعلها كانتهما جميعاً ، كالغمامة الرقيقة تكون كما تريدالشمس . وكانشعرهامثلها لاتدرى كيف تصفه . أهو أسود فاحم ؟ أم عسجدى قاتم ؟ انما تدرى أن خصله الوحفة تتهدل على جانبى وجهها الدقيق المعارف ، وأن رأسها الصغير الموقر بهذا الشعر الكثيف لا يفتأ يميل على كتفها هذه أو تلك كالوردة النضيرة التى تفتحت وأثقلها نضجها فناءت بما تفتحت له غلائلها وأن لم تثنها الرياح . ولها خال كان يكون أحلى وأفتن لو امتلأ خداها واحمرا ، وكان فمها واسعا كبيراً ولكن أسنانها الدقيقة « اللبنية » كانت كلما افترت عنها تفيض على وجهها ابتسامة الطفولة وتشيع فى محياها سذاجتها وعذوبتها ، وكانت عيناها حين تبتسم توقعان فى روعك ، أنهما على ما فيهما من ومض الجذل لا تزالان تذكران أنهما بكتا من قبل واسبلتا الدموع وانهما ستفيضان بالدمع مرة أخرى لا محالة .

كذلك كانت تبدو « لسعيد » وهو يرنو اليها فى فناء دارها وقد جلست القرفصاء على عتبة الغرفة وأمامها مصفاة فيها ثياب معصورة كانت تغسلها قبل أن يدخل عليها ، وكانت تهم أن تنشرها على الحبال فلما رأته أمسكت .

وقالت وعينها يلمع فيها نور الذكريات .

« لا أدرى ماذا أقول له وقد عاد »

فقال وهو يحدجها بنظره ويكاد يأكلها بعينه .

« أنه يعود بعد الاوان . هذا ما يجب أن يفهمه »

فثنت رأسها وصوبت عينها الى الارض وقالت .

« ولكنه يحبنى ياسعيد »

فقال من بين أسنانه .

« وأنا ؟ ألا أحبك ؟ ألم أنتظرك كما تنتظرينه ؟ »

قالت : « نعم نعم . ولكنى وعدته . »

فقال بعنف : « بأى حق يربطك هذه السنوات ويمنعك أن تمدى الى يدك أنا الواقف ببابك انتظر كل هذه السنوات ؟ »

نخافت ونهضت ودنت منه ووضعت كفها على كتفه وقالت.

« لا تغضب . انى أعلم . وليتنى أستطيع أن أقسم نفسى نصفين . انكما حبيبان أليس كذلك ؟ ويسوءنى أن تتجافيا وتقع بينكما النبوة . كلا ياسعيد . بحق حبك لى وحبك له من قبل... »

فقاطعها وقد طفح وجهه بمرارة الألم .

« كأنما لم أجعل نفسى له وقاء، ولم أكن أتعب وأريحه، وأشقى لأسعده ، كأنما لم يكن ينفق أجره كله ويقترض ويوقر ظهره بالدين ، وأنا أقتر على نفسى وأحرمها كل ما تطلب وأقضى عنه دينه وأحرر له رقبته من هذا الذل ، كأنما لم أكن أشتغل بدلا

منه وأؤدى نصيبه فوق نصيبي من العمل وأستهدف بذلك لكل ضروب المتاعب والوشايات . وأخيراً ... وأخيرا يجىء ليفتح القفص ويحمل العصفور ... »

« ولكنه يا سعيد لم يكن يعرف شيئاً عن هذا فكيف تلومه ؟ ؟ »

« لست ألومه ، ولكن ماذا أقول ؟ »

« لا تقل شيئا .. سألقاه وأخبره بما يجهل »

فكادت عيناه تخرجان وصاح بها .

« تخبرينه ؟ بماذا ، لا ياسميحة . ان فى هذا احراجا لى وله . »

فقالت كاليائسة ودقت بطن يمناها على ظهر يسراها .

« لست أرى مخرجا غير ذلك ، فماذا أصنع ؟ كلا كما .. »

فخطا اليها خطوة وحدجها ببصره وقال :

« أينا تحبين ؟ هذه هى المسألة . »

فتراجعت وأسندت ظهرها الى الحائط وقالت .

« والله لست أدرى . وأنك لأثر عندى فيما يخيل لى ولكن له فى عنقى عهداً وفى قلبي نوطة . »

قال وأومأ اليها بأصبعه : « احذرى »

فرفعت اليه وجهها وقد امتقع وغاض منه الابتسام وقالت:

« ماذا تعنى ؟ »

قال : « هـذا » وأخرج من جيبه مبراة ضخمة أشبه بأن تكون سكينا .

فصرخت وغطت وجهها بكفيها وقالت : « كلا لا تفعل . عدنى بأن لا تمسه بسوء »

فرد المبراة الى جيبه وقال : « هذا يتوقف على سلوكه » .

قالت ملحة متوسلة . « كلا . عدنى بغير شرط » .

قال : « وتكونين لى ؟ »

فاطرقت ثم رفعت رأسها وسألته بامحة .

« وإذا لم أكن ؟ »

قال بلهجة الحازم : « اقتلك وأقتله »

فأسرعت تقول : « اعنى لالك ولا له »

قال وفى صوته نبرة الألم المر والسخر الوجيع .

« أهذا لأنك تحبينه دونى ؟ »

ورمى اليها نظرة احتقار ووعيد .

ولم يكن سعيد يشك حين جاء فى أنها ستجيبه إلى ما يطلب وانها ستؤثره على ذلك الفتى ولكنه أساء اختيار اللحظة والمكان . وأنى له أن يعرف ان فناء دارها الحافلة بذكريات حياتها وبأحب ما فيها اليها — بأخيها و « برضى » — شر مكان يسألها فيه أن ترضاه بعلا أى أن تغادر هذا البيت بما فيه وبما يذكرها به ؟ ؟ وأنى له أن يدرك أن هذه هى اللحظة التى تنتظر فيها أوبة أخيها بحماره الجميل ، والتى تتلاقى فيها لحاظهما على ملهاتهما هــذه ويتصل قلباهما عن طريقه ؟ وكم مرت بها ساعات كرهت فيها البيت و « حلبوس » — كما تسميه حين تكرهه وتمل

حياتها — ؟ وكم ريعت كلما خطر لها أنها قد لا يكون خظها من الحياة سوى هذه المعيشة وما تؤدى اليه وتنتهى به من العنس والعقم وضيعة الشباب والعمر ؟ ولكن ماكان أقوى سحر البيت واتم استيلاءه على نفسها وهى واقفة مع سعيد تحادثه وتفكر فى أخيها وفى « رضى » وقرب أوبتهما . ورفعت وجهها إلى سعيد ولم يسعها إلا أن تعترف فيما بينها وبين نفسها انه هو أيضاً له سحره — سحر الرجولة القوية والنفس الكريمة ، وارتسمت على وجهها آيات هـذا الاعجاب . ولم يفت سعيداً أن يفطن إلى ذلك ، فلان ماكان متصلباً فى وجهه ومد يده فتناول كفها ، وكان ظنها أن سيثب قلبها من السرور ويطفر من فرط الغبطة ، ولكنه لم يفعل . لأن عينها فى تلك الهنيهة وقعت على المدود — المدود الذى يتناول منه «رضى» طعامه والذى اعتادت أن تقضى إلى جانبه نصف ساعة وساعة أحياناً واحدى يديها تقلب الفول أو الشعير وتدنيه من فمه ، ويدها الاخرى على عنقه المنسجمة .

وضحك سعيد ، فاحست ان ما يضحكه ليس هو الخليق أن يضحكها ، أم ترى أخذت عينها الجردل الذى تسقى فيه «رضى» ؟ ومد سعيد ذراعه وأحاط به خصرها وجذبها اليه فشمت رائحة ثيابه وانفاسه المشبعة بالدخان ، وشعرت بقلبه يخفق ، وقال وهو يضمها « أريد الجواب . تكلمى »

فهمت بالكلام ولكنها أحست فجأة بانها تحب هذا البيت
وغمرها الشعور بالحنين إلى كل ما فيه من الاحياء والاشياء حتى
الحصى الذى فى فنائه والحبال الممدودة بين جدرانه والصحون
والاوانى والثياب والفراش والكراسى ، فكاد قلبها يتمزق .
وأدارت اليه وجهها يائسة والتقت العيون فامحى كل ما فى الدنيا
ولم يبق ما يملأ الافق غير هذا الرجل القوى ، وقبلها ساعتئذ
وقال : « لقد انتهى الامر . أليس كذلك ؟ » .

فاستعذبت القبلة وودت لو لثمها مرة أخرى وثالثة ولكنها
على هذا كانت تتمنى لو أنه قبل فاها فى صمت ولم يقل شيئاً .
لقد أفسد كلامه سحر القبلة . وبكى قلبها حنيناً إلى البيت
وإلى أخيها الذى سيأوب بعد قليل وإلى « رضى » فى لجامه
المفضض وسرجه المحلى . غيرأن سعيداً كان يهوى على فمها وعنقها
وخديها بالقبل وهى غارقة فى هذه الاحلام وقد لان جسمها ،
وهو يهصره ويصف لها حبه وحياتهما معاً ويحدثها عن نفسه
وعن الجناح الذى كان أبوه «رضى» قد بناه له قبل وفاته ووعدها
أن يصلحه ليسكنا فيه .

فقالت سميحة : « رضى ؟ » وجاء هذا الاسم كالرقية من
سحر هذا الرجل، ورأت بعين خيالها « رضى » داخلا من الباب
وهى تعدو اليه تستقبله وتمشى به فى فناء الدار وتخلع عنه أشياءه
وتقوم فى خدمته .

ومضى سعيد فى كلامه فحدثها بآماله وقال لها فيما قال انه

سيدعو أول أبنائه — إذا جاء غلاماً — باسم أبيه « رضى » ، فانفجرت سميحة ضاحكة وأفلتت من عناقه وانطلقت ترسل الضحكات عالية مجلجلة وهو واقف ينظراليها ويعجب ولايفهم . وهى تتلوى وتتثنى وتعتدل . ثم أفاقت ودنت منه وكان لايزال مسمراً فى مكانه وقد تسور الدم إلى رأسه .

وقالت : « ألا تفهم ؟ ما أغرب هـذه المصادفة ! رضى . رضى ! » وعادت إلى الضحك .

فقال : « ماذا تعنين ؟ أى شىء يضحكك ؟ أتضحكين من أبى ؟ »

قالت مسرعة : « كلا. كلا. انها المصادفة. ألا تعرف حمارنا ؟ »

قال وزوى مابينعينيه : « حمارك ؟ ماذا أصابك ؟ أجننت ؟ »

قالت : «كلا. لاتغضب . لست أقصد إلى اهانتك . ولـكنك لا تدرى ان حمارنا اسمه رضى . أفهمت الآن ؟ »

قال وهو مغيظ : « رضى اسم حمارك ؟ أتهزئين بأبى يا هذه ؟ أجزائى منك أن تقولى لى هذا ؟ »

قالت : «ولـكنى لم أكن أعلم . لم أكن أعرف اسم أبيك . من أين لى علم ذلك ؟ انها المصادفة وحدها . وأنت تريد أيضاً أن تسمى ابنك باسم الحمار . فكر فى هذا »

فقال : « ادعوا بنى باسم الحمار! ماشاء الله ! أبى حمار؟ هيه ! »

قالت : « لا . لا . انك لا تفهم . فكيف يمكن أن نكون زوجين ؟ ؟ »

فلم يفهم وسألها : « وما دخل الحمير فى زواجنا ؟ لأرانى أخطأت خطأ كبيراً وكان ظنى بك حسناً . سامحك الله . »

ورمى اليها نظرة سخط واحتقار ومضى إلى الباب .

***

قالت سميحة للفتى « لبيب » وهما جالسان تحت أعين النجوم المتلامحة :

« لم يكن هـذا ممكناً . أنه لا يفهم . تصور أن أباه اسمه رضى ، وأنه يريد أن يسمى ابنه حين يرزقه الله به بهذا الاسم . لم يكن يعرف . هذا صحيح . وقد ضحكت فاستاء ، وشرحت له الأمر فعجز عن أن يفهم أو يعذر ، فكيف يمكن أن نعيش زوجين ، وهذه المسألة بيننا ؟ »

فأطرق لبيب برهة ثم قال :

« ولـكنك يا سميحة جرحته جرحين . مسكين . مسكين . »

قالت : « ليس هذا ذنبى . انها المصادفات . »

قال : «لاشك . ولـكنه حقيق بالرعاية والعطف منك ومنى . مسكين . مسكين . سأذهب اليه » .

قالت : « لا تفعل . »

قال : « لماذا ؟ » ورفع عينه اليها .

قالت : « لقد توعدنا بالقتل كلينا »

قال: « سيعدل عن ذلك حين يعرف ما أذهب اليه من أجله .

ولوقتلنا لعذرته . كلا . يا سميحة . يجب أن تتزوجى سعيداً . »

قالت : « سعيد ؟ أنت تشير بذلك ؟ أنت ؟ »

قال : « نعم تعالى معى »

***

وقال لبيب لسعيد :

« هات يدك يا صاحبى . انها لك . »

قال سعيد : « كلا . لا آخذها احساناً منك . انما آخذ ما أقوى عليه . »

فقال لبيب : « اذن قولى يا سميحة أينا تؤثرين . انطقى أنت ونسكت نحن »

فوضعت الفتاة كفيها على وجهها وقالت : « سعيد »

فالتفت لبيب إلى صاحبه وقال :

« أرأيت يا صاحبى ؟ انزلى يديك يا سميحة . واضحكا معى . اضحك يا رجل . »

وسأله سعيد : « وانت ؟ »

قال : « أنا ؟ سأمهد سبيل العزاء لرضى . »

فضحكت سميحة . وصاح سعيد فى غير غضب « يالعين . »

ومالت سميحة الى أذن سعيد تهمس اليه فيها « لا أراك يغضبك من لبيب ما أغضبك منى ؟ »

ولكنها لم تلق لسؤالها جواباً .



السماء والرقص

يحس المرء فى بعض الأيام كأن هذه الدنيا الحافلة بالموت لا تستحق أن يعنى بها أو يفكر فيها الانسان ، بل كأن من المستحيل أن يستطيع التمييز بين النعيم فيها والبؤس أو السعادة والشقاء ، وكأن المسرات والآلام ، والغنى والفقر توائم أو أشباه وأشكال فوق هذه الارض . وكأن العقل ، وهو كساحة القضاء تلتقى فيها خوالج الشعور والادراك ، معطل أو مريض أو منسحب إلى زاوية خفية تاركا ساحته للفوضى والاحلام . وقد ينعشه شيء أو يرفع عن صدره ما يجثم عليه أو يقع ما يضحكه ولكن الشعور بالسعادة ... هيهات هذا . والسعادة كما يعلم القارىء أوكما لا يعلم ، حالة سكينة قبل كل شيء ، لا تملأ كأساً ، ولا تورّد خداً ، ولا تضيء عيناً .

ولست أعرف ملجأ للانسان حين تعتوره مثل هذه الحالة ، سوى السماء . هى وحدها التى أحس أن فى وسعها أن تسليه وتخفف الضغط الواقع على نفسه وتنفض عنه غبار الفتور والسآمة . نعم لا تنشق السماء ولا تدع العين تنفذ ، وتنفذ ، وتتغلغل حتى

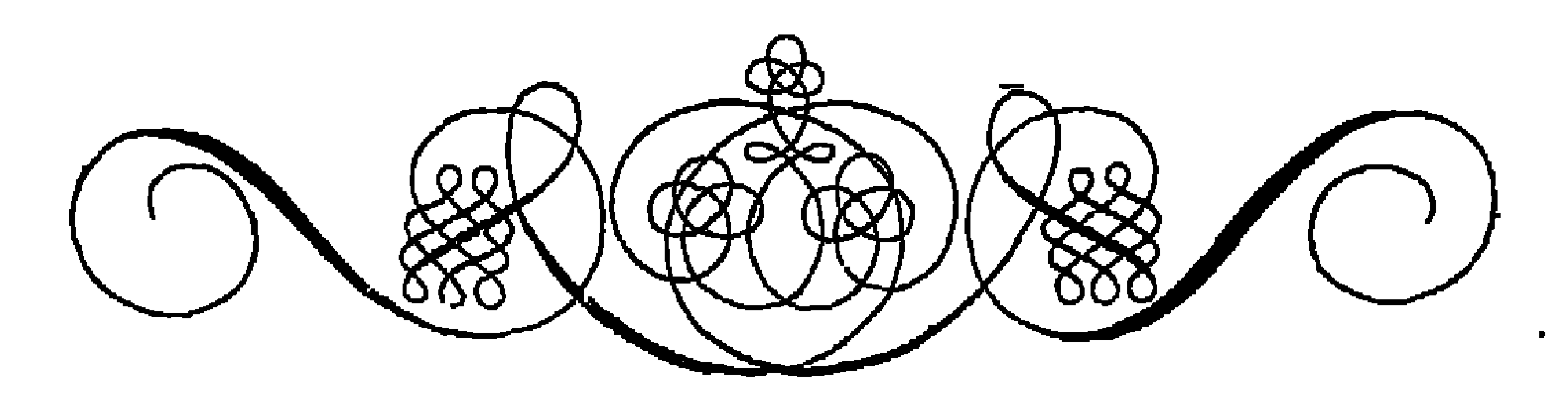
تأخذ آخر الأبد ، ولكنها (على كونها مسدودة) عالية طليقة لا تقترن فى الذهن بذكر الفناء — والسماء لا تعوز أحداً ، وما على المرء إلا أن يرفع رأسه اليها ويجيل لحظه فيها ولكن ما أصعب أن يرفع المرء رأسه أحياناً . ما أشق أن يؤدى هذه الحركة .

ويلى السماء فى القدرة على التسرية عن النفس من ذلك الشعور الجاثم الخانق الذى يسد المنافس ويوصد الأبواب، رقص البنات الصغيرات . هذا — حين يتاح للمرء أن يشهده — أجلى شىء لصدأ النفس . ولا أزال أذكر ليلة شاهدت فيها عشر بنات يرقصن وليس بينهن من تتجاوز الثانية عشرة . وكانت أرديتهن طفيفة ، وسيقانهن وأذرعهن عارية وشعورهن مرسلة ووجوههن صبيحة باسمة وكيانهن كله غبطة وجذل . فلم ألبث أن شعرت كأنى نقلت إلى حيث لا وجود « للذات » ولا إحساس بها . وكانت ألوانهن وقدودهن شكولا ، ولكنهن كن جميعاً فرحات يطفرن كأن ذلك منهن عفو لا عمد فيه ولا ترتيب ولا تدريب ، وكأن كل حركة لهن مما توحى به اللحظة أو مما تلهم به سابقتها ، فليس هو رقصاً ولكنه موج تتسرب منه الواحدة فى أختها وتغيب ، فلا تعمل ولا عضلات تبرز وتشعر الناظر بالجهد والكد، ولا التواءات تخطر فى البال معنى التقصف وتثير الاعجاب ولكن من ناحيتى الاشفاق وتقدير المجهود ، كلا . لا شىء سوى التجاوب والخفة والهواء والحرية .

وكانت بينهن فتاة ذهبية الشعر يعتدل فوق مفرقها إكليل من الأزاهير البيضاء ، ولست أذكر أني رأيت رقصاً كرقصها فقد كانت كل حركة أو التفاتة أو إيماءة أو خطوة مشبعة بروح الموسيقى وسحرها . وكنت وأنا أنظر اليها وأتعقبها أحس كأني سامع ضحكات السرور ، وآض كل شيء في الدنيا يحب ويعشق ، وإني إلى هذه الساعة لأعجب من أين جاءت هذه الفتاة بكل هذه القدرة على إشاعة السرور في النفوس الجافة الذاوية ، فان لرقصها مثل قدرة الموسيقى والرياح والشمس والألوان على إطلاق القلوب من أسر الساعات وغمرها بالجذل .

والسماء كثيرة عندنا وحولنا ومن هنا إلفها وعدم الفطنة اليها . وتالله ما أقسى الشعور الذي يرد النفس إلى المألوف ويشعرها أنه الملاذ الذي كان خافياً والمعاذ الذي كان محجوباً ! وهي تروعنا مكفهرة وتدهشنا صافية مجلوة وتسحرنا موشاة وتنسينا نفوسنا على كل حال

وليس وقت بأفضل من وقت ، أو أوان بخير من أوان ، وإن لكل ساعة لفضيلتها ، ولكني يخيل الي كأن مقدمة الخريف حين تبدأ الوفيات بين أوراق الشجر ، هي الايام التي يشتد فيها — في عقب الصيف المخدر — فتور النفس عن دواعي الحياة ، فيكثر الفراق والتوديع وتموت القبل أو تسقط صريعة من بين الشفاه ، ويضيق الصدر وتتراخى الأعصاب ومن يدري ؟ لعل هذا تمهيد لاستئناف النشاط وتجديد الحياة في الشتاء ! ؟



الرجل الكامل

تراه ، فتذكر الثقافة والفلسفة وصور الكمال الانسانى ومثله العليا ، لا لأنها تطالعك من وجهه أو جلسته أو هيئته ، بل لأنك تخطئها جميعاً حين تقع عليه عيناك . كلا ! لا فلسفة ولا شبهها ولا شىء سوى لحم الضأن والويسكى وسجائر « الريجى » والمعدة القوية والجلد السميك والهواء الطلق . وهو مع ذلك الرجل الكامل من حيث القدرة على العيش وعلى الاستمتاع التام بالحياة ، وليس ينقصه الشعور بكماله بل هو أعمق شعوراً به وأدق إدراكا له من أن يعنى نفسه بالتفكير فيه . ومن أجل هذا يقضى الأيام غير عابىء بما كان أو يكون ، ولا حافل بما يقول الناس أو يعملون ، راضياً بما قسم له الحظ ، قانعاً بأن يحيا ، مجتزئاً بأن يستخلص من الحياة كل ما يدخل فى طوقه استخلاصه من متعها ولذاذاتها ، مجتنباً ما وسعه ذلك أن يجهد عقله أو يكد خاطره كأنما كانت غريزته قد ألهمته أن التفكير والاحساس والعطف مفسدة للحياة ومرزأة للقلب ، وان ذلك خليق ان

يفضى الى اللين والخور ، وهو يريد ان يظل « صلباً » قوياً — يكون جالساً مع الناس فلا يلبث أن ينصرف عن حديثهم وان يخلو بنفسه وإن ظل بينهم ، ثم يدهور فى شدقيه كلاماً ويخرج اصواتاً يريدها غناء ويسمعها الجالسون ضوضاء ، ويجدها حلاوة ويفيد منها ارتياحاً وغبطة تحت الضلع الخامس ولا يظن بالسامعيه الا انهم مثله إفادة لذاك تحت الأضلع الخوامس — واذا كان له راى فى أمر وشايعته عليه لم يفرح بك ، واذا خالفته فيه لم يحفلك وقد يبدو له أن يصدمك ، وربما ساءه — بل هذا هو الأرجح — أن تقابله بالمثل .

وكل شىء ينبغى أن يؤدى الى احساسه بالغبطة والامتلاء، فاذا لم يفعل فمن حقه أن يهوى عليه بيده ، فان لم يستطع ، فبلسانه ، وإذا اعياه أن ينال مما يسخطه لم يحنقه هذا ولم يضعف شعوره بالرضى عن نفسه ، لأن فى وسعه دائماً أن يرفه عن قلبه بتحميل « الحكومة » — كائنة ما كانت — كل تبعة حتى عن فساد الجو وهزات الزلازل التى تكررت فى السنوات الأخيرة . وماذا تنتظر غير ذلك ما دام أن هؤلاء « الناس » يتقلدون الحكم ؟؟ وقل أن يذكر أحداً باسمه أو يميزه بالتعريف ، والفرد عنده ابداً نكرة لا تتميز ولا تبرز ، وهو أذكى من أن ينظر الا إلى الجماعة أو يكترث لذرة طائشة — حتى حين يلطم واحداً او يدفع فى صدره بجمع يده او يركله برجله ، تكون الجماعة

كلها هى التى أصابها بيده او رجله ، ويكون اغتباطه لهذا المعنى الشامل الذى يفنى البعض فى الكل .

والنساء . النساء . إنهن لاملائكة ولا شياطين . ومن قال انهن هؤلاء أو أولئك ؟ ؟ الشعراء ؟ أوه . ماذا يصنع فى الدنيا هؤلاء الذين يتسمون شعراء ؟ بأى حق يبقون ؟ وكيف تغفل عنهم الحكومة وتخلى بينهم وبين الكلام الذى لا يقرأ ؟ ؟ ؟ كلا . ان النساء لسن شياطين ولا هن ملائكة وانما هن مخلوقات مجعولات ليستوفى بهن الرجال حظهم من الكمال ، ووظيفتهن أن يجئن إلى الدنيا بالرجال ، والرجل يحتاج اليهن ويبغيهن حين يشعر بالحاجة إلى التسرية ، ثم لا خير فيهن بعد ذلك ، وليس يصح أن يشعر الرجل أنه مسئول عنهن ، لأن الشعور بأمثال هذه التبعات ضرب من الضعف لايليق بالرجولة ولا يساعد على الانتفاع بالعيش . ولماذا يحمل المرء تبعة ما ؟ ؟ انه يجىء إلى الدنيا بغير ارادته ويحشر فى زحمة الحيـاة بكرهه ، فليس من الانصاف أن يعد مسئولا عما لا يدله فيه ولا رأى ، ومن مضاعفة الظلم أن يطالب بأكثر من العناية بنفسه . وهب جدلا أن عليه واجباً ، فواضح ان واجبه الاول لنفسه ، وليس الذى يذهب يعنى بالناس وينسى نفسه ، إلا مقصراً ، والناس يسمون هـذا ايثاراً وانسانية ويمدحونه ويرفعونه مقاماً عالياً ، أفلا تدرى لماذا ؟ ؟ لأن من مصلحتهم أن يستريحوا ويتعب لهم غيرهم وان

يضعوا العبء عن أكتافهم ليحمله سواهم ، أفرأيت الآن ؟ ؟

لقد كان الذى اخترع ألفاظ الانسانية والايثار داهية ، وعجيب ألا تعيش فى الدنيا إلا الخدع والأباطيل . وكم من ذكى فطن إلى هذه الغفلة الخالدة ونبه اليها ودل عليها ، ولكن الناس يأبون ان يصدقوا ويرفضون ان يروا الحقائق لأن مصلحتهم ألا يفعلوا .

واذا كانت المرأة يحلو لها أن تعد الرجل مسئولا عنها من أجل أنه يجدعندها الروح والراحة حين يطلبهما ، فالأبله المغفل هو الذى يسايرها ويقبل ما تفرض عليه . ذلك انه اذا كان الرجل يفوز عندها بما يبغى منها فهى مثله تفوز عنده بما تروم منه ، وقد استوفى كل منهما حقه ، فلا محل للتبعات يحملها فريق دون فريق ، والعدل أن يتساويا والا فليرفض الرجل كل تبعة .

والشعراء هم المسئولون عنده عن هذا الهراء الذى يسمى « الحب » . يعنى ماذا هذا الحب ؟ ؟ أهو أكثر من رغبة فى المرأة ككل رغبة أخرى تلج بأى شىء آخر ؟ ؟ فلماذا اذن يختصونه بهذه الثرثرة الفارغة ؟ ؟ ولماذا يعملون على ايهام الناس ان هناك شعوراً روحياً إلى جانب الشعور الجثمانى ؟ وهؤلاء الشعراء الغزلون تخلد الدنيا اسماءهم وتلهج بذكرهم وتعنى بهرائهم وان كانوا مثال الضعف والانوثة . كلا . ان المرأة يعجبها الاطراء ويروقها الثناء ، هذا صحيح ، ولكن أصح منه أنها لا تعجب الا

بالقوى الذى يطلب الشىء كما ينبغى أن يطلب لا بالدموع والسهر ومناجاة النجوم ومخاطبة لاشىء فى الظلام ونحول الجسم وتضعضع الكيان — أى بكل ما هو مظهر للعجز والضعف ، وقد ترثى له وتدركها الرقة عليه من أجل أنه يبكى عليها ويشتاق اليها وينهد بنيانه فى سبيلها ، وذلك كله تمليق لغرورها، ولكنها لا تستطيع أن تحترمه فى أعمق أعماق نفسها، واحر بها ان تتخلى عنه وتدعه حين تلتقى « رجلا » يقول لها « انى أريدك فتعالى » ثم يمد اليها يده ويحملها ويمضى بها .

ومن أجل هذا لا يفهم «صاحبنا» لماذا لا تعمد الحكومة إلى دواوين الشعراء جميعاً وتوقد ناراً تحرقها فيها وتلقى اليها كل من يأسف عليها ! ضعيفة جداً هذه الحكومة !

والغريب عنده اننا صرنا الى زمن تطالب فيه النساء حقوقهن! حقوقهن ؟؟ ومن ذا يمنعهن منها ؟ لماذا لا يمددن أيديهن الى هذه الحقوق ويتناولنها ؟ أم تراهن يردن أن يجلسن على الأرائك فى حفل من الزينة وأن نتقدم نحن الرجال اليهن بحقاق من الذهب والفضة والعاج فيها حقوقهن ؟؟ ان حق المرء هو ما فى يده ، ومن وسعه أن يبسل يده بشىء وأن يحميه ويستبقيه فهو له ، ومن قال غير ذلك فهو كاذب كاذب . حتى اللصوص لهم الحق فيما يسطون عليه اذا أمنوا أن يسلبوه ، والناس كل يوم يسرق بعضهم بعضاً ، حتى « الفضل » و « الشهرة » و «المحامد»

تسرق كما يسرق المال وتساق الماشية وتنشل المحافظ من الجيوب فاذا كان للمرأة حق فى شىء غير ما فى يدها فعليها به ، فان ضعف الرجل وعجز عن دفعها عنه فهو لها بلا منازع والا فاترحنا من هذه الضجة السخيفة .

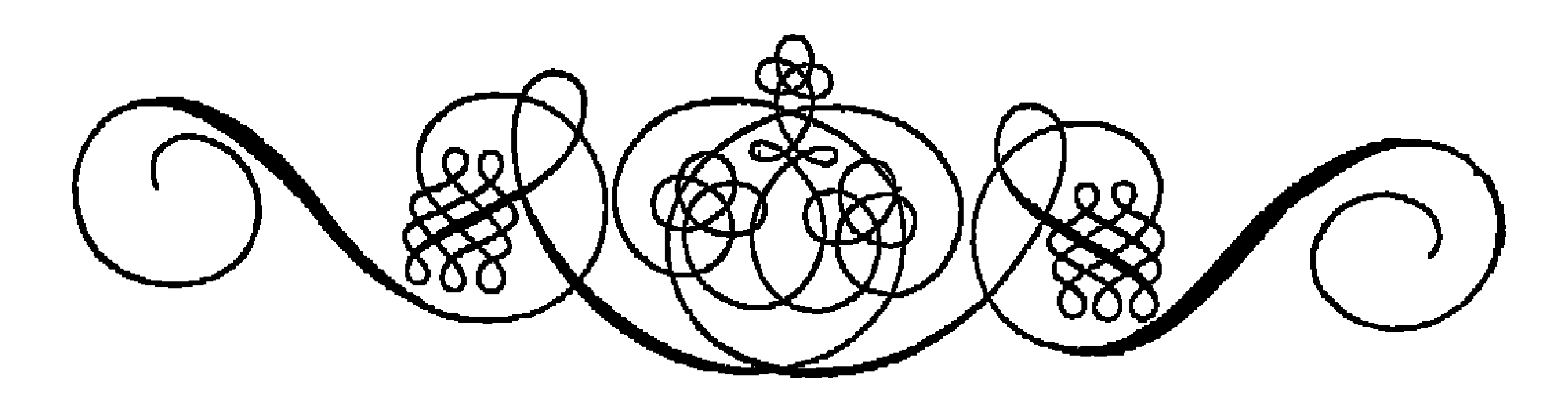
وليس أبرز من غرور المرأة ولا أقوى من هذه العاطفة فى نفسها ، ولا أسهل من جرها بهذا اللجام . ولكن هذا يحتاج الى تمليق ، والتمليق متعبة والمرأة أهون عنده من أن تستحق تكلف هذا الجهد ، واذا كان شىء يبغضها اليه فهو هذا الغرور الذى يخيل لها أنها مركز الوجود وأغلى ما فيه ، وليس يقارب غرورها أو يدانيه الا غرور الفنانين من مصورين ومثالين وما أشبه ، ألست تراهم كيف يرسلون لحاهم قبل الأوان ليفيضوا على شبابهم من وقار الشيخوخة وليستعيروا سمتها وأبهتها ؟ ولاية غاية ؟؟ ألا تكون الصورة مثلا جميلة رائعة الا اذا طالت لحية صاحبها ؟ وهب الدنيا فقدت كل ما فيها ، من صور وتماثيل فماذا تخسر ؟؟ انه يبقى لها « الويسكى » على كل حال ، وهو حسب الناس — لو عقلوا — موقظا للشعور ومنبها للاحساس بالدنيا ومعمقا لوقع الحياة فى النفس ، ومجرئا على العيش . وقد كانت الدنيا ، وما زالت ، بأهل الخطار والمجازفة فيها . والآداب والفنون ليست فى متناول كل امرىء ، وليست كل نفس بقابلة للتأثر بها والاستفادة منها ، ولكن « الويسكى » على خلاف ذلك ، فتأثيره

«الفنى» أعم وأشمل، والذى اخترعه وأهداه إلى الانسانية عبقرى فى الذروة ، لا يدانيه فنان ولا أديب يلغط بمثل كلام الشياطين وتخليط المجانين .

وقد يشتهى صاحبنا أن يسيم سرحا فيزاحمه عليه غيره فيدعه لهم وينصرف عنه ، استخفافا واستهانة ، لأنه لا يرى أن شيئاً فى الحياة يستحق أن يخاطر فى سبيله بطمأنينة نفسه وراحته ، الا أن يحرجه شىء فلا يرتد عن بغيته إلا — كما يقول — « قاتلا أو مقتولا » .

وقد « سمع » بالشعب ورآه عن كثب و « شمه » ومنذ ذلك الحين لم يبق أبغض اليه ولا أثقل على سمعه من « الاشتراكية » و« العمال » ، وقد يمزح اذ يذكرهم فيقول منحياً على الحكومة على عادته ، انها تدللهم وانه لا ينقصها إلا أن تضعهم فى صناديق من البلور خوفاً عليهم وضنا بهم على الحياة !

ولا يزال صاحبنا مذ عرفته يأكل اللحم ويعب فى الويسكى ويثقل فى الوزن ، وما أحسبه سيكف عن هذا وفيه رمق . وكثيراً ما يفكر فيما عسى أن يصنع بعد أن يبلغ الخمسين ، ولكنه يرجو على كل حال أن يموت يوما ما .



عاطفة الابوة

(١)

قلت مرة لزميل من المدرسين الانجليز ، رزق غلاماً :
أتحب غلامك هذا ؟

فأدهشه سؤالى ولم يخف تعجبه له ، وتوهم بادئ الأمر أنى أتكلف التشكك ، فلما بدا لى منه هـذا الريب فى صدق سريرتى سألته :

أتظن أن فقد الأبناء فى طفولتهم يكون كفقدهم بعد أن يرشدوا ويدخلوا فى مداخل الرجال من حيث وقع ذلك فى النفس؟

قال : كلا . وان كنت ولله الحمد لم أجرب هذا أو ذاك .

قلت : وكيف تعلل ذلك ؟

فأطرق لحظة ثم قال : انى أرد الفرق بين الوقعين إلى مبلغ الجهد والعناء فى تنشئة الطفل ورعايته حتى يكبر ، فعلى قدر مانبذل فى تربيته يكون حرصنا عليه وضننا به وشعورنا بالخسارة حين نفقده .

قلت : انكم معشر الانجليز هكذا دائماً ، حتى العواطف تقدرونها بالأرقام ، على أن تعليلك مع ذلك صحيح إلى مدى كبير ، وان كنت لا أشك انه كان يسعك أن تهتدى إلى عبارة أخرى غير هذه . والآن سؤال آخر : هبك رزقت غلاماً ورحلت عن بيتك زمناً ثم عدت وقد شب الطفل وترعرع وأصبح فتى يافعاً ، أيكون شعورك نحوه كشعورك لو انك كنت إلى جانبه تراه في كل ساعة وتراقب نموه وتفتح عقله ؟

قال : كلا .

قلت : أتظن أن من الضرورى لنمو الشعور بالأبوة أن يكون الجهدك الذى تبذله مظهر مادى كأن تتولى أنت مثلا الانفاق عليه والسهر على تعليمه ومراقبة تدريبه بنفسك إلى آخر ذلك مما يجرى هذا المجرى ؟

قال : وكيف يكون الجهد غير ذلك ؟

قلت : ألا يكفى مثلا أن يكون جهد « عاطفة » يحركها ويثيرها قربه منك ؟

قال : ما أشك فى أن هذا يكفى .

قلت : نستطيع الآن أن نستخلص أن حياة الطفل هى التى تتيح للشعور الأبوى فرصة النمو ، وبعبارة أخرى أن للعادة دخلا لا يستهان به فى قوة هذا الشعور ، وليس معنى هذا أن العادة تخلق هذا الشعور خلقاً ولكن معناه انه يكون كامناً فى

النفس فتظهره ، وضعيفاً فتقويه ، وفاتراً فتكسبه الحرارة . والأبوة ماذا هى ؟ أليست مظهراً من مظاهر حب الذات والرغبة فى تخليدها بتكريرها واعادتها فى شخص آخر هو بعضها ؟

قال : أحسبها كذلك .

قلت : ولكن التخليد معنى ، أو ان شئت فقل انه وهم وخيال تتعلق به النفس وتتعزى عن الفناء الذى تعلم أنه لامحالة مدركها ، ولما كان كذلك فرب نفس تكون أطلب له — بطبيعة استعدادها — من نواح أخرى غير الأبوة ، وعلى طريقة غير طريقة التكرير والاعادة — اذا صح أن الابناء صور معادة من الآباء ، وهو غير صحيح ، فما أظن بك الا أنك ترى معى ان هذه الاعادة تكون اسرافا لا معنى له وسفها لا تسوغه حكمة ، وأخلق بالجيل الواحد من الناس أن يغنى عن كل الأجيال التى تتلوه اذا كانت ستجىء مطابقة له غير مختلفة عنه ، وما أحق الطبيعة فى هذه الحالة بأن يحجر عليها !

قال : هذا كله صحيح بل بديهى . .

قلت : أشكرك ! ؟

قال : عفواً . انما أردت أن أسأل عن النتيجة .

قلت : أريد أن أقول إن عاطفة الأبوة قد تكون فى بعض النفوس أضعف منها فى البعض الآخر .

قال وهو يبتسم : ما أراك جئت بجديد .

قلت : بل أريد أن أقول ان بعض الناس لا يصلحون أن يكونوا آباء أو بعبارة أخرى انهم بطبيعة تكوينهم لا يستطيعون أن يخدموا « النوع » من هذا الطريق ، وهؤلاء هم الذين نسميهم النوابغ ونعنى بهم طلاب المجد الأدبى أو الحربى أو العلمى ، فكأن مساعيهم تستنفد حيويتهم وتردهم غير صالحين لغيرها ، ومن هنا ما يلاحظ من عقمهم أو قلة نسلهم أو سرعة انقراضه على خلاف السواد الاعظم من الناس . وهذا السواد هو الذى يعمر الدنيا ويحفظ النوع الانسانى فيها .

***

والناس أكثرهم لايفكرون ، سألت مرة واحداً من اخوانى : لماذا تحب أبناءك ؟ فكان جوابه أنهم بعضه وفلذة من كبده . ألم يقل الشاعر

وانما أبناؤنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض ؟

إلى آخر هذا الهراء الذى يعذب فى السماع وتأنس اليه النفس وان كان لا محصول وراءه ، وقد أردت أن أنبه صاحبى هذا إلى مافى تعليله من المآخذ فقلت :

وهل أنت آسف على أبنائك الذين أخطأهم التوفيق ولم يتمكنوا من الانحدار إلى هذه الدنيا

قال فى وجوم : ماذا تعنى ؟ من هم ؟

قلت : ان الجواب الذى تطلبه يستوجب منى أن أصارحك

بحقيقة علمية لا أحسبك تجهلهـا ، فأنا أذكرك بأن الرجل منا ينفث فى المرة الواحدة مئـات من الملايين من الجراثيم ، وكل جرثومة منها كافية لأن تخرج الى الدنيا طفلا لو ساعفتها الاحوال وآزرها الحظ ، ولـكنه قلما يكون هناك أكثر من جرثومة واحدة هى السعيدة الموفقة ، وما خلاها يذهب كما يراق الماء فى الصحراء ، فالانسـان — اذا اعتبرت هذه الحقيقة العلمية — يفقد فى كل مرة ملايين من الابنـاء بقدر ما يضيع سدى من ملايين الجراثيم ، ولولا هذا الاقتصاد فى التلقيح لاستطاع فرد واحد أن يعمر لا الـكرة الارضية وحدها ، بل مئات من الـكرات الارضية بنسله .

وهذه الجراثيم الضائعة ، أو اذا اعتبرت ما كان يمكن أن يكون ، هؤلاء الابناء الذين لم يجيئوا ، بعضك أيضاً ، وهم أفلاذك أو أكبادك كما تقول أو يقول الشاعر ، فلماذا لا نراك أو نرى أحداً يأسى لفقدهم ، وهم بعضك ، كما تفرح لغلام ترزقه ، وتحبه لانه بعضك ؟

الحقيقة أن المسألة ليست ان الاب لا يحب أبناءه الا لانهم بعضه ، فان غريزة حفظ النوع قد تكفلت بنشوء العاطفة وبدفع النـاس الى طلب النسل ، وهى عاطفة يسهل على الرجل — كما لا يسهل على المرأة — أن يحولها الى مجرى آخر تخرج منه شيئاً مختلفاً جداً وعاطفة جديدة وان كانت مولدة من عاطفة الابوة .

وهبها لم تتحول فان من الميسور أن تنمو وتستوفى حظها على التبنى ، كما هو معروف ومألوف .

على أن الرجل والمرأة ليسا سيين فى هذه العاطفة ، وأكثر الفرق بينهما راجع الى أن غريزة حفظ الذات أقوى فى الرجل من غريزة حفظ النوع ، أما المرأة فعلى خلاف ذلك ، والغريزة النوعية فيها أقوى من الغريزة الفردية ، اذ كانت هى بطبيعة تكوينها ، اداة المحافظة على النوع ، وليس الرجل سوى عون لها على ذلك ، ومن هنا كانت الامومة وحواشيها أقوى وأبرز من العواطف المنبعثة عن الابوة .

***

بعد هذا الذى أسلفناه لا نظن القارئ يستغرب أن نقول أن عاطفة الاخاء عادة ليس إلا ، وإلف لا أكثر ولا أقل ، وما أحسبها تختلف فى حقيقتها عن عاطفة الصداقة ، وكل ما فى الامر أن اشتراك المصالح والنشأة الواحدة تجعل الروابط أمتن والاواصر أوثق . وليس أسهل من فسادها ولا أيسر من تفكك عراها اذا وقعت النبوة بين الاخوين لسبب من الاسباب ، فلا مبالغة اذا قلنا أنها عاطفة لا تتميز إلا فى الظاهر والا من حيث الاعتقاد العام فيها ، عن أية عاطفة تنشأ بين أى اثنين من أبناء آدم . وليس بالنادر ولا من الفلتات أن تؤدى أعاجيب ما تحدثه الوراثة الى جعل الاخوين أشد ما يكون اثنان تنافراً ، وقلما يفقد

الوالدان حب ابنيهما أو الولد حب أبويه، ولكن ماأكثر مايقع التعادي بين الاخوين ويتباغضان ، ذلك أن للابوة أو الامومة أصلا تحور اليه ويبقى لها اذا فقدت كل معزز أو مقو ، ولكن ما بين الاخوين لا يرجع الى أكثر من المصادفة .

والناس يدركون هذا ويفطنون اليه بالسليقة وان كانوا قل أن يفكروا فيه، فتراهم يطلقون لفظ الاخاء والتآخي على الصداقة ولا يستكثرون أن ينزلوا الصديق منزلة الاخ ولا يحسون أنهم هبطوا بمرتبة الاخاء من أجل ذلك ، ولكن الابوة عندهم وعلى ألسنتهم في كل لغة لها مقامها الذي تنفرد به ومنزلتها الملحوظة التي لا تدانيها منزلة . وليس أصدق من فطرة الجماعات ولاأصح أو أدق من تقديرها لهذه الصلات بما تجريه على ألسنتها — عفوا ومن غير تدبير — من العبارات الواسعة الدلالة العميقة المغزى

(٢)

قال لى صاحب قديم خلطته بنفسى زمناً :
« أصحيح هذا ؟ »
قلت : ماذا ؟
قال : « هذا الذى كتبت عن عاطفة الأبوة . »
قلت : « وما سؤالك أنت ؟ أإنكار هو أم أسلوب جديد فى الاعراب عن الموافقة ؟ »
قال : « أما ما ذكرت عن عاطفة الاخاء وانها لا تختلف عن الصداقة فى أصولها وان الناس يفطنون الى ذلك بالسليقة فينعتون الصديق بالأخ ، فصحيح، وكذلك ما أشرت اليه من أن أعاجيب الوراثة قد تفضى الى التنافر بين الأخوين »
قلت : « ان التعادى قد يقع بين الاخوة حتى من غير أن يكون للوراثة دخل، وما أكثر الأسباب التى تؤدى الى انفراج الحال ووقوع النبوة ، كأن يكونوا من أكثر من أم واحدة أو أب واحد — أى غير أشقاء أو يكون أحدهم أكثر توفيقاً فى الحياة ، أو آثر عند أبويه وأحب اليهما . وأحسبك تذكر قصة يوسف — عليه السلام — وحسد اخوته له لانه أحب الى أبيهم منهم .

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة . إن ابانا لفى ضلال مبين. اقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضاً يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين »

وهذه الآية الكريمة تريك كيف يتحدث الاخوة بقتل اخيهم ويأتمرون به ويتفقون على القائه فى الجب وتركه لمن عسى ان يلتقطه من المارة ويذهب به الى حيث يشاء من الأرض ويبيعه او يتخذه عبداً له او يصنع به ما يحب ، كأنما لا يجرى فى عروقه نفس الدم الذى يجرى فى عروقهم، وكأنما لا تربطهم به صلة ولا تعطفهم عليه آصرة ، وكل هذا لماذا ؟ لأن اباهم فيما يرون احنى عليه منه عليهم واكثر شغفاً به ورقة له !

وأدل من ذلك وأولى بالملاحظة ان أباهم نفسه يدرك بفطرته السليمة وبالهام حبه ليوسف ، ان كون يوسف اخا هؤلاء ليس بمانعهم ان يسيئوا اليه ويكيدوا له غيرة وحسداً . تأمل هذه الآية:

« إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين. قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للانسان عدو مبين ».

والتاريخ حافل بقصص الامراء الذين لم يتحرجوا أن يقتلوا أخواتهم ليتبوأوا عروشهم أو ليحلوا محلهم فى ولاية العهد أو

ليتقوا تآمرهم عليهم ، لا بل ليستولوا على زوجاتهم ، وقل أن يقتل الولد أباه ، وأقل من ذلك وأندر أن يغتال الوالد ولده . وعلى أى شيء تدور قصة هملت الخالدة ؟ أليس محورها كله أن عمه اغتال أباه وأفرغ السم فى أذنه وهو نائم فى الحديقة ، ليخلفه على الدولة ، ثم لم يزعه شيء ان يتزوج من كانت امرأة أخيه ؟ ؟ والناس لا يستفظعون ان يتخذ المرء زوجة أخيه زوجة له بعد ان يسرحها أو يموت عنها . ولكن ما أشد استفظاعهم لأن يبنى المرء بمن كانت زوجة لابنه ؟ ؟ وأفظع من ذلك أن يتزوج امرأة أبيه ، لأنها فى منزلة الأم ، حتى لقد حرمت الشرائع ذلك . على حين كان المصريون يتزوجون الأخت

ولست أذكر هـذا إلا على انه مظهر للشعور الفطرى العام الذى تقوم على قاعدته الشرائع والقوانين وتدور عليه الآداب الصادقة لا التقليدية المتكلفة .

قال صاحبى : هذا صحيح ، ولكن ألا ترجع عاطفة الأبوة إلى أكثر من العادة والألف ؟

قلت : من قال انها عادة ليس إلا ؟ ان الشعور الابوى مرجعه إلى غريزة حفظ النوع كالحب ، وأساسه فى الرجل والمرأة واحد، غير أن الرجل أقوى تمثيلا فى حياته للفردية منه للنوعية، اعنى بذلك ان غريزة حفظ الذات اقوى فيه من غريزة حفظ النوع ، ذلك انه هو الذى يتولى مكافحة الطبيعة بما فيها من

قوى وكائنات من جنسه وغير جنسه ، وهو المتكفل بالسعى والذى يتعرض بسبب هذا كله للاخطار ، فلا غنى له عن الاحتيال لدفعها بالقوة اذا تهيأ له ذلك وبالحيلة والتدبير وحسن التصرف وما إلى ذلك إذا اعوزته المنة ، والحياة ليست باللقمة السائغة فهو محتاج إلى مغالبة الصعاب ومعالجة تذليلها ، وهو فى كل خطوة يخطوها يصادف ماينبه غريزة حفظ الذات اوصيانة النفس ، « ومن اجل هذا — كما قلت فى حصاد الهشيم — « صارت هذه الغريزة اقوى وانضج واسرع تنبهاً واكثر عملا ، لأن حياته تجعل اعماله متصلة بها اكثر من اتصالها بغريزة حفظ النوع . وهو لذلك احس بها واسرع تأثراً من ناحيتها ، ومن هنا كانت الانانية فى الرجل اظهر واقوى . والعامة يلاحظون ذلك ويفطنون اليه ويذهبون فيما وضعوه من امثالهم الى ان الأم احنى على طفلها من ابيه . وقد ترى الرجل يداعب طفله برهة او ساعة ولكنك قل ان تجد رجلا يقوى على ما تقوى عليه المرأة من ملازمة الطفل والمثابرة على مداعبته والصبر على التحدث اليه ، ومن توهم فهم ما لعله يرتسم على صفحة وجهه من الحركات او يند عنه من الاصوات واحتمال ذلك وما هو اشق منه ساعة بعد اخرى ويوماً بعد يوم وشهراً تلو شهر وحولا عقب حول » .

أما المرأة فخلقت للنوع قبل ان تخلق لنفسها وهى فى سبيل

النوع تحمل وتضع وتتعرض للموت الوحى ساعة يجيئها المخاض،
وتكوين جسمها شاهد بأنها مجعولة أداة للنسل ووسيلة لحفظ
النوع ، ففى جوفها مكان معد للجنين تحمله فيه تسعة اشهر
كوامل، ولها ثديان يدران اللبن ، وجسمها مركب بحيث يتحول
الغذاء إلى لبن ترضعه طفلها وتغذيه به حولا كاملا على الاقل .

فالعاطفة موجودة ، ومردها عند الرجل والمرأة إلى هـذه
الغريزة النوعية ، ولـكن اختلاف الرجل والمراة من حيث
التكوين وما اعدتهما الطبيعة له ، ومن حيث طبيعة الحيـاة .
يجعل هـذه العاطفة اقوى فى المرأة وانضج منها فى الرجل ، ثم
تجىء الصور الذهنية التى تحصل لـكل منهما فتزيد هذه العاطفة
وتضرمها ، وهـذه الصور عند المراة حشد حاشد وبحر زاخر
لا آخر له ولا نهاية ، فهى لا يسعها إلا ان تذكر ماعانت فى
شهور الحمل وما جربت فى اطواره وأحست من حركات الجنين
فى جوفها ، ثم ماكابدت من عذاب الوضع ، وكم ألف ألف
صورة تحصل فى ذهنها بعد ذلك ، مذ كان طفلها وليداً إلى أن
يشب عن الطوق ويدخل فى مداخل الرجال أو النساء ، وكل
حركة ومصة من ثديها وابتسامة ونظرة وتعبيسة وعولة وصوت
ونهضة وعثرة وخطوة — كل ذلك منقوش على صفحة قلبها
مرتسم على لوح صدرها مذخور فى رأسها ، وجوها حافل بهذا
الطفل ، وحياتها كلها دائرة عليه غير منفصلة عنه ، وماضيها كان

تمهيداً له وحاضرها مستغرق فيه ، ومستقبلها آمال منوطة به ، وأخلق بهذا أن يعيننا على تصور روعة الأمومة وعمقها وسعتها وانطواء كل احساس فيها وتسرب كل شعور اليها ومنها . ولما كان نصيب الرجل من هـذه الصور التى تحصل فى نفس المرأة أقل وأضأل فلا عجب أن يكون غذاء العاطفة الأبوية أتفه جداً مما يغذى عاطفة الأمومة . وهل الحيـاة إلا الصور التى تحصل فى الذهن ؟

يقول ابن الرومى فى رثاء ابنه :

توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد!
على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب ، قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد أو ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

الى ان يقول :

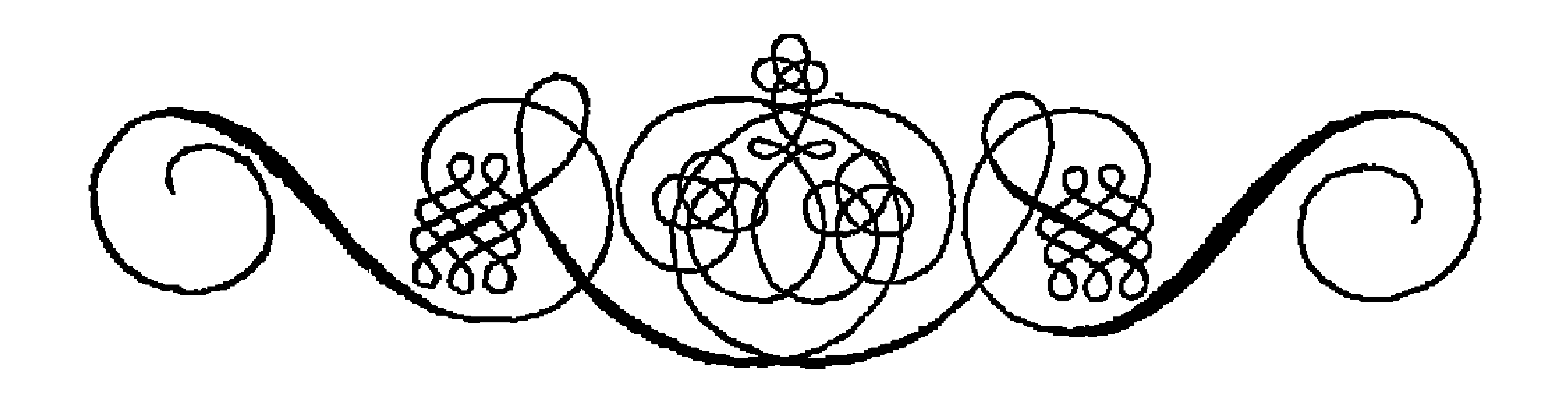
وإنى، وان متعت بابنى بعده ، ... لذاكره ما حنت النيب فى نجد
واولادنا مثل الجوارح ايهـا ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسـد اختلاله ... مكان اخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... ام السمع بعد العين يهدى كما تهدى

اريحانة العينين والانف والحشى ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدي ؟
كأنى ما استمتعت منك بضمة ولا شمة فى ملعب لك او مهد
محمد ما شيء توهم سلوة لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
ارى اخويك الباقيين كليهما يكونان للاحزان اورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا فؤادى بمثل النار عن غير ماقصد
فما فيهما لى سلوة بل حزازة يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

ولم نورد القصيدة كلها وإن كانت ابياتها جميعاً من هذا الطبق الرفيع ، وإنما اقتصرنا على ما فيه تمثيل لما نريد ، والذى نريده هو ان «نمو» عاطفة الابوة أو الأمومة رهن بالصور الحاصلة فى الذهن وبجهد النفس وبالأمل الناشيء وفى هذه الابيات المتخيرة صور عدة : صور قبلات يذكر حلاوتها الاب ، وشمات لا تزال تتضوع الى انفه ، وضمات لا يفتأ يحسها ، وملاعب للطفل وعين ابيه ترعاه وتلاحظه ، وذكر شتى يهيجها الغلامان اللذان اخطأهما الموت ، بل كل شيء يهيج الشاعر الى التذكر ، وللمهد صورة وللحد اخرى ، ولما كان للآمال فيه صور شتى ولما صار اليه فى التراب صور غيرها ، يتخيلها الشاعر ويتساءل عنها مشفقاً موجعاً فيقول (ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى) ، ولصحته صور محببة ولسقامه وذبوله وما اصابه من النزف ودواه على الايدى ، صور تكوى الفؤاد وتلعج القلب ، وللمحاته وبشائرها وافعاله وما كان يأنس منها وللرجاء فيه والفرح به وانتظار ما سيكون عليه

ويصير اليه ، لكل ذلك صوره العالقة بالنفس المتشبثة بالضمير وهكذا الى غير نهاية . واين تكون نهاية هذا العالم الحافل بالذكريات المحشودة الزمر ؟ وما ظنك بالام وعالمها احفل ، وزمر ذكرياتها احشد!

والذين تتحول هذه العاطفة الابوية فى نفوسهم الى مجرى آخر ، اعنى الذين يتبنون الآداب او الفنون او العلوم او ما شاكل ذلك ، يستغرقهم حب ما انصرفوا اليه وتخلوا له ويرى الناس مبلغ استغراق ذلك لنفوسهم واستيلائه على هواهم فيعجبون ويعدونه شذوذاً ويحصونه عليهم ، ولو انهم فكروا فى انهم اعتاضوا من الابناء هذا الذى شغفوا به ، وانها هى عاطفة الابوة فى صورة اخرى ومظهر جديد ، لما بدا لهم فى امرهم وجه غرابة او شذوذ ، ومن الذى يستغرب من الاب حب بنيه ووقف حياته عليهم وافراغ جهده فى سبيلهم وقصر سعيه على خدمتهم ؟ ؟ لا احد ! بل هذا هو المعقول ، فلم يدهشون ويعجبون حين تلبس هذه العاطفة ثوبا آخر أو تتدفق فى مجرى جديد او تتخذ صورة غير المألوفة ؟؟



صورة الفيلسوف

أذكرتني هذه الصورة حين وقعت عيني عليها تاجور شاعر الهند ، ولم أكد أرى تاجور وأسمعه يلخص فلسفته وينشدنا طائفة من الاغاني التي وضعها لتلاميذ مدرسته ، حتى هممت أن أقبله بين عينيه وأن أربت له خده وأمد له يدي بقطعة من الشوكالاته !! ذلك أن في الرجل — على الرغم من ارتفاع سنه ومن بياض شعره المتهدل — بساطة تذكرك بالأطفال . ولست أعني بالبساطة الخلو من المكر فان للأطفال مكراً ودهاء . ولكنما أعني الطبيعة الخالية من التكلف واتساع المدى للاحتمالات . وقد تعلم أن الطفولة آمال واحتمالات : لقيت مرة شاعراً من زعماء المذهب القديم فتذاكرنا أحاديث الشعراء .فقال إنه يعجب لابن الرومي كيف وسعه أن ينظم مائتي بيت في وليد على حين يعاني هو البرح في نظم عشرة أبيات أو عشرين في رجل ناضج . فقلت انى لا أرى محلا للعجب أو داعياً للاستغراب، وبغض النظر عن الفرق بينك وبين ابن الرومي فانه يبقى أن الرجل الذي تريد القول

فيه ، مخلوق تمت حياته أو كادت وقام بناؤه كله ولم يبق ناقصاً منه شيء فى رأى العين أو العقل . فالشاعر الذى يقول فيه مقيد بالحدود القائمة وبالحياة التى استوفت معالمها ، أما الطفل فهو على نقيض ذلك كله استعداد . ولا آخر لما تصوره الآمال فيه وما قد يتكشف عنه استعداده ، فليس هنا بناء كامل وانما هنا رقعة فسيحة مترامية الاطراف يجول فيها الخيال ويصول بلا قيد ولا حد.

ومن هنا كان من الخطأ أن يتوهم المرء أن تأثره بالطفولة مرجعه الى انه يشرف عليها من سماء قوته وتمامه ، فان الامر أولى به أن يكون على عكس ذلك أى أن المرء حين يرى الطفل لا يسعه إلا أن يشعر أنه هو قد تم وكمل وأصبح من أجل هذا محدوداً ، وأن الطفل لا يزال حراً طليقاً إذ كان لا يعدو أن يكون استعداداً محضا وآمالا ناشئة ، ومن هنا منزلة التقديس التى ننزل الطفولة إياها :

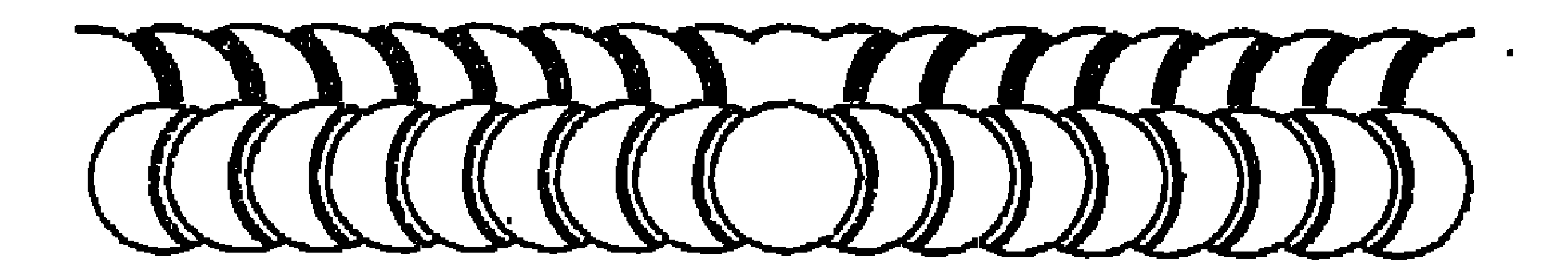
أضف الى ذلك انا لا نحب فى الطفولة جمالها أو صورها وإنما نحب الفكرة التى تمثلها : نحب فيها الحياة والعمل الكامن والاستعداد الدفين والوجود فى ظل قوانينه الصحيحة ووحدة الطبيعة ، والقوة الحرة الصافية . ومن هنا أيضاً إعجابنا بالزهرة والماء المتفجر والحجر تكسوه الخضرة وينبت على جوانبه العشب والأطيار تغرد الى آخر ذلك ، وهذه الاشياء تفتننا وتستولى على هوانا لأنها أشبه بما « كنا » وبما سنكون مرة أخرى بعد

نعود الى الارض ، وهى تحضر الى أذهاننا صور طفولتنا التى مضت بها الأيام ، طفولتنا التى لن تعود والتى تعتز بها الذاكرة وتتشبث

وهذه الاشياء لا فضل فيها لنفسها وليس وقعها براجع الى اختيارها أو ارادتها الحرة ، ولذلك لا يشعر المرء حين يجتليها ويعجب بها بأنها تحط من قدره فهى تنعش النفس ولا تجثم على الصدر ، وتروق العين ولا تزيغ البصر ، وتسر القلب من غير أن تدعو الى المقارنة .

وكل عبقرية بسيطة بطبيعتها لا تعرف الأصول الموضوعة ولا تسير معتمدة على عصى ولا تستهدى إلا طبيعتها وغريزتها وتقطع الحياة بخطى ثابتة هادئة وتتخطى حبائل الذوق الفاسد ، وتجاوز دائرة المعروف من غير أن تستوحش ، وتوسع مجال الطبيعة من غير أن تعدوه ، وهى وديعة لأن الطبيعة كذلك ولكنها ليست ظريفة أو محتشمة ، وهى ذكية لأن الطبيعة لا يعوزها الذكاء ولكنها ليست ماكرة لأن الفن وحده هو الذى يمكر ، وهى مخلصة لنفسها لأن الطبيعة لا تفتأ على الرغم من كل اضطراب ، تعود إلى الاتزان ، وهى متواضعة لأنها سر مغلق حتى على نفسها ، ولكنها ليست قلقة لأنها تجهل مخاطر الطريق الذى تقطعه .

فلم يخطىء الفنان حين صور الفيلسوف رأساً ضخماً على جسم طفل .



الموسيقى المصرية

جلسنا ثلاثة — انا رابعهم — فى البينوار ندير اعيننـا فى الداخلين ونتأمل الجالسين ، فى غير حياء ولا تقية ، ريثما يرفع الستار ويصب فى آذاننا المطرب المعجب من ذلك الضرب الجديد من الغناء الذى وعدناه ، وكان الناس ينظرون الينا كما ننظر اليهم ، ويجسوننا بعيونهم ويقيسوننا بلحظاتهم كما نفعل نحن سواء بسواء ، وعدل أن يكون الفضول متبادلا ، ومع ذلك أبى لنا الغرور الا أن نتوهم اننا نحن وحدنا فى منزلة ملحوظة ، فاضطجعنا فى كراسينا وانتفخنا كالديكة الرومية لنملأ المقاعد ، وأفرغنا على أنفسنا كل ما وسعنا من السمت والابهة ، وصار الحديث بيننا همساً خافتاً لا تلتقى عليه عيوننا ولا تتقابل وجوهنا ، لأن من الوقار والرزانة فى مثل هذا الحفل الحاشد أن يلقى المرء كلامه الى جاره عن جانب خده ومن غير أن يدير اليه وجهه .

ورفع الستار فاذا صف مستقيم من الافندية فى ثياب السهرة وعلى رؤوسهم الطرابيش مائلة فى كل مميل ، فحدجناهم بعيون

فاحصة وأقبلنا عليهم اقبال من جاءوا ليحكموا. ونطقت الاوتار وهفا الينا صوت المغنى قويا صافياً ممتلئا ، ولـكنى لم أطرب ولم أعجب كما وعدت ، وعهدى بهذا الصوت يفتننى ويجيش نفسى ويزخر عواطفى ، فذهبت أفـكر وأسائل نفسى عن ضعف وقع الغناء وقلة الطرب ما سببها ؟ فقلت ما أظن إلا انى أفسدت على نفسى الأمر ، ذلك انى لم أدع نفسى مرسلة على سجيتهـا ، بل أعددتها للسماع على أن تقضى فيه بحكم وتقطع برأى ، فنبهت العقل وأتعت الاعصاب ، وكونت لنفسى رأيا فيما ينبغى أن تـكون عليه الموسيقى ، بنيته على ما قرأت وهدانى اليه التفكير وما سمعت من الموسيقى الغربية وما أكره من الموسيقى المصرية ، وأخلق بهذا أن يضعف الاستعداد للطرب ، وجعلت ألوم نفسى وأستحمقها ، وهل ترانى جئت إلى هنا لأتفلسف أو أكتب مقالا فى النقد ، أو جئت لأنسى نفسى برهة وأريح عقلى لحظة وأرخى أعصابى ساعة ؟؟ ان فى الوقت متسعاً للتفكير والملاحظة والنقد والفلسفة أيضاً بعد أن نفرغ مما نحن فيه ، ومن العناء الباطل والسخف البين أن ينغص المرء على نفسه المتع بأن يكظ ساعتها بمـا هو غريب عنها اجنبى منها ويقحم عليها مالا يواءمها وما ليس أكفل منه بافسادها . والخير للمرء حتى أن يتـكلف الطرب ولا يزال يغالط نفسه حتى يقنعها بأنها طربت، ذلك أجلب ولا شك لصفو الحياة. والذى يزعم ان الانسان ينبغى أن يكون

أطلب للحقائق منه لصفو الحياة ، يغالط نفسه مرتين .

وأسدل الستار فمال إلى واحد من جلسائى وقال : ما رأيك ؟

قلت : أليس الأوفق ان نرجئ المداولة فى الحكم حتى نفرغ من السماع شأن القاضى العادل !

قال : لاشك . لاشك . ولكن على العموم

فكتمت ما كنت أناجى به نفسى وقلت :

أن هذا الجديد الذى سمعناه ليس فيه من التجديد المزعوم شىء . وأرى مغنينا يتوهم أن مزية الموسيقى الغربية أن الاصوات لاتزال بين ارتفاع وانخفاض وجهر ومخافتة ، فهو لا ينفك يعلو ويهبط ويرعش صوته ، حاسبا أن هذا كل ما يحتاج إليه الامر ليجىء بالتجديد المنشود ، وفيما عدا هذا لا أرى فرقا بين هذا الغناء وأقدم ما سمعت من أدوار عبده وعثمان ، وعندى أنه اذا كان أحد من المصريين قد أدخل جديدا أو استحدث شيئا فى الموسيقى المصرية فهو عبده وسيد درويش رحمهما الله : فاما عبده فقد كانت الموسيقى قبل عهده أضيق ما تكون فوسع دائرتها ورحب أفقها وجاء اليها بالانغام التركية كلها إلا القليل . وأما سيد درويش فهو الذى لاءم بين التلحين والمعانى وعالج أن يكون فى تلحينه مصوراً ، ولومدالله فى أجله ... ولكنه عوجل قبل أن يتم مابدأ ، وكل ماتسمع تقليد لهذين وتوليد مما أخرجا .

والموسيقى المصرية لاتزال كلها غزلا إلا فى الفلتات المفردة .

وليس الحب عيباً ، ولا هو مما ينقص به قدر الانسان ، وكيف يكون كذلك وهو الوسيلة التى تتخذها الحياة لبقاء النوع فى هذه الدنيا ، ولكن الحب فى الأغاني المصرية اكثر ما يدور على معانى الرخاوة ، كما كان الغزل فى شعر المتأخرين من العرب وفيما نظم المقلدون والمتكلفون من المصريين . ولست أعرف شيئاً هو أشد ايغالا فى الأنوثة والتطرى من الأغانى المصرية حتى الحديث منها ، فهى دموع وسهاد وعجز عن التصرف والاحتيال وضعف عن الاحتمال ، وتطر هو منقصة للرجولة وتخل عن مميزاتها وخصائصها .

وهنا موضع التحرز ، فلست أقول أن الرجل لا يبكى أو لا يؤرقه وجده ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن بكاء الرجل التام الرجولة لا يكون إلا رائعاً وإلا خالياً من معانى الضعف والأنوثة كالشجرة الضخمة حين تقصف أغصانها الاعاصير الهوجاء . وكون الرجل قوياً ليس معناه أن الحياة ليست أقوى منه ، ولكنما معناه انه حتى حين تغلبه الحياة ويعجز عن ضبط نفسه ، يكون ذلك أدعى الى احترام « قوته المقهورة » منه على العطف على « ضعفه النسبى » . ولقد غلبت الالهة بروميثيوس وطرحته على صخرة شدته اليها وتركته لجوارح الطير تنهش لحمه وتمص دمه ، ولكن بروميثيوس ليس من أجل ذلك ضعيفاً خواراً ولا هو موضع عطف ومرثية، بل إكبار واجلال. وكثيرا

ما تكون الهزيمة أشرف وأنبل ، وليس بالنادر أن تكون أدل على القوة الوثابة .

وعلى كثرة ما في الاغاني المصرية من الغزل الرخو لم يخطر لأحد أن يجعله على لسان امرأة وان يحاول ان يصور به معاني الحب في نفسها ، كأنما الرجل هو وحده الذي يحب ، أما المرأة فليست سوى مجموعة من الجمال والصد والقسوة والتجني ، تنصب كالدمية لتعبد وتقدس من غير أن تحس أو تتحرك فيها خالجة ، أو تبادل الرجل حباً بحب .

والموسيقى تعبير ، كالشعر والتصوير ، والمرء يشهد الاوبرات ولا يحفل الكلام أو يجعل له باله ، اكتفاء بتعبير الموسيقى ، إذ كانت الالفاظ ليست سوى عون على صوغ الاصوات المعبرة . وليست الأوبرات سوى مثال أسوقه لأن الأمر فيها أوضح وأبرز ، وإلا فكل ضرب من الموسيقى له تعبيره حتى لقد احتاج الامر إلى وضع الشروح لسيمفونيات بيتهوفن ، إذ كان يتعذر على الكثيرين أن يدركوا معانيها المطوية في ألحانها من تلقاء أنفسهم وبلا معين من بيان أو شرح .

ولست أعرف أن موسيقياً مصرياً واحداً حاول أن يضع قطعة تصويرية ، كالفجر مثلا ، يفضي فيها إلى السامعين بنسيمه البليل وعصافيره الصادحة وأنغام الرعاة في بكرته الندية وحفيف الاوراق وخشخشة الاشجار في تلك الساعة الساحرة التي يستيقظ

فيها السكون وتتنفس الحياة وينسلخ النور من الظلمة ، ويعرب بها عن العواطف التي يحركها ذلك كله في النفس والحوالج التي يضطرب بها القلب

ثم أمسكت فما جئنا لهذا ، بل لما هو أمتع منه وأجدى ، وشرعنا نعالج نفوسنا بالشراب والمزاح ، وأصلحنا بهذين أوتارها فتهيأت للطرب ونقعنا الصدى ووجدنا السرور ، فيا ما أغرب هذه النفس الانسانية وأتم استعدادها للبس كل حالة ! قبل دقائق كانت نفوسنا لاتنبسط لما نسمع فداورناها حتى خف الحلم الراجح وغوى الرشد الركين ، ولو أردناها على أية حالة أخرى لما أعيتنا الحيلة ولا نبت هي في أكفنا . والواقع أن في وسع المرء أن يلبس نفسه أية حالة ، وأن يتنقل بها من النقيض الى النقيض ، والتمثيل شاهد على ذلك ، ألا ترى كيف يفرغ الممثل على نفسه الموقف الذي يصوره الكلام ويكون فيه كأنه يجربه ولا يتعمله ؟ وقد يشتد استيلاء الموقف على نفس الممثل فينقلب التمثيل حقيقة ويحس الرجل بالعواطف المفروضة ، فتنهمر الدموع ويختنق الصوت ، ولعله كان يخشى أن يضحكه شيء .

وهذا راجع الى القدرة على الايحاء الى النفس . ولو أن رجلا دأب على أن يقول لنفسه « أنا مجنون » لأصيب بالخبل ورزئ في عقله بعد يومين اثنين ، أو لو أنه واظب على أن يحدث نفسه بأن الله أفاض عليه وقاراً وجلالا ، لرأيته بعد قليل يمشي

بتؤدة ويخطو على مهل ويتأنى فى كلامه ويطيل الصمت كالذى يفكر قبل أن ينطق مجيباً أو سائلا أو محاوراً ،

كان لى صديق أديب شاعر فيه شذوذ كثير ، نصيحته لمن يراه كئيباً كاسف البال أو لمن يعهد فيه طول الوجوم وكثرة السهوم : « قف أمام المرآة واضحك . فانك خليق اذا فعلت ذلك أن تظل تضحك وتضحك حتى يعزك أن تكف : ومن يدرى لعلك آخر الأمر تجن »

وكان يقول لى أنه يفعل ذلك كلما خاف أن يؤذيه طول الكآبة . وفى شذوذه آية على أنه صادق . ولا شك أن من يضاحك نفسه فى المرآة لا يسعه الا أن يضحك من أعماق قلبه. وأحسب أن السبب فى ذلك ليس أن منظر المرء كما هو باد فى صقال المرآة ، مضحك فى ذاته ، كلا ! بل لأن الضحك يعدى بالضحك أى يوحيه الى النفس ، كما تعدى الثؤباء . ولو أنك جلست الى رجل وتعمدت أن تتثاءب فى وجهه مرة بعد أخرى لكان الاغلب فى الظن أن ينام ؟ والعدوى ماذا هى اذا لم تكن نوعاً من الايحاء ؟؟ وفى الحكم المأثورة : « لا تتمارضوا فتمرضوا » ومعناها لا توحوا الى أنفسكم الاحساس بالمرض بان تتكلفوه فان الأرجح أن ينقلب التكلف حقيقة . ولقد كنت مريض الاعصاب كثير الاوهام والهواجس ، فلما أعيتنى الحيل ولم يجدنى طب الاطباء أوحيت الى نفسى أن شعورى كاذب وانى صحيح معافى

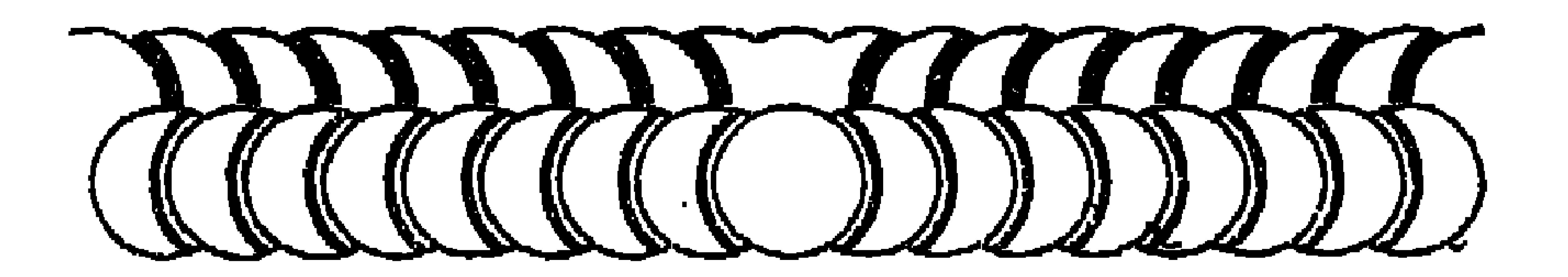
البدن فبرئت ، وما زلت الى الساعة كلما عاود اعصابى الاضطراب أعود اليها بالايحاء فليت من يدرى كم أظل قادراً على ذلك !

وكما أن الشعر من مزاياه أو خصائصه أنه ينقل الى القارئ العواطف والمدركات التى يتناولها ويتولاها بالوصف والتصوير على نحوما ، كذلك الموسيقى توحى الى السامع ما يتناوله تعبيرها . ولما كانت لغة الموسيقى أغمض ، لانها أعم وأوسع نطاقا وأقل تحديدا من الشعر، فان مقدرة النفس على الاستيحاء منها لاجرم تكون أعظم من مقدرتها على الاستمداد من الشعر ، وذلك لان فى الشعر جلاء ووضوحا وتحديدا نسبيا — أى بالقياس الى الموسيقى التى يشيع الاحساس بمعانيها من غير تحديد لها ، فعمل الخيال حيال الموسيقى أكثر ، ومجاله أوسع وأرحب . وكما أن أردأ الشعر ذاك الذى يأخذ على خيال القارئ متوجهه ويقطع عليه طريقه ولا يكاد ينبهه ويبعثه ـ اذا فعل شيئاً من ذلك ـ حتى يهيض له جناحيه ، كذلك الموسيقى شرها وأردؤها تلك التى يهبط معها الخيال ولا يسمو ، ويسف ولا يحلق : والموسيقى المصرية ماذا توحى الى النفس ؟؟ انها لتطريها وأنوثتها لا تكاد توحى الى النفس شيئا آخر غير صور النساء والخواطر الجنسية والترف اللين واللذة البليدة والحياة الرخوة ومايتصل بذلك من قريب

والحياة الانسانية قائمة على الايحاء ، وكل امرئ يوحى الى كل امرئ ، وروح الجماعات ليس أظهر فيها ولا أقوى من

الايحاء . ولقد كدت أقول – بل أنا أقول – أن الحب مرده الى قدرة المحبوب على اثارة التعلق به والرغبة فيه والحنين اليه ، أى الى ايحاء ذلك . ولعله ليس من الاغاش فى الخطأ أن نقول أن الاحساس بالجمال الانسانى ضرب من ضروب الايحاء ، وبغير ذلك كيف نستطع أن نعلل أن الجميل فى عينيك قد لا أراه أنا جميلا ؟ ؟ أنعلل ذلك باختلاف الاذواق وتفاوتها ؟ أم بالفرق بين استعدادى النفسين لتلقى المؤثرات والتفطن الى المعانى الدقيقة الخفية ؟ قد يكون هذا أو ذاك أو كليهما ، ولكن لم لا يضاف الى ذلك أو يقدم عليه استطاعة الجميل أن يوحى اليك معانيه وعجزه عن أن يوحيها إلى أنا ؟؟ ولا غرابة فى هذا ، فقد يسعنى أن أنيم واحداً من الناس تنويما مغناطيسيا ويعييني أن أنيم غيره .





ابن البلد

البلد القاهرة أو مصر — كما كانت ، وكما لا تزال تسمى هذه العاصمة — أو طائفة من الاحياء هى الواقعة بين العباسية والسيدة زينب ، وابنها شخصية شاع فيها الفناء علواً وسفلا وعفت عليها المدنية فلا يكاد المرء يلتقى بها فى هذا العصر ، وما أسرع ما تداعت الاسوار وطغى عباب الحياة ! قبل عشرين سنة فقط كنت ترى ابن البلد هذا « مستفيضا » وتلقاه فى حيثما تكون ولا تخطئه عينك وهى تدور بلحظها ، فهو رجل دنياه مصر أو تلك الاحياء القديمة منها ، لا يعرف غيرها ولا يكاد يدرى أن فوق ظهر الارض سواها ، وهبه يدرى فما أقل ما يعبأ بذلك أو يحفله ، والزمن عنده اللحظة التى يكون فيها ، وهو ذكى إلا انه جاهل ، وظريف سوى أنه مغرور ، وحى ولكنه لا يحيا إلا بحواسه. تدور الدنيا حوله على محورها أو على قرن الثور الذى يحملها ويدور رأسه معها ولكنه لا يعرف ولا يرى شيئا ولا يسأل عن شىء ولا يكترث لشىء ، ويحتقر الريف لانه يجهله ، ويزدرى

المدنية لانه لم يألفها ، ويعتز بنفسه ويستضخم أمرها لانه سهر الليالى وأحياها بالغناء والشراب والعربدة ، وهو مثال الرضى عن النفس والجمود الذى يخلفه هذا الرضى . واذ كان يرى كل شىء من قريب فما من شىء يدعوه الى العجب أو يبتعث الرغبة فى الاستطلاع ، وكل احساس له يصل اليه عن طريق الفكاهة ، واشد ما يبغض أن يضطر الى الجد والوقار ، وليس فى نفسه محل للاعتراف بالجميل ، والامر عنده مجاملة متبادلة أو حق ، له أن يجبيه وعليك أن تؤديه ، هو المثل الاعلى لنفسه — أو لعله جار سابع أو ثامن — فليس لغير نفسه احترام ، ولا مطمح له إلا أن يظل قادرا على التحفظ بمظهره ، فلا عناية له بالسياسة أو شؤون الحكم ، وبحسبه من العلم بالحكومة ومهماتها أن يرى مواكب رجالاتها، ومن التطلع اليها ان يتصور نفسه راكبا مركبة المحافظ، أو أن يكون ممن يحظون بالدخول على « رياض باشا » ، يفتح عينه على الدنيا كل يوم قبيل الظهر ، فتنحى الستائر عن النوافذ ويؤذن لنور النهار أن يدخل ، وبعد أن يقضى ما يشاء من الساعات التى تأبى إلا ان تكر ، فى التمطى والتثاؤب وتناول الطعام والقهوة المرة مذابا فيها العنبر، يقوم الى ثيابه فينتقى منها جبة وقفطانا منسجمين متجاوبين ثم يلف العمامة ، ولفها مهمة شاقة ، قد يستغرق بقية النهار الى العصر ، ثم ينزل الى المنظرة ويتلبث بها ريثما يشرب القهوة ويشد أعصابه ثم يخرج الى دكان

بدال أو حلاق أو عطار أو غير هـذا وذاك ، ويتوافى الرفاق وتروى انباء السهرات . ويسأل السـائلون عن « عبده » أو « عثمان » أين يغنى الليلة . ويتفق الاخوان على مكان يجتمعون فيه وشراب يجلسون اليه . ثم يتحاملون بعد أن يقضوا وطراً من الطعام والشراب الى حيث المغنى ولعلهم غير مدعوين . فيظلون الى طلوع الشمس فى آهات صاخبة وضوضاء ترج ما بقى من الرأس وتزلزل الـكيان .

ومجالس أبناء البلد نـكات خشنة وضحك مقرقع . وأعذب ما يكون طعم الحياة فى أفواههم حين يركبون صاحبا لهم بدعابة عملية . أعرف واحداً من أظرف أبناء البلد وأكرمهم وأرقهم حاشية . لا يرضى عن نفسه إلا اذا استطاع أن يوقع واحداً ممن يسهل التماجن عليهم . فى مأزق أو يزج به فى ورطة . وكان يستثقل ظل واحد من حراس المقابر . وكان هذا لا يفتأ يغشى مجالسه وينغص عليه لذاته البريئة بتذكيره بالموت واحضاره الى ذهنه . فاراد أن ينفيه عن هذا المجلس . فأوعز الى خادم فاستأجر هذا مكاريا وبعثه برسالة الى صاحبنا الحارس مكتوبة على لسان تاجر معروف والدته مريضة يدعوه فيها الى الحضور اليه باسرع ما يستطيع للاتفاق على بناء مقبرة . فجاء المـكارى الى الحارس بالرسالة ففضها فتهلل وجهه وراح يحسب الربح المنتظر من وراء هذه « المقاولة »

فلم يصرف المكارى بل ركب حماره ومضى الى التاجر ودخل عليه وحياه ودار بينهما حديث كهذا :

الحارس ـ إن شاء الله تكون الوالده بخير .

التاجر — بخير بارك الله فيك

الحارس — هل هى مريضة جدا

التاجر — نعم ولكن الله المسئول أن يخفف عنها ويلطف بها

الحارس — إن شاء الله . إن شاء الله . لقد بعثت لى حضرتك برسالة وقد جئت حسب أمرك

التاجر — مستغربا — رسالة ؟ لماذا ؟

الحارس — نعم ألست حضرتك فلانا ؟

التاجر — هو بعينه .

الحارس — إذن الرسالة منك .

التاجر — ولكن .. هل تسمح لى بمعرفة اسمك ؟

الحارس — آه ! يظهر أن حضرتك لم تعرفنى ولهذا تستغرب أن تكون قد بعثت الى برسالة .. أنا فلان

التاجر — أرجو .. أن تزيدنى بيانا فلست أذكرك ولا مؤاخذة .

الحارس — هذا غريب !

ورأى أن يحل الاشكال ويحسم الخلاف بتقديم الرسالة التى

تلقاها . وتصور موقف الرجلين حين فض التاجر الخطاب واطلع على هذه « البشرى » فى الصباح الباكر !

ومن نوادر صاحبنا أنه وصف مرة لبخيل طريقة لصنع « الكنافة » وأقنعه بتجربتها وجاءنا البخيل بعد أيام ـ وكان ذلك فى رمضان ـ يشكو ويسخط ويلعن ويقول « اشتريت أربعة ارطال من الكنافة ، وناولتها امرأتى وقلت أعديها وجئته بثلاثة أرطال من اللبن الحليب كما أوصانى اللعين — خيبة الله عليه ـ وغلينا اللبن قبل المغرب بدقيقتين وكانت « الكنافة » قد نضجت . فلما سمعنا مدفع المغرب صببنا اللبن عليها وأغرقناها فيه ، واقبلنا على الطعام نتناول منه بقدر لنترك مكانا « للكنافة » واذا بها عجين لا يؤكل ولا يصلح لشىء إلا ان يرمى للكلاب ! وهكذا ضاع على ما انفقته فى الكنافة من السمن والسكر واللبن والزبيب والصنوبر والبندق والجوز واللوز ومن الوقود ، وضاع على سائر ألوان الطعام التى لم اكد أمسها ترقبا للكنافة . فبماذا أدعو عليه ؟ . »

وابن البلد لا يعرف الريف ولا يصبر عليه ، واذا خرج اليه استغرب أن الطريق ليس غاصا بالمساكن المتلاصقة ، وان الاشجار قائمة هنا وها هنا ، وان الدنيا ارحب مما كان يظن ، وأحس بالميل الى الضحك ، ولكن ثقته بنفسه تفارقه مع المدينة التى غادرها ، ويرى نفسه بين الفلاحين غريبا ويسمعهم يتكلمون فيما لا يفهم

ولا يسعه أن ينهز معهم بدلوه، ويخطئ عندهم سهراته ومجالسه ، ويحتاج أن يغير عاداته وأن ينزل عنها وان يحتمل الاضطراب الناشئ عن ذلك ، ولا يحس فى الريف ذلك التعاطف القريب ، ولا يفهم ان ينام على ظهر الفرن ومع النساء والاولاد والطيور والبهائم لان له « مزاجا». والناس فى الريف أكثر مايكونون ، بعداء بعضهم عن بعض ، وهم يقضون اوقاتهم مبعثرين فى الحقول فليس فى مجالسهم ذلك الصقل ولا تلك النعومة التى تكون لمجالس أهل المدن، فهى لاتخلو من جفوة طبيعيةوتكلف محسوس وصخب مرجعه الى اعتياد أهل الريف أن يتخاطبوا بأصوات عالية لبعد المسافات بينهم ، وقلما يشعر الحضرى بحرارة الترحيب إلا حيث يكون قدوم الغريب « حادثة » يندر أن تتكرر ، فيتدفق الكرم المحبوس اذلم يكن له مجال أو لظهوره فرصة كبيرة ، فيقبل الناس عليه ويفرحون به إقبالهم على التحفة النادرة أو المنظر الذى لا يجود به الزمن مرارا — أو هكذا كان الحال قبل أن توثق المدنية ما بين القرية والمدينة من الروابط ، وتسهل عليهما الاتصال والتبادل والتفاهم والتقارب .

وابن البلد قد يكون أديبا أو فنانا — اذا كان قد جاور فى الازهر فى صدر شبابه ، وأدبه البيت أو البيتان من الشعر يضمنهما نكتة لفظية أو معنوية ، يداعب بها صديقا ، وأكثر ما يكون نظمه للازجال والمواليات ، وربما نظم التوشيح ودفع

به الى ملحن أو مغن، وهو لا يحفظ من الشعر إلا ابن الفارض ومن اليه واذا كان فنانا فهو من هواة «العود» على الاخص، تبتدئ وتنتهي دنياه بالشراب والسماع والوجه الحسن، وفيما عدا ذلك لا وجود للدنيا .

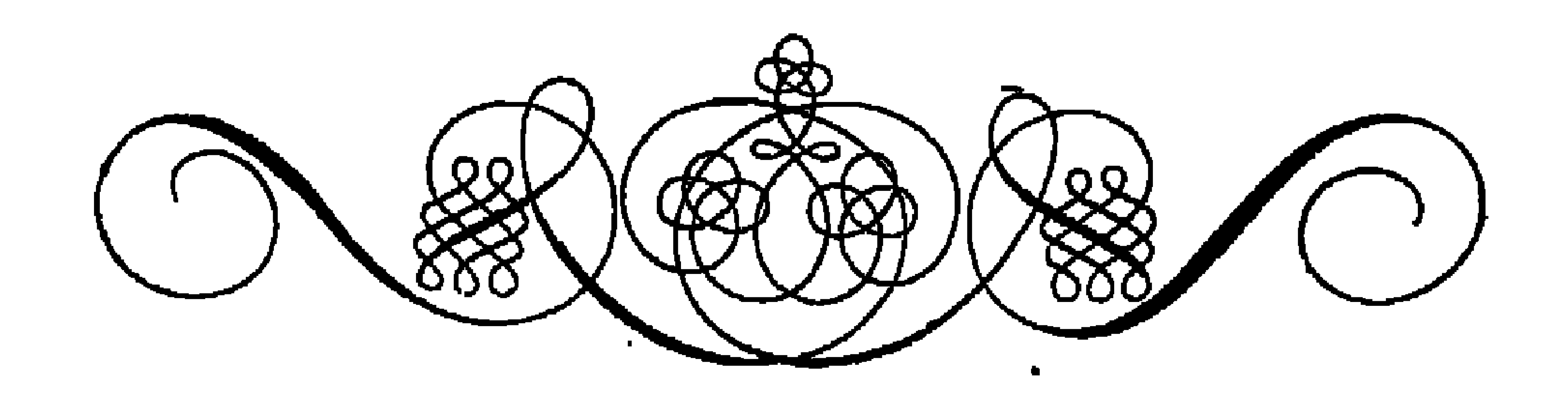
ولا يعرف ابن البلد الحب ولا يحسن أن يعشق، والجمال عنده بوزنه أرطالا أو قناطير، والمرأة مخلوق يداعب ويغازل ويجمش الى آخر ذلك، وليست انسانا يبادلك التعاطف ويعاونك في الحياة ويقاسمك متعها ومتاعبها ويؤدى مثلك وظيفته التي خلق لها . وقد ترى ابن البلد عاشقا ولكنه عاشق بحواسه، لا يعرف صبوة النفس الى النفس وحنة القلب للقلب .

وهو يجود في غير كرم، ويمسك في غير بخل، ويتكلم بغير علم . ويضحك بغير جذل . ويحتشم في غير أدب . ويسير في الدنيا غير محتفل . ويقضى الحياة غير عابئ بما كان أو مكترث لما يكون . همه أن يأكل وينام ويسر ويضحك . فالضحك وما يعين عليه من الشراب ومجالس الاخوان . غرض يسعى اليه وغاية تعتمد . والحياة آخرها الموت . فما خير التعب فيها وارهاق النفس بالعمل والطلب ؟ أليس كل شيء الى فناء ؟. فما أولاه باغتنام الساعة التي يكون فيها وما أسخف من يعنون أنفسهم ويحرمونها لذاذات العيش ومتع الوجود ؟ ألم تر الى فلان الذى

قضى عمره يجمع المال ويطلب المناصب ويريق ماء وجهه على الاعتاب ويقتر على نفسه ليغنى ويضيق على ذويه ليتسع . ألم تر اليه كيف قضى نحبه وهو جالس على باب الحلاق ؟ ؟ فماذا أجدى عليه تعبه وسعيه وتقتيره وحشده ؟ ؟ ان فيه لعبرة لسواه . فهات الكأس وأصلح الاوتار وأطلق صوتك بالغناء ينفى عن النفس وحشتها ويجلو صدأها وينسيها ان الحياة الى انقضاء .

فابن البلد فلسفة عملية تجهل نسبها العريق فى الابيقورية المشوهة ولم يعف عليها الزمن حين عفى عليه .





الغرفة المسحورة

ملاحظة — وجدت هذه القصة أو الخرافة أو ما شئت فسمها ، مكتوبة بخطي وملقاة بين أوراق قديمة لى ، فقرأتها فراقتني وكأنى ما رأيتها من قبل ، وكانت بلا عنوان فاخترت لها هذا العنوان ، واجريت فيها القلم بقليل من التهذيب والحذف والزيادة لتعود وكأنى كتبتها الآن . ولعلها كانت فى ثوبها القديم أجمل وأبهى . وما أظن بى إلا أنى مسختها وشوهتها من حيث أردت اصلاحها ، ولكن ذوقي الحاضر — أو مزاجى اذا شئت — لا يسيغ أسلوبى القديم أيام كنت ، بعد ان أفرغ من الاداء ومن صوغ الفكرة أو الخالجة فى العبارة التى أنتقيها لها ، أعود فاتلو الكلام بصوت عال وأدهوره فى شدق وبالى مجعول الى ما فيه من الموسيقية . فاذا « احسست » كلمة نابية عمدت اليها فغيرتها أو زحزحتها عن موضعها حتى يطرد بها الصوت وتستقيم معها النغمة — وهذا مالم يعد لى صبر عليه أو

اكتراث له . وانى لأكتب الآن وكأنى أضرب بالسياط . ولا أكاد أبدأ حتى أرانى أعدو وأعدو طلبا للغاية ورغبة فى الانتهاء .

ولهذه القصة مزية هى أنى لاأعرف كيف كتبتها ولا أدرى أوجدتها فى طريق، أم سمعتها من احدى العجائز أم نقلتها عن كتاب من كتب الاقاصيص والخرافات فقد تكون مما ترجمت أو مما سمعت ، ولست استمرىء أن أعنى نفسى بالتقصى والبحث عن أصلها وفصلها فان هذا عناء لا تستحقه ، ولا طائل وراءه ، وأكثر القصص التى تكون من هـذا القبيل قد يعرف كاتبها أو جامعها ولكن من المستحيل أن يوفق انسان الى معرفة واضعها الاول ، وقد يكون لها أكثر من واضع واحد : أعنى ان واحداً يضعها فى أول الأمر فيجىء ثان ويرويها بعد أن يزيد عليها ويضيف اليها ، ثم يليه ثالث فرابع وتنحدر الى الاجيال التالية بعد ان تكون قد استقرت على صورة نهائية وصارت ملكا مشاعا لرواة الاقاصيص ، وبعد أن تكون حقوق التأليف قد فقدت من زمان بعيد . ومن كان يستغرب أن تضيع الحقوق على هذا النحو فما عليه إلا أن يعمد الى أية اقصوصة مما ترويه العجائز وليعالج أن يتعقبها راجعا بها الى أصولها ومنابتها ليرى أى مستحيل يتكلف .

والآن الى القصة بعد هذه المقدمة التى لا تقدم وقد تؤخر .

***

قالوا — ولا أدرى من هم — أنه كان هناك — فى رقعة من هذه الارض كما لا حاجة بى الى التنبيه — قصر لأمير عظيم ، وكان الجانب الاكبر من هذا القصر الفسيح المترامى الاطراف ، عتيقا متداعيا يريد أن يتقوض ولكن جانبا منه لم تزل يد التعهد تمتد اليه بالصيانة والتجديد والترقيع من حين الى حين وفيه أقام صاحبه وبه اجتزأ ، ويعنينا من القصر كله ، قديمه وحديثه أو مجدده ، ليلة واحدة اجتمع فيها فريق من اخوان الامير أو ذوى قرابته أو لا أدرى من غير هؤلاء وأولئك فان وسائل التحقيق الآن غير ميسورة على بعد الشقة « الزمنية » . وكان لهذا الرجل — كما ينبغى أن يكون له — فتاة بارعة الحسن فاتنة الجمال ، خطبها اليه شاب نوجز فى وصف مزاياه فنقول أنه مخلوق على طراز أبطال القصص ، ولا نحتاج أن نذكر أنه كان بين الفتاة والفتى حب متبادل وأنهما ـ فيما بينهما ـ كانا يكونان أتونا مستعرا بضرام الحب ونار الهوى .

وفى تلك الليلة دار الحديث على حجرة مهجورة فى الجناح الخرب من ذلك القصر قال أحد العارفين بسرها أنها مسحورة وأن من ينام فيها ليلة لا يستيقظ إلا بعد خمسين سنة فريع الفتى مما سمع وقال انه لو كان صاحب القصر لهدم هذه الحجرة حتى لا تظل مبعثا لأمثال هذه المصائب .

قال الراوى . وانتقل الحديث الى غير ذلك وتدانت بعض

الرؤوس واتفق أصحابها على أن يغروا الفتى بالمبيت فى تلك الحجرة، وبلغوا غايتهم بهذه الطريقة : أقنعوا الفتاة بأن تعينهم ، فدنت من حبيبها وكلمته فى ذلك فأبى واستعصى وقال لها أنه مقتنع بأنه اذا قضى الليلة فى تلك الحجرة المشئومة فلن يقوم منها إلا بعد خمسين سنة ، وأن مجرد التفكير فى ذلك يرعبه فكيف بمكابدة المبيت والاستهداف لذاك الخطر ! فبكت الفتـاة ، وتلك حجة لا تدفع ، وقد عجز الفتى كما يعجز آلاف الناس كل يوم ، عن ردها فاستسلم لقضاء الله وقال لها أنه مجيبها الى ما سألت فلتزجر عينها عن البكاء وليشرق وجهها فطوقته بذراعيها ، فكان عدد القبل التى طبعتها على خديه وفمه دليلا ليس أقطع منه على أن فرحها برضاه حقيقى وسرورها باجابتها الى مبتغاها عميق ، ثم طارت كالفراشة الى القوم تنبئهم بفوزها فأثنوا عليها بالذى هى أهله .

وبعد أن قضى القوم مأربهم من السهر ذهبوا بالفتى الى تلك الحجرة وخلفوه بها فما عتم أن نام .

***

ولما استيقظ الفتى وأدار عينه فيما حوله كاد قلبه يقف من هول الفزع . ذلك أن الحجرة تغـيرت عما كانت حين دخلها ، ورأى الجدران مشققة والمناكب ناسجة بيوتها الواهية فى كل مكان ، والستائر والافرشة عتيقة بالية والاثاثات باهتة مفككة

الاوصال . فوثب عن السرير ولكن رجليه خذلتاه فهوى الى الارض فقال « هذا من الشيخوخة »

ثم انه نهض ليرتدى ثيابه فاذا بها لم تعد ثيابا إلا على المجاز : ولبسها فجعلت تنهار وهو يعالج أن يدخل فيها ، فهرول خارجا من الحجرة ومضى لا يلوى على شيء حتى بلغ القاعة التى كان فيها مع القوم قبل أن ينام . فلقيه هناك شيخ مقوس الظهر جعل يتأمله مستغربا ويصعد نظره فيه ويصوبه متفرسا فقال الفتى :

« هل لك ياسيدى أن تدعو الأمير الى هنا ؟ »

فنظر اليه الشيخ نظرة بلهاء وقال مستفهما :

« الامير ؟ »

قال الفتى : « نعم ولك الشكر »

فنادى الشيخ شابا وقال له :

« هل بين الضيفان هنا أمير ؟ »

فقال الفتى بلهجة المتردد :

« انه ليس ضيفا بل صاحب القصر »

فتبادل الشيخ والشاب نظرات الدهشة وقال الشيخ وعلى فمه ابتسامة عطف وحنان :

« أنا صاحب القصر »

فقال الفتى بصوت متهدج : « منذ كم يا سيدى ؟ »

قال : « منذ وفاة أبى ... منذ أربعين سنة »

فهوى الفتى على مقعد وغطى وجهه بكفيه وجعل يهتز يمنة ويسرة ويتوجع .

فهمس الشيخ فى أذن الشاب : « انه على مايظهر مجنون فادع بعض من فى الردهة »

ودخل كثيرون وأحاطوا بالفتى وراحوا يتهامسون ورفع الفتى وجهه اليهم وتأملهم واحداً واحداً ثم هز رأسه وقال :

« ليس بينكم واحد أعرفه . وقد مات كل من كان يعرفنى ويعنى بى . ولكن لا شك أن بين الشيوخ منكم من يستطيع أن يذكر شيئاً عنهم »

ودنا منه الشيوخ وجعل يستخبرهم عن اخوانه واحداً واحداً فكانوا يقولون له أن هذا مات منذ عشر سنوات وان ذاك قضى نحبه منذ عشرين سنة وهكذا وكان كلما تلقى نبأ وفاة يزداد شعوراً بعبء السنين التى قام من نومه يحملها على ظهره

ثم قال : هناك واحدة أريد أن أعرف ماذا فعل الله بها ولكنى لا أجرؤ أن اسألكم عنها — ابنة الأمير ... »

فقالت عجوز كانت بين القوم :

انى أعرفها .. مسكينة . مسكينة . أصابها الدهر فى حبيبها فماتت غماً منذ نحو خمسين سنة . وهى الآن مدفونة الى جانب الصفصافة القائمة فى أقصى القصر ... »

فحنى الفتى رأسه وهو يقول :

« رب لماذا بعثتني من نومي ؟ وهكذا ماتت المسكينة أسفاً على وحزنا !! وما كان أندى صباها وأنضر جمالها وأعذب حسنها ثم تالله ما كان أطيبها ! لسرعان ما غربت شمس حياتها ! الا ان على لدنيا لها فما اعرفها أساءت الى أحد عن عمد ، فلأقضين نحبي مثلها حزنا عليها . »

وانثنى رأسه على صدره ، وما هي إلا دقيقة أو بعضها واذا بالقوم قد انفجروا ضاحكين واذا بذراعين بضتين تحيطان بعنق الفتى واذا بصوت حلو يقول :

«هذا أنا ياحبيبي . ان ماتقوله يقتلني . فكفى مزاحا . ارفع رأسك واضحك معنا . فقد كان ذلك كله دعابة»

ورفع الفتى رأسه ونظر مذهولا فقد نضا كل واحد ماتنكر به وارتدوا في لحظة واحدة الى الشباب . وقالت الفتاة وهي تضحك

« لقد كانت دعابة بارعة . وقد قمت بواجبك بشجاعة . ولقد سقوك منوما دسوه لك في شرابك قبل أن تذهب الى الحجرة وبينما كنت تغط في نومك نقلوك الى حجرة خربة وضعوا فيها تلك الأشياء البالية ، وغيروا ملابسك وأبدلوها بهذه الخرق التي تلبسها الآن . ولما أفقت وجئت الى هنا كانوا قد أعدوا لك هذين الرجلين ولقنوهما ما يقولان وكنا نحن جميعا على كثب من هنا متنكرين نسمع ونرى . الحق انها كانت مزحة بارعة . ولكنها

لم تخل من قسوة . فقد تألمت لحظة ، ولشد ما تألمت فانظر الينا واضحك معنا »

فنظر اليها ثم اليهم وأجال فى وجوههم الضاحكة عينا حالمة ثم تنهد وقال :

« انى متعب ياسادتى . وأرجو أن تمضوا بى الى قبرها . »

فغاضت الابتسامات واصفرت الوجوه وهوت الفتاة الى الارض مغشياً عليها .

وقضى القوم يومهم بوجوه ممتقعة وأصوات خافتة وساد القصر سكون أليم بعدأن كان يتجاوب بأصوات المرح ، وعالجه كل واحد بدوره يريد أن يوقظه ويرده الى الحقيقة ويطرد عنه هذا الوهم ولكنه لم يكن يجيب ألا بنظرة امتزج فيها الحزن والذهول وبكلام كهذا :

« سيدى . انى فى هذه الدنيا وحيد لا أهل لى ولا أصحاب ، ماتوا جميعا ، ماأطيب كلامك وأنبل قصدك وأرق قلبك . ولكنى لا أعرفك ، انى مستفرد وحد فى هذه الدنيا فامض بى الى قبرها . »

***

وظل الفتى عامين يقضى نهاره كله وهزيعاً من الليل تحت شجرة الصفصاف التى توهم ان قبر فتاته تحتها . ولم يكن له رفيق سوى الفتاة نفسها وكان يستريح الى صحبتها لانها — كما كان يقول —

تذكره بحبيبته التي ماتت منذ «خمسين سنة» وكثيراً ما كان يقول لها :

«لقد كانت فتاة لعوبا ممراحا . أما أنت فلا تضحكين أبداً .

ولا تزالين — كلما ظننت انى غير ناظر اليك — تبكين لا أدرى لماذا؟»

ولما مات الفتى دفنوه الى جانب هذه الشجرة كما أوصى .

فكانت الفتاة تجلس تحتها وحدها كل يوم وطول اليوم وظلت كذلك عدة سنين لا تكلم أحداً ولا تبتسم أبداً . ثم تقبل الله توبتها وقبضها اليه فدفنوها الى جانبه

***

(ملاحظة أخرى . لم أستطع على كثرة ما حاولت أن أهتدى الى الأسماء لأن البعض مطموس والبعض مهمل أو لا يقرأ وقد خطر لى أن أضع لها أسماء عربية ، وأعنى بالعربية الاسماء المصرية المستعملة فى هذه الايام ، فجربت محمداً وعلياً وابراهيم ومصطفى للأمير والشاب وغيرهما من الرجال ، وفاطمة أو خديجة أو نعيمة للفتاة فلم أر أنها وافقت مكان الحاجة أو أن عليها تلك المسحة التى تلائم القدم الذى تم عليه القصة وتناسب ايغال الخرافة فى الزمن الماضى فعدلت عن الاسماء العربية وفكرت فى المصرية القديمة من أمثال حرحور ومنقرع للرجال وحتشبسوت للمرأة فقلقت أسماء الكهان والملوك والملكات فى هذه الامكنة التى هوت اليها ونبت فيها ، ورأيت أن اختراع اسماء مصرية قديمة

وتلفيقها يحتاج الى مراجعة طويلة من أجل قصة صغيرة .

وأخيراً رأيت أن أسوق القصة وأن أهمل الاسماء أو على الأصح أدع الأمر فيها للقراء ، فاذا أهتدوا الى اصل القصة فما عليهم إلا أن يضعوا الاسماء فى مواضعها ، وإلا فكل منهم حر فيما يختار لهذه الاشخاص . وعلى أنه ليس أجدر بقصة لا أعرف من أين جاءتنى من أن تسير أشخاصها بين القراء نكرات غير معرفة باكثر من الحادثة .

